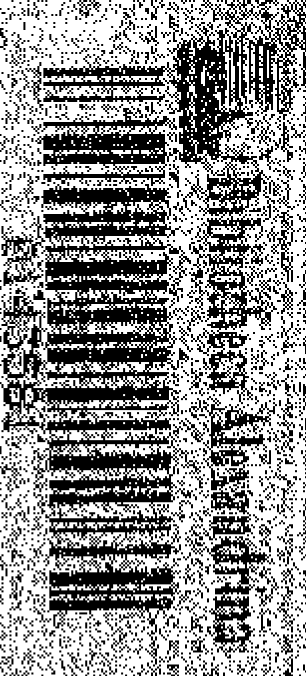
دراسات في الفكر العربي



دار العلوم العربية
بيروت - لبنان

دراسات في المكتبة العربية
وتدوين التراث

دراسات في المكتبة العربية
وتدوين التراث

دراسات في المكتبة العربية وتدوين التراث





الطبعة الأولى
١٤١١هـ ١٩٩١م

الناشر
دار العلوم العربية
للطباعة والنشر
مقابل جامعة بيروت العربية
بناية عنان
هاتف: ٣٠٧١٧٣
ص.ب: ٩٥٣٥ - ١١
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عندما تُذْكر كلمة «مكتبة» فإن أول ما يتبادر إلى الذهن من مفهومها هو مكان حفظ الكتب، ثم الشيء الذي أُخذ منه هذا الاسم وهو الكتاب، ثم مفهوم الكتاب نفسه وما يحويه بين دفتيه من معارف وعلوم. فلكلمة «المكتبة» إذن مفهومان، أحدهما لغوي، والآخر اصطلاحي، ومدار الحديث بطبيعة الحال، هو المفهوم الاصطلاحي القائم على محاولة التعريف بالكتب التي حملت تراث الأمة، أو المصادر التي يتوجه إليها القصد للتعرف على ما حوته المكتبة العربية من أفكار العرب وعلمهم وثقافتهم، مما يعكس صورة حضارتهم في أدوار تطورها على مَرِّ السنين.

ومفهوم الكتاب هو المعرفة، أو العلم، أو الفكر المدوَّن بالكتابة، أيا ما كان نوع آلة الكتابة. ومفهوم الكتاب عند العرب يختلف في جاهليتهم وفي صدر الإسلام عنه بعد ذلك.

كان مفهوم الكتاب عندالعرب في الجاهلية وصدر الإسلام مفهوماً واحداً هو المفهوم الديني، وذلك ما يُفهم من الدلالة القرآنية لكلمة الكتاب، وهو الوحي أو التشريع السماوي المنزل على نبيّ لتبليغه للناس. فأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، وكتاب اليهود هو التوراة أو الشريعة السماوية التي نزلت على موسى عليه السلام، وكتاب النصارى هو الإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام. أما كتاب المسلمين فهو القرآن الكريم الذي تلقاه محمد عليه الصلاة والسلام

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ النساء (آية ١٣٦)

والكتاب عند فقهاء المسلمين هو المصدر الأول للتشريع، وهو القرآن الكريم، وكان القرآن أول كتاب مدون في تاريخ العرب والمسلمين، لا يعرفون غيره،حتى اتسع مفهوم الكلمة ليشمل ما دُوِّن بعد ذلك من علوم دينية ولغوية وأدبية وغيرها من العلوم الأخرى، وكانت كلمة «كتاب» تطلق أيضاً على الرسالة المكتوبة، بَدْءاً من رسائل النبي عليه الصلاة والسلام إلى مَنْ كان يدعوهم إلى الإسلام، ثم رسائل الخلفاء ومَنْ بعدهم من حكام وعلماء وغيرهم. بل امتد مفهوم كلمة «كتاب» ليشمل أقسام الكتاب، فأصبح بعض المؤلفين في عصر ازدهار التأليف العربي يطلقون على كل باب من أبواب مؤلفاتهم كلمة «كتاب».

إذن لم يكن قبل القرآن الكريم كتاب للعرب، لا ديني ولا غير ديني، إذ كانت الأمة العربية أمة غير كاتبة، وظل وعاء حضارتهم الأولى يتمثل في حافظهم، ولم يكن أمامهم من سبيل إلى تناقل أخبارهم وأشعارهم، وأنسابهم وأيامهم، إلا منفذ واحد قوامه ثلاثة: السماع والحفظ والرواية. وربما فرضت عليهم طبيعة حياتهم ألا يكونوا كاتبين، إذ الكتابة ومقوماتها في زمنهم كانت تستلزم حياة الاستقرار، والاستقرار من سمات البيئات الزراعية، والعرب آنذاك بدو رُحَّل لا يكادون ينزلون منزلاً يرعون فيه ماشيتهم حتى يقفر مما فيه فيقصدون غيره، فهم في حل وترحال دائمين، حياتهم صراع دائم بينهم وبين الطبيعة، وبينهم وبين بعضهم، حتى من كان منهم يعيش في الحضر، لم يكن منهم كاتبون إلا ما ندر، وظلت الرواية سبيلهم الأول والأوحد في انتقال أخبارهم وأشعارهم وأيامهم عبر الأجيال حتى بعد الإسلام بوقت غير قليل.

وجاء الإسلام داعياً إلى العلم، آمراً بالتفكر والتأمل والتبصر،

لا يسوِّي بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، فاستيقظت الهمم، وبدأت أولى سمات الكتابة والتدوين حين أذن النبي عليه الصلاة والسلام لبعض الصحابة ممن يعرفون الكتابة أن يدونوا آيات القرآن الكريم التي يسمعونها في مجلس النبي عليه الصلاة والسلام، فكان بعضهم يدون الآيات على عسيب النخل وعلى اللِّخاف (الحجارة الرقيقة)، وعلى الأديم والأكتاف،(عظام أكتاف الحيوان العريضة) وكذلك على الأقتاب (وهي ما يوضع على ظهور الإبل). وكان من هؤلاء الصحابة الكاتبين عليّ وعثمان وزيد بن ثابت وأُبيٌّ بن كعب. ولكن هذا التدوين لم يكن تدوين جَمْع، إذ لم يكن التنزيل قد اكتمل بعد.

وظل القرآن الكريم بعد موت النبي ﷺ محفوظاً في الصدور، وفيما كتبه بعض الصحابة حتى تم جمعه وتدوينه في خلافة أبي بكر الصديق، وتوحيد المصاحف في عهد عثمان بن عفان. وأصبح القرآن الكريم أول كتاب مدون في تاريخ العرب والمسلمين.

ولكن بقي سلطان الرواية المعتمدة على الحفظ والسماع، سلطاناً قوياً يسيطر على الحياة الفكرية العربية، وإن أصبح مفهومها وطبيعتها غير مفهومها وطبيعتها عند الجاهليين، وظل الحديث النبوي معتمداً على الرواية تحرجاً من تدوينه حتى دعت الضرورة إلى جمعه وتدوينه في عهد الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز.

وبتدوين الحديث الشريف بدأت عجلة التدوين تدور، وفي أحضان علوم الحديث تربى ذوق التأليف العربي، ومن مدرسة الحديث تخرجت مناهج الكتابة في شتى أنواع العلوم والمعارف.

وكانت الطفرة المعروفة في تاريخ الفكر العربي حين أطل هذا الفكر على أفكار وعلوم أخرى، بعد أن نشطت حركة الترجمة على يدي الخليفة المأمون في العصر العباسي، فنقلت علوم اليونان، والفرس، والهنود، والسريان، وقرأها علماء العرب وفهموها وألفوا

فيهـا وتوسعـوا وتفوقـوا، فاتسعت دوائـر معـارفهم، وتـطورت منـاهـج تأليفهم، وما إن بدأت صناعـة الورق في عهـد المأمـون أيضاً، حتى انـطلق العلماء يؤلفـون،والـوراقـون ينسخـون، واتسـع نـطاق التـأليف والكتـابة المتخصصـة، فألفت الكتب في اللغـة والنحو والأدب، وفي الطب والصيدلة والفلك والرياضيات، والجغرافيا والتـاريخ وغيـر ذلك من العلوم والفنون والآداب. وأصبح ذلـك العصر بحق عصـر ازدهار الفكـر العربي، والأرض التي نبتت فيهـا شجرة الثقـافة العـربيـة التي امتدت أغصانها في المشرق والمغرب العربيين آنذاك.

نشط التأليف، وساعـد عليه رعـاية الحكـام والأمراء والـوزراء، في ذلـك الـوقت ممن كـانـوا يعشقـون العلم، ويـرعـون العلمـاء، ويفسحـون مجالسهم للعلم والعلمـاء، لا يبخلون بالـوقت ولا بالمـال في سبيل العلم.

وبدأت المكتبة العربية تستمد مقوماتها، ويبرز مفهومها من ذلك الوقت. غير أنها كانت أشبـه ما تكـون بالمكتبـات الخاصـة، إذ كانت النشأة بطبيعة الحال في بيـوت العلماء والحكـام والوجهـاء. سواء في المشرق العربي أو في بلاد الأندلس.

من ذلـك مثلاً مـا يروى عن الصـاحب بن عبـاد وزيـر عضـد الدولة بن بويه، في معـرض حديث ابن عبـاد عن كتاب الأغـاني أنه قال: «لقد اشتملت خـزائني على مائتي ألف وستـة آلاف كتاب، مـا منها ما هو سميري غيره، ولا راقني منها سواه». وقيل عن الصـاحب بن عبـاد أيضاً: «إنـه كان يستصحب في سفـره ثلاثين جَمَـلاً محملة بالكتب.».

أمـا عن المكتبـات العـامـة فهي التي أسسهـا الخلفـاء والملوك والـولاة في المدن والعـواصم العربيـة، في المشـرق والمغـرب، من ذلك بيت الحكمة في بغداد، ودار العلم في القاهـرة، وخزانـة كتب سيف الـدولة في حلب، ومكتبـة المستنصر بـالله في قصـر الـزهـراء

بقـرطبة. وكـانت هذه المكتبـات تضارع أضخم المكتبـات العـالميـة الآن.

وكـانت المساجـد أيضاً من الأمـاكن التي نشـأت فيهـا المكتبـة العربية بشكلها العام، ويقـول«آدم متز»في مـوازنته بين المكتبـات في الشرق والغرب: «وكان في كل جامع كبير مكتبة، لأنـه كان من عـادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على الجوامع، ويقال إن خزانة الكتب بمـرو كانت تحوي كتب يزدجرد لأنه حملها إليها وتركها.

وكان من عادة الملوك قديماً أن يفاخروا بجمع الكتب سواء في المشـرق أو في المغرب، من ذلـك أن الصاحب بن عبـاد كان يبعث بـرسله في أي مكـان في بـلاد المشـرق ليشتـروا لـه الكتب بمجـرد ظهـورها مهمـا بلغ ثمنها، وكـانت فهـارس مكتبتـه تتـألف من أربعـة وأربعين كـراسـة، كـل منهـا عشـرون ورقـة لا تحمـل سـوى أسمـاء الكتب.

وفي مصر كانت للعـزيز مكتبـة ضخمة، وقـد ذُكر عنـده كتاب العين للخليل بن أحمد، فأمر خُزَّانَ دفاتره فأخرجوا من خـزانته أكثـر من ثـلاثين نسخة بخط الخليـل نفسه، وحمـل إليه رجـل نسخـة من تاريخ الطبري، اشتراها بمائة دينار، فأمر العزيز رجاله فأخـرجوا مـا يزيد عن عشرين نسخة من تاريخ الـطبري منهـا نسخة بخط الـطبري نفسـه. ويقول المقـريزي عن مكتبـة العزيـز إنها كـانت تشتمـل على ألف وستمائة ألف كتاب. وقيل إنها كانت تشتمـل على ما يزيد على مائتي ألف كتاب.

هذه الأرقام التي كانت تحويها مكتبات خاصة بملوك العرب إذا ما قورنت بـأرقام كُتُب بعض المكتبات العـامة في أوروبـا في ذلك الـوقت، لعرفنـا إلى أي حد كـانت الثقافـة العربيـة بالنسبـة للثقـافـة الأوربية قديماً. إذ كان في مكتبة الكاتدرائية بمدينة كنستانز في القرن التـاسع الميـلادي ثلاثمـائة وستـة وخمسون كتـابـاً، وفي مكتبـة ديـر

البندكتين عام ١٠٣٢ م ما يزيد قليلاً على المائة كتاب، وفي خزانة كتب الكاتدرائية في مدينة بامبرج سنة ١١٣٠م ستة وتسعون كتاباً فقط (محمد خلف الله أحمد ـ دراسات في المكتبة العربية ـ ص ١٨).

وكان للمكتبات العربية قديماً سواء منها العامة أو الخاصة، دَوْر كبير في حياة الفكر العربي.

ومما يؤسف له أن هذا التراث الكبير، والعدد الهائل من الكتب والمؤلفات التي جاد بها فكر علمائنا الأوائل في مختلف فروع المعرفة والعلم، قد ضاع معظمها ولم يصل منها إلينا إلا القليل، وتنوعت العوادي على تراثنا الهائل، من هذه العوادي ما تعرضت له بلاد العرب من حروب وغزوات شنها غير العرب علينا من ترك وتتار، ويذكر المؤرخون مثلاً أن جيش البرابرة التتار بقيادة هولاكو، حين اجتاح العالم الإسلامي بدد خزائن الكتب، وألقي بالكثير منها في نهر دجله حتى أن ما ألقى منها في النهر صار معبراً للجنود، ثم أحرقوا ما تبقى منها، لم يتركوا مكتبة خاصة أو عامة إلا عبثوا بها وبددوها.

كما أن المؤرخين يحكون عن دور الأتراك بعد غزوهم بلاد العرب، فيما نقلوه إلى بلادهم، من كتب ومخطوطات نادرة، وقد ضاع بعضها وتلف بعض آخر مما حملوه من الأقاليم الإسلامية.

هذا فضلاً عما تلف واندثر من مخطوطات نادرة وحيدة، بالإضافة إلى ما أخذه الاستعمار الأوروبي، حيث لا تزال في مكتبات العالم مخطوطات نادرة مِن الكتب العربية.

ويذكر جورجي زيدان عاملاً آخر من عوامل ضياع كثير من تراثنا العربي إذ يقول: «ولكن المصائب كانت تتوالى على الكتب العربية من جهة أخرى، بما كان يقوم بين الفرق الإسلامية من المنازعات، أو بمناوأة رجال الفلسفة واتهامهم بالزندقة، وإحراق

كتبهم في أنحاء المملكة الإسلامية، أو ناهيك بما فعله غير المسلمين من الفاتحين منذ تغلبهم على المسلمين أو النقمة عليهم، كما فعل الصليبيون في الشام، والأسبان في الأندلس».

ولولا ما أورده بعض المؤلفين من أسماء هذه الكتب، ما عرفنا عنها شيئاً، مثل كتاب الفهرست لابن النديم، وكشف الظنون لحاجي خليفة، وغيرهما من الكتب التي تأتي فيها أسماء كتب عَرَضاً عند الحديث عن أصحابها، في كتب الأدب.

هذا بالنسبة لتراثنا العربي القديم المتضمَّن في بطون الكتب ما ضاع منها وهو الكثير، وما وصل إلينا وهو القليل، وكان لهذا القليل أو بعضه على الأصح، حظ الانتشار والذيوع، وبخاصة بعد اختراع الطباعة، وعلى الأخص الطباعة باللغة العربية في أوائل القَرن السادس عشر الميلادي في إيطاليا ثم بعد انتشارها في سائر الأقطار.

كما أن تحقيق هذا التراث كان من عوامل تنقيته وتوثيقه ونشره على الناس.

وليس الهدف من هذا الكتاب استقصاء ما وصل إلينا من تراث، ولا استقصاء المطبوع منه، فهو على قلته كثير واسع متشعب، ولكن الغرض هو التعريف بأصول هذا التراث، وكيف جُمع، وكيف تم إحياؤه، ومراحل جمعه والتنويه بفروعه وأقسامه، ثم التعريف بنماذج قليلة منه، وعلى الأخص ما كان متصلاً بالدراسات الأدبية، فعرضنا نماذج لبعض المؤلفات الأدبية والتاريخية، كل نموذج يعرض لوناً معيناً من طريقة هذا الضرب أو ذاك من مناهج التأليف، وقَصَرْنا هذه النماذج على القديم منها حتى نكون على صلة بمصادر تراثنا، وما أظن المكتبة العربية إلا تراث حملته مصادر متنوعة الزمن والمنهج لكل ضرب من أضرب هذا التراث العظيم النافع، عسى أن تكون هذه المحاولة كسابقاتها مما يعيد تذكير القارىء بتراثه فيتجه

إليه أو يعاوده، فما أحسن من صحبة الكتاب، ولا أنفع من داره دار.

دكتور محمود أحمد حسن المراغي
بيروت في ٢٢/ ٢/ ١٩٩١م

التراث والتدوين:

المقصود بالتراث هو ما وصل إلينا مكتوباً عن الفكر العربي قبل الإسلام وبعده، ذلك التراث الذي يحمل إلينا شيئاً أو أشياء من جوانب الحضارة العربية القديمة وما بعدها. والحضارة ـ في أبسط تعريفاتها ـ هي شكل حياة الأمة في كل مناحيها، وصورة للعلاقات المتشعبة المختلفة بين الفرد ونفسه، وبينه وبين مجتمعه الصغير والكبير، وتَعامُل الأفراد والجماعات فيما بينهم، بما يحكمهم من عادات وتقاليد وعقائد، وتعاملهم مع الطبيعة والبيئة بما هو مفروض عليهم من ناموس تلك الطبيعة وقانون البيئة، أو بما يحدثونه من أثر فيهما وفي المجتمع نتيجة معطيات معينة أصيلة أو مجلوبة، فطرية أو مكتسبة، ليسفر كل ذلك عن صورة الأمة بجميع أبعادها في شتى المجالات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعمرانية والعقائدية وما إليها.

والأمة العربية حتى في جاهليتها التي سبقت الإسلام بعهد قريب لم تدون حضارتها ولم تكتب نتاجها الفكري الذي كان الشعر أبرز أوعيته، ذلك لأن الأمة العربية آنذاك كانت أمّة غير كاتبة، لا تهتم بالكتابة لانعدام الباعث عليها من علوم وفلسفات، فضلاً عن أنها أمة كانت تعيش نظاماً قَبَليًّا عصبياً، تتمزق في ظله وحدة الحكم والحاكم والأحكام، ولم تكن على دين واحد يجمع بين شتات المعتقدات ويوحد المقدسات، إذ كل تلك المقومات التي افتقروا إليها، كانت هي الباعث عند كثير من الأمم على تدوين نظمها الدينية والعلمية والفنية والإدارية وما إليها. أضف إلى ذلك أن العرب كانوا يحيون حياة بداوة ورحلة لا تنقطع، وتنقل دائم بحثاً عن الماء والكلأ، وما كان يتبع ذلك من صراع لا يهدأ مع الطبيعة ومع الآخرين حيث البقاء للأقوى، فلم يكن لديهم الاستقرار الذي يوفر الأمن والطمأنينة

للحاضر والمستقبل. فتقر نفوسهم وتنصرف عقولهم وأيديهم إلى آفاق العلم والمعرفة والقراءة والكتابة شأن المجتمعات الزراعية المستقرة المتحضرة التي وجدت ما يعينها على كل ذلك.

ولكن العرب القدماء استبدلوا بالتدوين المكتوب تدويناً محفوظاً في الذاكرة، وكانت الرواية الشفوية هي وسيلة انتقاله فيما بينهم، أو عبر الأجيال المتعاقبة. ولكون الحفظ والرواية أقل دقةً وضبطاً من التدوين والكتابة. فإن كثيراً من التراث تعرض للضياع أو الخلط أو الزيادة أو النقصان عن عمد أو غير عمد، نتيجة الأهواء والميول، أو النسيان وعدم الدقة والمعرفة.

١ - التدوين المبكر:

قلنا إن العرب في الجاهلية لم تكن أمة كاتبة، وكثير من نوابغ شعرائها لم يكونوا على شيء من القراءة أو الكتابة، مثال ذلك ما حدثتنا به بعض الأخبار عن قصة طرفة بن العبد وخاله المَتَلَمِّس حين حمل كل منهما رسالة من عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين، وفي الرسالة أمر بقتلهما لأنهما كانا قد هجواه، ولم يكن كل منهما يعرف القراءة ولا الكتابة، وفي الطريق دفع المتلمسُ برسالته إلى غلام بالحيرة ليقرأها له، فقال له الغلام: أنت المُتَلَمِّسُ؟ قال: نعم، قال: فالنجاءَ، فقد أمر بقتلك، فألقى الملتمسُ الصحيفة في نهر الحيرة، وقال:

ألقيتُها بالثِّنْيِ في جَنْبِ كافرٍ كذلك أُقْنِي كلَّ قِطٍّ مُضَلَّلِ
رضيتُ لها بالماءِ لمَّا رأيتُها يجول بها التيَّارُ في كلِّ جَدْوَلِ

وأشار المتلمس على طرفة بالرجوع فأبى وسار بصحيفته إلى حيث لاقى مصرعه، أما المتلمسُ فهرب إلى الشام، وقال في ذلك:

مَنْ مُبْلِغُ الشُّعراءِ عن أَخَوَيْهِمُ خَبَراً، فَتَصْدُقَهُمْ بذاك الأَنْفُسُ
أَوْدَى الذي عَلِقَ الصحيفةَ منهما ونجا حِذارَ حِبائه المتلمسُ

وإذا كانت بعض الأخبار المتناثرة في ثنايا بعض الكتب القديمة تشير أحياناً وبشكل عرضي، إلى وجود بعض الكتب أو الكُتَّاب في فترة الجاهلية،

فإن ذلك لم يكن غير حالات فردية نادرة، وجُلُّ هؤلاء من غير العرب. كما أننا لسنا على بينة من أسماء تلك الكتب القديمة في فترة الجاهلية، التي تشير إليها المصادر أحياناً بأن هذا العالم أو ذاك كان يقرأ الكتب أو كان يجمع الكتب القديمة، من ذلك ما أورده الأزرقي في (أخبار مكة ـ ص ٩) بأن وَهْبَ بن مُنبِّه (ت١١٠هـ/٧٢٨م) استخدم أحد هذه الكتب وكان يضم أخباراً عن الكعبة. كما أن كثيراً من الأخبار المتناثرة عند الأزرقي تشير إلى استعانة العرب أحياناً بغيرهم في مسائل القراءة أو فك النقوش، من ذلك أن العرب استعانوا بحَبْر يمني يهودي أو راهب مسيحي في فك نقوش الكعبة.

٢ ـ التدوين المبكر والرواية:

يرى بعض الباحثين أن الرواية ليست بالضرورة أن تكون قائمة على المشافهة وحسب، أو أن السماع يكون هو مصدرها الوحيد دون غيره من المصادر، بل كانت الرواية ـ في العصر الجاهلي أحياناً ـ تصدر عن المكتوبات، من ذلك ما يشير إليه فؤاد سزكين (تاريخ التراث العربي ـ ط. الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٧ ـ مجلد ١ ص ٣٩٧) بأن هناك عدة معلومات تقول بأن دواوين الشعراء كانت تُروى قبل الإسلام رواية شفوية مع وجودها مكتوبة مدونة.

وربما كان من أقدم محاولات التدوين عند العرب القدماء هي مسألة تتبع الأنساب وذكر أخبار السابقين وتاريخهم، يقول (جب H. A. Gibb) في مقاله عن التأريخ في دائرة المعارف الإسلامية ـ الترجمة العربية حـ٤ ص٤٨٣): «إنَّ مسألة مصادر تدوين التاريخ عند العرب لم تُحلّ حلاً نهائياً بعدُ، للفارق العظيم الذي لم نهتد حتى الآن إلى إدراك كنهه بين الأساطير الشعبية المنقولة بالتواتر عن العرب في العهد الجاهلي، وبين الأخبار التاريخية التي ظهرت في القرن الثاني للهجرة مسايرة للعلم وما يقتضيه من الدقة والضبط.. إلا أنه لا يبدو من المرجح أن التأريخ عند العرب نشأ من اجتماع مصنفات تاريخية أو شبه تاريخية متضادة الاتجاهات والمقاصد».

ويفرق (جب) في مقاله السابق بين نوعين من التأريخ المأثور بالكتابة

عند كل من عرب الجنوب وعرب الشمال قديماً، ويتوقع وجود ضرب من هذا التأريخ المأثور بالكتابة في بلاد اليمن، إذ كانت بلاد اليمن على درجة لا بأس بها من الحضارة المستقرة زمناً طويلاً، مما ساعد على حفظ آثارها في النقوش المعينية والسبئية والحميرية. وكل ما وصل إلينا من هذا القبيل يحمل طابع التأريخ المنقول بالسماع، ولا نستطيع التحدث عن كتابات ذات مضمون تاريخي، تكون قد كتبت في فترة ما قبل الإسلام، غير أن كتابين وصلا إلينا من القرن الأول الهجري يتناول كل منهما شيئاً عن تاريخ الحميريين، كبضعة أسماء للملوك القدماء، وبعض القصص الغامضة المتسمة بالمبالغة والتهويل عن عصور غابرة، وذكريات غامضة عن بضع أحداث وقعت في الفترة السابقة على ظهور الإسلام، أول هذين الكتابين عن أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها) ومؤلفه هو (عُبَيْد بن شَرِيَّة الجرهمي)[1]، ويقال إنه كان من المعمرين، فقد عاش في الجاهلية والإسلام حتى أدرك نهاية حكم معاوية[2] (كتاب المعمرين لأبي حاتم ص ٤٠)، وله (كتاب الأمثال) الذي أفاد منه الميداني في كتابه الموسوم بالاسم نفسه، كما كان عبيد بن شرية راوية لأشعار بعضها صحيح وبعضها منحول، فقد روى للأعشى ولطرفة(مصادر الشعر الجاهلي ـ ناصر الدين الأسد ـ ص ٢٤٠). وكان ابن إسحق أحد الرواة عن عُبيد (جب ـ المصدر السابق ص ٤٨٤) أما الكتاب الثاني فهو (كتاب الملوك)[3]ومؤلفه (وهب بن منبه ـ ت ١١٠ هـ أو ١٤٤هـ). ويضاف إلى اتجاه المؤلفين السابقين مؤلف آخر تناول أخبار أهل الكتب السماوية، وهو (كعب الأحبار ـ توفي ٣٢ هـ) وكان من يهود

(١) وقد ذكر ابن النديم في الفهرست ص ١٣٢ أن معاوية استحضر عبيد بن شرية من صنعاء اليمن ليسأله عن الأخبار المتقدمة، وملوك العرب والعجم، وسبب تبلبل الألسنة، وأَمْرَ افتراق الناس في البلاد، ثم أَمَرَ معاوية أن يُدَوَّنَ ويُنْسَبَ إلى عبيد بن شرية.

(٢) يذكر ابن النديم (المصدر السابق والصفحة نفسها) أن عبيد بن شرية عاش إلى أيام عبد الملك بن مروان.

(٣) يقول الدكتور شوقي ضيف (تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي ـ ص ٤٥٤) بصدد حديثه عن كتاب عبيد بن شرية «ومن نمطه كتاب التيجان لوهب بن منبه، وهو مطبوع معه ـ أي مع كتاب عبيد ـ وهو يتحدث عن ملوك حمير، والقرون الغابرة. ولوهب كتاب يسمى (المبتدأ في الأمم الخالية) ذكره المقدسي، وقال السخاوي إنه كثير الخرافات، وله في الإسرائيليات كتاب نقل عنه المفسرون كثيراً...).

اليمن وأسلم، وله كتاب طبع في القرن الماضي بمطبعة بولاق ويسمى (في حديث ذي الكفل)[1].

وكان في الفترة ذاتها رجال من عرب الشمال تميزوا بالعلم في الأنساب وفي الشعر، وفي الأخبار، وفي أيام العرب. وكانوا يُسَمَّوْن (علماء العرب)[2]، منهم (مخرمة بن نوفل)، و(أبو الجهم بن حذيفة) و(حويطب بن عبد العُزَّى) و(عقيل بن أبي طالب). وهؤلاء أخذ عنهم الجاحظ كثيراً في كتابيه (الحيوان) و(البيان والتبيين) وكان كثير الإشادة بهم (البيان والتبيين جـ١ ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤).

كتب الأنساب:

اشتهر عند عرب الشمال رجال اهتموا بتتبع الأنساب، إذ كان الحال عند عرب الشمال يختلف عنه عند عرب الجنوب، كان لكل قبيلة في الشمال ـ كما يقول جب ـ[3] تاريخ مأثور يعلو في حالات معينة على مستوى إدراك القبيلة، فانطوى بذلك على ناحية خاصة بفكرة أنساب قبائل العرب (كما عرفها العرب بعد ذلك) غير أنه لا يوجد هناك ما يرشح للإلماع إلى وجود تاريخ مأثور لشمال بلاد العرب بحيث يعم هذه البلاد، ثم إن للقالب الذي تكيف به تاريخ القبيلة أهميته ومكانته، إذ أنه يتناول رواية أغلب حوادث (الأيام) التي في غضونها حاربت القبيلة أعداءها).

ويغلب على الظن أن كثيراً ممن اشتهروا بتتبع الأنساب قد دونوا كتباً فيما كانوا مهتمين به، وقد ذكر الجاحظ قرابة أربعة عشر رجلاً منهم كتبوا كتباً في الأنساب، وكان كثير منهم عاش قبيل الإسلام أو عند ظهوره (الحيوان جـ٣ ص ٢٠٩ ـ ٢٢٠). من هؤلاء عراف العرب وحكيمهم سطيح الذئبي) الذي مات سنة ٥٢ قبل الهجرة (المسعودي مروج الذهب

---

(١) المرجع السابق ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥.

(٢) يقول سزكين: «وكلما زاد اشتغالنا بتراجم الرجال، يستقر في نفوسنا أن صفة «العالِم» كانت تطلق غالباً على المؤلفين. (تاريخ التراث العربي جـ١ ص ٤٥٠) وانظر الهامش رقم (٥) في المرجع والصحيفة ذاتها تأكيداً لما قاله سزكين عن مدلول صفة (عالم) في العصر الأموي.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ـ الترجمة العربية جـ٤ ص ٤٨٤.

حـ٣ ص ٣٦٤). وبعد الهجرة اشتهر بالنسب (دغفل بن حنظلة السدوسي ت ـ ٧٠ هـ) ويذكر ابن النديم (الفهرست ص ١٣١) أنه: (نسابة. أدرك النبي ﷺ ولم يسمع منه، ووفد على معاوية. ويذكر ابن النديم عن دغفل أنه لم يترك كتباً. ولكن أمثال هؤلاء النسابين كانت تُدوَّن أقوالهم ومحاوراتهم حول النسب، فقد ذكر الدكتور شوقي ضيف[1] عن (التحفة البهية ـ طبعة استانبول ص ٣٨) أن لدغفل كتاباً اسمه (التضافر والتناصر) يضم ما كان لدغفل من مجالس عند معاوية، كانت تدور بينهما في أسلوب حواري، إذ كان معاوية يسأل عن قبائل العرب فيجيبه دغفل بعبارات بليغة، وقد احتفظ الجاحظ ببعض منها في كتابه (البيان والتبيين حـ١ ص ١٢١، ٢٤٧، حـ٢ ص ٨٠، ٢٥٣). كما ورد في النقائض ص ١٨٩، أن الفرزدق مدح كتاب الأنساب لدغفل المخضرم، واقتبس منه الهمداني في (الإكليل حـ١ ص ٦) سلاسل الأنساب. ويصف فؤاد سزكين (تاريخ التراث العربي حـ١ ص ٤٠٤) دغفل بن حنظلة بأنه كان على وعي تاريخي متطور[2] هو وكثير من النسابة القدماء أمثاله، إذ تجاوز دغفل الأنساب العربية مثلاً ليربطها بآباء العهد القديم، كما أن (جبير بن مطعم) كما أخبر عنه وهب بن منبه، أعلن عدم أصالة إحدى القصائد المتداولة في عصره، استناداً إلى أسباب تاريخية (التيجان ص ١٨). ومما يدل على اهتمام العرب بتتبع أنسابهم وأخبار القدماء وأيامهم وأشعارهم، أن بعض الصحابة كانوا يقدرون قيمة تتبع أنساب الأوائل، ومعرفة أخبارهم، إذ يروي ابن سعد في طبقاته (حـ٣ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٩) أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كلف ثلاثة من نسابي قريش أن يُعدوا له جدولاً بالأنساب، وهؤلاء الثلاثة هم: جبير بن مطعم، وعقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل. ولم يكن هؤلاء القرشيون الثلاثة على علم فقط بأنساب القبائل وأسمائها، بل كانوا على علم كذلك بأخبار العرب وأيامهم وأشعارهم، وقد تميز الخليفة أبو بكر الصديق بين الصحابة بمعارفه في الأنساب، حتى أنه ـ فيما يقال ـ كان أستاذ جبير بن مطعم في هذا المجال (الإصابة لابن حجر حـ١ ص ٤٦١، حـ٢ص ٣٨٠). وكان ممن عرفوا

(١) تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي ـ ص ٤٥١.

(٢) وقد وصفه الجاحظ بأنه (علّامة) ـ البيان والتبيين جـ١ ص٤٧، ٨٥، ١٢٢.

بذلك أيضاً من متأخري الصحابة عبدالله بن عباس (طبقات ابن سعد حـ٢ ص ٣٧٨)، وإلى جانب الصحابة كان كثير من قدامى التابعين الذين ألفوا كتباً في المغازي والفتوح نسابين عظاماً (سزكين ـ تاريخ التراث العربي حـ١ ص ٤١٥). وغير هؤلاء عُرفت أسماء لنسابين عاشوا فترة صدر الإسلام وأوائل العصر الأموي، منهم عبدالله بن ثعلبة بن صغير العذري (ت ٨٣، أو ٩٣ هـ)، وسعيد بن المسيب (ت ٩٤هـ) وقتادة بن دعامة (ت١١٨هـ) وأبو بكر محمد بن مسلم الزهري (١٢٤ هـ) الذي تعلّم أنساب قبيلته من «مجالس عبدالله بن ثعلبة» (طبقات ابن سعد حـ٢ ص ٣٨٢).

وكانت مدونات الأنساب هذه مصادر يرجع إليها كثيرون من العلماء من مؤلفي الطبقات والتراجم والسير والمغازي وغيرها من الكتب التي يرجع إليها فضل تعريفنا بأصحاب هذه المدونات التي لم يصل إلينا منها إلا القليل، وجله متناثر في بطون تلك الكتب التي عرفتنا به.

فمثلاً نجد في طبقات ابن سعد[1] اقتباسات من «كتاب نسب الأنصار» الذي كان يرجع إليه عندما تدعو الحاجة إلى معلومات خاصة بالأنصار، وابن يونس المؤرخ المصري (ت٣٤٧هـ) يستخدم كتاب نسب قديم كان قد نسخه عبدالله بن لهيعة (ت١٧٤هـ)[2]، واستخدم الدارقطني (ت٣٨٥هـ)، كتاب نسب يسمى (أنساب بني ضبة) لمؤلف أموي.

ولقد لوحظ أن أخبار العرب وأيامهم في العصر الجاهلي لم تدون في كتب الأنساب المتقدمة أو على الأقل لم تأخذ نصيبها بالقدر الذي يتلاءم مع الأنساب، وربما كان ذلك منهجاً لهم في هذا اللون، إذ كان يؤخذ على النسابة أن يدونوا شيئاً من الأخبار والأيام والأشعار كما أخذ على النسابة عقيل بن أبي طالب (البيان والتبيين حـ٢ ص ٣٢٤). ولكن ذلك المنهج وهو ربط الأنساب بالأخبار وما يتصل بها من أشعار كان موضع اهتمام في

(١) جـ٣ ص ٦٢٦، جـ٥ ص ٧٤.

(٢) الإكمال لابن ماكولا ١/٢٢٧.

العصر الأموي ما لبث أن تطور ونما فيما بعد، مما جعل اسحق الموصلي يعتبر «كتاب الأنساب» للزبير بن بكار كتاب أخبار.

وقد أورد لنا ابن النديم في «الفن الأول من المقالة الثالثة»[1] وهو فن «أسماء وأخبار الصدر الأول ممن أخذ عنه المآثر والأنساب والأخبار» عدداً من هؤلاء المؤلفين وأسماء كتبهم: مثل صحار العبدي وكتابه «الأمثال» والصَّغَرى وكان عارفاً بأخبار النبي ﷺ وله من الكتب «كتاب عراة ذات الأباطيل»، ومعمر بن راشد من أهل الكوفة وكان من أصحاب السير والمغازي. ومنهم أبو مخنف، ويذكر له ابن النديم مجموعة من الكتب كثيرة، منها ما يدور حول الفتوح، ومنها ما يتناول مقتل عليّ رضي الله عنه ومقتل كثير غيره، ومنها كتاب في الشورى وغير ذلك مما دُوِّن.

أما «كتب المغازي» فهي نوع من التأليف التاريخي بدأ في العصر الإسلامي، وهو ما سمي فيما بعد باسم «السيرة» من حيث أنها ليست مجرد سرد للغزوات وحسب، بل هي سجل عام لحياة الرسول ﷺ. وكان رائد التأليف في موضوع المغازي بعض قدامى التابعين مثل أبان بن عثمان، وعروة بن الزبير، وشرحبيل بن سعيد، ووهب بن منبه. على أن بعض الصحابة كانت لهم مدونات صارت فيما بعد مصادر هامة لمشاهير كتاب المغازي فيما بعد، مثال ذلك ما ذكره فؤاد سزكين في (تاريخ التراث العربي حـ١ ص ٤١٠هـ) عن كتاب بخط الصحابي (سهل بن أبي حثمة) الأنصاري وكان من متأخري الصحابة (ولد سنة ٣ هـ) وقد اعتمد الواقدي في «كتاب المغازي» على كتاب سهل اعتماداً كبيراً، وأن ما أورده الطبري من مقتبسات من كتاب سهل يعطينا صورة تكفي لإيضاح أن سهلاً كان قد اهتم في كتابه بكل غزوات الرسول ﷺ، كما أن الواقدي استخدم كتاباً من عصر الصحابة كان حوزة حفيد مؤلفه واسمه أبو عمرو بن حريث العذري، وفي هذا الكتاب ما يعكس عدة حوادث مهمة تتعلق بحياة الرسول ﷺ، وقد عُرف في القرن الثالث الهجري كتاب للصحابي المعروف

(١) الفهرست ص ١٣١ وما بعدها.

سعد بن عبادة (ت١٥هـ) يضم سنن الرسول ﷺ، ونستطيع أن نعرف عن قدامى الكاتبين في المغازي والفتوح من خلال الأسانيد التي وردت في كتب المغازي والسير مثل مغازي ابن اسحق وفتوح أبي مخنف والواقدي وسيف بن عمر والبلاذري وابن شراحيل، ثم الزهري ويزيد بن حبيب ومن تلاهم كثيرون.

وإذا ما عدنا إلى كتب الأنساب بعد تطورها في العصر العباسي، نجد أن كثيراً من هذه الكتب لم تقتصر على الأنساب وحسب بل هي بمثابة تأريخ للعرب منذ الجاهلية، وقد اعتمد مؤلفو هذا العصر على آثار مدونات العصر الأموي فأكملوها وهذبوها وطوروها، مثال ذلك ما فعله أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت٢١٠هـ) حين هذب كتاب زياد بن أبيه (ت٥٣هـ) في المثالب. كما تطورت كتب الأمثال ككتب عبيد بن شريه ومعاصريه، غير أن معظم هذه الكتب المتطورة في أوائل العصر العباسي قد ضاعت، ولم يصل إلينا منها إلا القليل مثل كتب ابن الكلبي الخاصة بالعصر الجاهلي وكتاب أبي عبيدة في نقائض جرير والفرزدق.

أما الكثير من كتب تلك الفترة المتقدمة من العصر العباسي فقد ضاع، ولم تعرف عنه إلا الأسماء أو بعض مقتبسات وردت في كتب المتأخرين، فممن ضاعت كتبهم مثلاً ولم يبق لنا منها غير أسمائها؛ عالم من أقدم علماء الأنساب في العصر العباسي هو (خالد بن طليق بن محمد الخزاعي الذي ولاّه الخليفة المهدي قضاء البصرة سنة ١٦٦ هـ، ألف كتباً لم تصل إلينا، وذكر لنا ابن النديم بعضاً منها في الفهرست ص ١٣٩، ١ - كتاب المآثر. ٢ - كتاب المتزوجات. ٣ - كتاب المنافرات. ٤ - كتاب البرهان. ويصف ابنُ النديم خالد بن طليق بأنه «بلغ من تيهه أنه كان إذا أقيمت الصلاة قام في موضعه فربما قام وحده» أي إنه لا يستوي بالصف، بل يرى أن يستوي الصف به.

ومنهم (أبو اليقظان) سحيم أو (عامر) بن حفص، وكان المدائني يذكره بأسماء مختلفة منها أبو اليقظان، وسحيم بن الأسود، وعبيد الله بن حفص، وأبو إسحق، ولهذه الأسماء سبب يذكره ابن النديم في فهرسه ص

١٣٨ ، كما يصفه بأنه كان عالماً بالأخبار والأنساب والمآثر والمثالب، وأنه كان ثقة فيما يرويه وأنه توفي سنة ١٩٠ هـ، وله خمسة كتب هي:

١ ـ كتاب حلق تميم بعضها بعضاً،

٢ ـ كتاب أخبار تميم.

٣ ـ كتاب نسب خندف وأخبارها.

٤ ـ كتاب النسب الكبير. وفيه نسب إياد وكنانة وأسد بن خزيمة، والهون بن خزيمة وهذيل بن مدركة وقريش وقيس عيلان وربيعة وتيم بن مرة.

٥ ـ كتاب النوادر. ورآه ابن النديم بخط سعدان.

وممن عاصر أبا اليقظان ومات معه في العام نفسه (١٩٠هـ) (لقيط المحاربي) وهو أبو هلال لقيط بن بكر المحاربي الكوفي من بني محارب بن حفصة، ويذكر له ابن النديم (الفهرست ص ١٣٨) ثلاثة كتب هي:

١ ـ كتاب السمر.

٢ ـ كتاب الحراب واللصوص

٣ ـ كتاب أخبار الجن.

ويصفه ابن النديم بأنه كان من الرواة المصنفين للكتب، وكان سيء الخلق شاعراً.

ومنهم (أبو البَخْتَري) وهو وهب بن وهب بن كثير بن عبدالله، ينتهي نسبه عند قصي (ت٢٠٠ هـ). وكان فقيهاً أخبارياً ناسباً، ولاّه هارون الرشيد القضاء بعسكر المهدي ببغداد، ثم ولاّه مدينة الرسول ﷺ بعد بكار بن عبدالله، وجعل إليه حَرْبَها مع القضاء، ويذكر له ابن النديم (الفهرست ص ١٤٦، ١٤٧) ستة كتب هي:

١ ـ كتاب الرايات.

٢ ـ كتاب طسم وجديس.

٣ ـ كتاب صفة النبي صلى الله عليه وسلم

٤ ـ كتاب فضائل الأنصار.

٥ ـ كتاب الفضائل الكبير، ويحتوي على جميع الفضائل.

٦ ـ كتاب نسب ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، ويحتوي على قطعة

من الأحاديث والقصص.

ومن هؤلاء أيضاً (عُمارة بن القداح) وهو أبو محمد عبدالله بن عمارة القداح الأنصاري، كان عالماً بالنسب، ومن تلاميذه مصعب بن الزبير، وابن سعد، وعمر بن شبة. وكان ابن القداح من المدينة، واستقر به المقام في بغداد، توفي قرابة انتهاء القرن الثاني من الهجرة. وكان يشير في كتابته أحياناً إلى مصادره التي استقى منها أخباره، من ذلك كتاب بخط مؤلفه داود بن الحسين (ت١٣٥هـ). (طبقات ابن سعد حـ٣ ص ٤٤٧ وما بعدها).

ولابن القداح كتاب (نسب الأنصار) الذي اعتمد عليه ابن سعد كثيراً في تأريخه للأنصار في طبقاته، كذلك أفاد منه ابن حجر في (الإصابة)، والطبري في تاريخه.

أما (هشام الكلبي) وهو هشام بن محمد بن السائب بن بشر الكلبي، فإن ابن النديم في فهرسه (ص١٤٠) يصفه بأنه عالم بالنسب وأخبار العرب وأيامها ومثالبها ووقائعها، وتوفي في الكوفة سنة ٢٠٦ هـ، وأخذ العلم عن أبيه وعن جماعة من الرواة.

وقد ذكر لنا ابن النديم عشرات من مصنفات هشام الكلبي (الفهرست ص ١٤٠ - ١٤٣) منها كتب في الأحلاف، وكتب في أخبار الأوائل، وكتب فيما قارب الإسلام من أمر الجاهلية، وكتب في أخبار الإسلام، وكتب في أخبار البلدان، وكتب أخبار الشعر وأيام العرب، وكتب في الأخبار والأسمار، وكتب في نسب اليمن، ومن هذه الكتب «كتاب النسب الكبير» الذي نقل عنه البلاذري معظم مادته في كتابه (الأنساب). ومن كتبه أيضاً (كتاب أولاد الخلفاء) و(كتاب أمهات النبي ﷺ) و(كتاب أمهات الخلفاء) و(كتاب العواقل) و(كتاب تسمية ولد عبد المطلب) و(كتاب كنى آباء الرسول) و(كتاب جمهرة الجمهرة) رواية ابن سعد.

ويذكر سزكين (تاريخ التراث العربي حـ١ ص ٣٣ط) أن هشام بن محمد الكلبي اعتمد في علم الأنساب على كتاب ألفه أو رواه أبوه، وأنه كان يفيد في تاريخ الفرس من الكتب المترجمة عن الفارسية، وذلك على النحو

الذي عرف في عصره، كما أن الطبري احتفظ بمقتبسات كثيرة من هـذه الكتب، أخذها فيما يبدو من مؤلفات هشام. والمعروف كذلك عن هشام أنه أفاد من نقوش كنائس الحيرة للتعرف على تاريخ اللخميين، وقد تحرج علماء المسلمين من المعلومات التي جاء بها (على الرغم مما ذكره ياقوت في معجم البلدان حـ٢ ص ١٥٨). وربما لم يكونوا مغالين في ذلك.

ومن أوائل كُتّاب العصر العباسي الذين وصلت إلينـا بعض كتبهـم (محمد بن إسحاق) وهو أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن يسار، ولـد في المدينة سنة ٨٥ هـ وتوفي في بغداد ١٥٠ هـ. وقد حضر دروس يزيد بن أبي حبيب في الحديث، وذلك إبان زيارته للإسكندرية سنـة ١٢٨ هـ، وبعد عودته إلى بلده التقى بالمحدث سفيان بن عيينة سنة ١٣٢هـ وتتلمذ على الزهري.

ومن كتب ابن إسحاق (كتاب المغـازي) وينقسم إلى ثلاثـة أقسام هي: المبتدأ، والمبعث، والمغازي. وقد هذب ابن هشام هذاالكتاب فحذف منه نصوصاً كانت في (المبتدأ) تتناول سير الأنبياء الآخـرين، كما حـذف النصوص المتعلقة بأحداث لا علاقة لها بسيرة النبي محمـد عليه الصـلاة والسلام، أو التي لم يرد لها ذكر في القرآن الكريم، واختصر منه مواضع كانت في أغلبها تتعلق بالشعر، وأضاف إليها بعض الملاحظات.

وله غير هذا الكتاب «كتاب الفتوح» و«كتاب حَرَّاب» و«كتاب أخبار كليب وجساس».

وقد بقيت من هذه الكتب شذرات في كتب المتأخـرين كالـواقدي (ت٢٠٧هـ) ويصفه ابن النديم بأنه(مطعون عليه غير مرضي الطريقة) وأنه (كان يحمل عن اليهـود والنصارى ويسميهم في كتبـه أهل العلم الأول، وأهل الحديث يضعفونه ويتهمونه) (انظر الفهرست ص ١٣٦).

ومن كتاب المغازي والسير في تلك الفترة من العصر العباسي (مَعْمَر بن راشد) المولود سنة ٩٧ هـ المتوفي سنة ١٥٤هـ. في صنعاء، وكان معمر مؤرخاً ومحدثاً ومفسراً وتتلمذ كذلك على الزهري، وله كتاب في المغازي

رتب مادته ترتيباً موضوعياً ولم يكن كتابه في المغازي مقصوراً عليها وحدها، بل تطرق أيضاً إلى سير الأنبياء الآخرين. وقد نقل الطبري مادة هذا الكتاب. وله كذلك كتاب في الحديث اسمه (الجامع) رواه تلميذه عبد الرزاق وأضاف إليه أحاديث أخر (سزكين حـ ١ ص ٤٦٥).

وممن كتبوا في السيرة أيضاً (أبو محمد بن عبد العزيز بن عبدالله الحنيفي) ولد سنة ٩٠ هـ وتوفي سنة ١٦٢ هـ. وتتلمذ على الزهري، وروى عنه الواقدي وسعيد بن مريم وغيرهما، وله كتاب (السيرة) الذي يعتبر مصدراً هاماً من مصادر الواقدي.

ومن الكتب التي أخذ عنها الواقدي كذلك كتاب (المغازي) ومؤلفه (أبو معشر) واسمه (نجيح المدني) وكان مولى وعُتِق، وكان عارفاً بالأحداث والسير، أحد المحدثين وتوفي في أيام الهادي (الفهرست ص ١٣٦).

و(الفزاري) إبراهيم بن محمد بن الحارث، (ت ١٨٨هـ) وكان مؤرخاً ومحدثاً ذا مكانة، وله «كتاب السير في الأخبار» رواه أبو عمرو معاوية، بن عمر الرومي المتوفي سنة ٢١٥ هـ.

وممن ألف في المغازي كذلك (يحيى بن سعيد الأموي) توفي ببغداد سنة ١٩٤ هـ. وله (كتاب المغازي) الذي وصلت إلينا قطع منه في الباب الخاص بالمغازي في صحيح البخاري حـ٥ ص ٧١، ١٧٩. وقطع منه في تاريخ الطبري، ومثلها في الإصابة، جـ١٠ ص ١٥٩، ٤٨٨، ٥٥٥، ٧٧٠، ٨١٨، وفي صفحات عديدة أخرى في بقية الأجزاء.

ويبرز في تاريخ التدوين المبكر في مجال المغازي والسير عالمان مشهوران أولهما (الواقدي) أبو عبدالله محمد بن عمر الواقدي، ولد في المدينة سنة ١٣٠ هـ وتوفي في بغداد سنة ٢٠٧ هـ[1]، وأكثر من اقتبس منه في المغازي (موسى بن عقبة) و(معمر بن راشد) و(أبو معشر) ولهم جميعاً مؤلفات في المغازي.

---

(١) ويقول ابن النديم (الفهرست ص ١٤٤): «ومات عشية يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة سبع ومائتين، وله ثمان وسبعون سنة ودفن في مقابر الخيزران.

ومن أهم كتب الواقدي:

١ ـ كتاب المغازي، وله مختصر أعده أحمد بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ). كما أن له ترجمة فارسية مجهولة المترجم، وترجمة تركية طبعت في استانبول سنة ١٢٦١ هـ.

٢ ـ كتاب (مولد النبي) ﷺ

٣ ـ كتاب الردة، واستفاد منه عبد الرحمن بن حمد بن عبدالله بن حبيش (ت ٥٨٤هـ) في كتابه (كتاب المغازي).

٤ ـ كتب الفتوح. وتناول فيها «فتوح الشام» و«فتوح مصر» و«فتوح البَهْنَسَا» في صعيد مصر، و«فتوح الجزيرة والخابور وديار بكر في العراق» و«فتوح إفريقيا» و«فتوح العراق» و«فتوح آمد».

٥ ـ طعم النبي، واقتبس منه ابن سعد في طبقاته (سزكين حـ١ ص ٤٧٤).

٦ ـ مقتل الحسين، وأخذ منه ابن حجر في الإصابة حـ٢ ص ٧٧٩.

٧ ـ كتاب صفين. ومنه قطع عند ابن أبي الحديد، في شرح البلاغة حـ٢ ص ٢٦٧، حـ٣ ص ١٩ ـ ٢٣، وص ٢٨ ـ ٢٩، ٣٥، ٣٦ ـ ٣٧، ٥٥ ـ ٥٨.

٨ ـ كتاب الشورى. ومنه عند أبي الحديد أيضاً حـ٩ ص ١٥ ـ ١٦.

٩ ـ التفسير. وقد أفاد منه الثعلبي في (الكشف والبيان).

١٠ ـ كتاب الصوائف، ومنه قطع عند ابن عساكر في (كتاب تاريخ مدينة دمشق حـ١ ص ٣٨٥).

١١ ـ كتاب أخبار مكة، وأفاد منه الأزرقي في كتابه (أخبار مكة).

١٢ ـ كتاب الطبقات، وبهذا الكتاب يعتبر الواقدي رائد مؤلفي كتب الطبقات، وعليه يعتمد تلميذه ابن سعد في تأليف كتابه الذي يحمل اسم كتاب أستاذه نفسه (الطبقات).

وقد ذكر له ابن النديم (الفهرست ط المكتبة النجارية سنة ١٣٤٨ هـ، ص ١٤٤) كتباً أخرى مثل «كتاب الجمل» و«كتاب السيرة» و«كتاب

أزواج النبي» و«كتاب حرب الأوس والخزرج» و«كتاب المناكح» و«كتاب السقيفة وبيعة أبي بكر» وفي علوم القرآن ذكر له «كتاب الرغيب في علم القرآن» و«كتاب ذكر القرآن». وله أيضاً «كتاب التاريخ الكبير» و«كتاب غلط الحديث» و«كتاب السنة والجماعة وذم الهوى وترك الخوارج في الفتن» و«كتاب الاختلاف» ويحتوي ـ كما يقول ابن النديم ـ على اختلاف أهل المدينة والكوفة في الشفعة والصدقة والعمري والرقبي والوديعة والعادية والبضاعة والمضاربة والغصب والسرقة والحدود والشهادات، وعلى نسق كتب الفقه ما يبقى.

ويقول ابن النديم عن الواقدي أنه كان عالماً بالمغازي والسير والفتوح، واختلاف الناس في الحديث والفقه والأحكام والأخبار.

كما أننا نستطيع أن نخرج من خبر أورده ابن النديم عن الواقدي أنه من أوائل أصحاب المكتبات العلمية، ما دمنا بصدد الحديث عن المكتبة العربية، إذ يورد ابن النديم (الفهرست ص ١٤٤) رواية لابن اسحق «قال محمد بن إسحق: قرأت بخط عتيق قال: خَلَّفَ الواقدي بعد وفاته ستمائة قمطر كُتباً، كل قمطر منها حِمْلُ رجلين، وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار، وقبل ذلك بيع له كتب بألفي دينار».

وقد عاصر الواقديَّ عالِمٌ آخر مشهور بالسيرة هو (ابن هشام) وهو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، المؤرخ النسابة النحوي، غير أن ابن هشام بصري المولد، مصري النشأة والمهات، إذ مات في الفسطاط سنة ٢٠٨ أو ٢١٣ هـ.

وقد عرف ابن هشام بكتابه «سيرة محمد رسول الله»، وقد ترجمه weil إلى الألمانية وطبع في شتوت جارت سنة ١٨٦٤م. ونشره محمد محي الدين عبد الحميد في القاهرة سنة ١٩٣٧ في أربعة مجلدات، ثم نشره مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي في القاهرة سنة ١٩٥٥. كما حظي كتاب «السيرة» بمجموعات عديدة من الشروح والمختصرات.

ولابن هشام كذلك «كتاب التيجان لمعرفة ملوك الزمان في أخبار قحطان».

تدوين القرآن والحديث وعلومهما:

أولاً: تدوين القرآن الكريم:

يعتبر تدوين القرآن الكريم أول تدوين إسلامي، وقد بدأ تدوين القرآن في حياة النبي ﷺ، وكان التدوين آنذاك يتم من جانب الصحابة حفظاً في الصدور، وكتابة على عسيب النخل واللخاف (الحجارة الرقيقة) وعلى الأديم والأكتاف (عظام أكتاف الحيوان العريضة)، وعلى الأقتاب (وهي ما يوضع على ظهور الإبل) ومما يسَّر حفظه وكتابته أنه أُنزل على النبي ﷺ مُنَجَّماً على مدى ثلاث وعشرين سنة، حتى تتهيأ النفوس البشرية لتلقي الوحي الإلهي الذي نَزَّلَه الله تعالى على نبيه (بلسان عربي مبين).

وكان النبي ﷺ يأمر بكتابة ما يُنَزَّل عليه من القرآن وقت نزوله، وكان هو ﷺ أول الحفاظ وأجمعهم، غير أنه لم يكتب منه شيئاً لأنه النبي الأمي، ولكنه جمع حوله نخبة من الصحابة الكاتبين الذين عُرِفُوا بكُتَّاب الوحي مثل علي وعثمان وزيد بن ثابت، وأُبَيّ بن كعب، وانطلق كثير من الصحابة الذين يعرفون الكتابة يكتبون على حفظهم للقرآن في صدورهم بعد أن يتلقوه من الرسول الأمي الذي يتلوه عليهم عقب نزوله من السماء.

ولم يكن تدوين الصحابة للقرآن الكريم في حياة النبي ﷺ تدوين جمع، إذ لم يكن التنزيل قد اكتمل بعد، وأيضاً بسبب ما كان يطرأ على بعض الآيات من نَسْخ.

غير أن «نصوص القرآن صريحة في أن سوره وآياته جميعاً رُتِّبَت بوحي من الله إلى رسوله، يقول جل شأنه: ﴿وقال الذين كفروا لولا نُزِّل عليه القرآن جملةً واحدةً. كذلك لنُثَبِّتَ به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾ (إن علينا جمعه وقرآنه)، فالرسول لم يُرْفَع إلى الرفيق الأعلى إلا بعد ترتيب القرآن وآياته وسوره ترتيباً كاملاً، وتلقاه عنه الصحابة بهذا الترتيب»[1].

---

(١) د. شوقي ضيف ـ تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي. ص ٢٥ ـ ٢٦.

أما تدوين الجمع فقد بدأه أبو بكر الصديق بعد وفاة الرسول ﷺ، وذلك حين استمرَّ القتل في يوم اليمامة بالصحابة الحُفَّاظ، وكانوا يسمون آنذاك بالقُرَّاء، خشي عمر بن الخطاب أن يستمرّ القتل بالقُرَّاء في المواطن كلها فيذهب كثير من القرآن، فأشار على أبي بكر بأن يأمر بجمع القرآن، فتحرج أبو بكر وقال له: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ، فقال: هو والله خير، وظل عمر يراجع أبا بكر في ذلك حتى شرح الله صدره لهذه الفكرة فاستدعى زيد بن ثابت، وكان من كتبة الوحي الأبرار، وحُفَّاظه الأخيار، وما إن شرح الله صدر زيد بن ثابت، إلى ذلك حتى انطلق يجمعه من صدور الرجال، ومن العُسُب والرقاع، واللخاف والأكتاف والأضلاع.

ولم تكن المهمة يسيرة على زيد بن ثابت رغم علمه وجودة حفظة، ولكن تهيبه من حمل تلك الأمانة العظيمة جعلته يقول: «فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ من ذلك».

واستعان زيد بالحَفَظَة المشهود لهم بالإتقان من مثل عثمان وعليّ وأُبي بن كعب وأبي هريرة، وعبدالله بن مسعود وطلحة وحذيفة وأبي الدرداء وأبي موسى الأشعري، وزيادة في الدقة، ومبالغة في الحيطة، أمر أبو بكر ألا يُقبل من حافظ شيء حتى يشهد شاهدان عدلان على صحته وأنه كتب بين يدي رسول الله ﷺ.

وبعد أن أتم زيد بن ثابت جمع القرآن، أودعت الصحف المكتوبة في بيت أبي بكر حتى مات، ثم حفظت عند عمر بن الخطاب، وبعد موت عمر تولت بنته حفصة حفظ الصحف.

وبذلك يعتبر جمع أبي بكر للقرآن، أول جمع في صورة كتاب، وفي ذلك يقول الإمام علي: «رحمة الله على أبي بكر، كان أول من جَمَعَ بين اللوحين». ويقول: «أعظم الناس في المصاحف أبو بكر، فإنه أول من جمع بين اللوحين»[1].

---

(١) السجستاني ـ كُتَّاب المصاحف ـ ص ٥.

وقول عليّ: «أعظم الناس في المصاحف أبو بكر» يوحي بأن هناك مصاحف كانت قد كُتبت، فقد رُوي أن بعض الصحابة كانوا قد جمعوا القرآن في مصاحف، مثل كعب بن أبي، وسالم مولى حذيفة، وعبدالله بن مسعود، وأبي موسى الأشعري، وعبدالله بن الزبير، وأبي زيد، ومعاذ بن جبل وغيرهم. غير أن مصاحف هؤلاء لم تنل من التواتر والاستقصاء ما ناله مصحف أبي بكر.

وما أن اتسعت رقعة الدولة الإسلامية نتيجة الفتوح العظيمة، حتى تفرق كثير من الصحابة القراء بين الأمصار، وكان مسلمو تلك البلاد والأمصار يتعلمون القرآن على يدي الصحابي الكبير المقيم بينهم، فكان أهل الكوفة يقرأون على مصحف ابن مسعود، وأهل البصرة على مصحف أبي موسى الأشعري، وأهل الشام على مصحف أبيّ بن كعب، وأهل دمشق على مصحف المقداد بن الأسود، فأدى ذلك إلى الاختلاف في بعض الأداء، ولم يكن معهم جميعاً مصحف أبي بكر ليرجعوا إليه، إذ كان مصحف أبي بكر محفوظاً عند حفصة بنت عمر، فلما رأى حذيفة ما ظهر من اختلاف في أداء القرآن بين مسلمي الأمصار ـ وكان إذ ذاك يغزو في فتح أرمينية وأذربيجان ـ هرع إلى عثمان بن عفان قائلاً: «إن الناس قد اختلفوا في القرآن حتى إني والله لأخشى أن يصيبهم مثل ما أصاب اليهود والنصارى من الاختلاف» فما إن سمع عثمان ذلك من حذيفة حتى عزم على أن يجمع الناس على إمام واحد، يرجعون إليه، فبعث إلى حفصة فأرسلت إليه مصحف أبي بكر، فأمر زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وقال عثمان للرهط القرشيين، وهم الثلاثة الأخيرون: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في كتابة شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، فنفذوا ما أمرهم به، ثم أعاد مصحف أبي بكر إلى حفصة، وأمر أن تكتب المصاحف من مصحفه هو، وبعث بها إلى الأمصار، وأمر بإحراق المصاحف الأخرى، فصدع الناس بما أمر، وانصرف القراء يُقْرئون الناس القرآن على مصحف عثمان، وقوبل عمل عثمان بالإعجاب والمدح حتى أن علياً قال: «لو رأيت ما ولي

عثمان، لعملت بالمصاحف ما عمل»[1]

وكان لاختلاف الناس في الأمصار قبل مصحف عثمان في قراءة بعض القرآن، صدى عند بعض الكتاب بعد ذلك فألفوا كتباً في اختلاف مصاحف ذكرها لنا ابن النديم، منها «كتاب اختلاف مصاحف أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة عن الكسائي»، و«كتاب اختلاف المصاحف لخلف» و«كتاب اختلاف أهل الكوفة والبصرة والشام في المصاحف للفراء» و«كتاب اختلاف المصاحف لأبي داود السجستاني» و«كتاب اختلاف المصاحف وجميع القراءات للمدائني» و«كتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق لابن عامر اليحصبي» و«كتاب محمد بن عبد الرحمن الأصفهاني في اختلاف المصاحف»[2].

ولم يصل إلينا من هذه الكتب التي ذكرها ابن النديم غير «كتاب اختلاف المصاحف» لأبي داود السجستاني المتوفي سنة ٣١٦ هـ.

ويتراوح تأليف هذه الكتب ما بين القرنين الثاني والرابع الهجريين، وكان أقدمها «كتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق» لابن عامر اليحصبي. المتوفي سنة ١١٨ هـ.

ومع المنطلق الذي صدرت عنه كتب اختلاف المصاحف، كان هناك منطلق آخر أدى إلى ظهور نوع من الكتب له أهميته في مجال الدراسات القرآنية، ذلك حين ظهر اتجاه معين في تلك الفترة المبكرة - بعد جمع المصحف العثماني وإرساله إلى الأمصار - وهوالنزوع إلى قراءة النص القرآني وفق العادات الصوتية لكل قبيلة، وكان لهذا الاتجاه سابقة على عهد الرسول ﷺ حينما أقر كل قارىء على ما قرأ[3]. وكان نتيجة هذا النزوع إلى قراءة النص القرآني وفقاً للنظام الصوتي لكل قبيلة، أن ظهرت مجموعة من القراءات المختلفة وكان بعض التابعين يستطيع قراءة الآية القرآنية الواحدة

---

(١) الزركشي - البرهان - جـ١ ص ٢٤٠.
(٢) الفهرست - ط المكتبة التجارية ص ٥٤.
(٣) تفسير الطبري - تحقيق أحمد شاكر - جـ١ ص ٥٦.

خمس قراءات مختلفة[1].

وما أن يمضي النصف الأول من القرن الأول الهجري، حتى تتكون عدة مدارس للقراءات القرآنيةُ حول بعض التابعين في المدينة ومكة والكوفة والبصرة، غير أن المصادر لم تكشف لنا عن طريق مباشر أقدم ما دُوِّن من هذه القراءات، اللهم إلا إشارات يسيرة تدور حول علاقات التلاميذ بالشيوخ. وتعتبر تفاسير القرن الأول الهجري هي أقدم المصادر لمعرفة الاختلافات بين مصاحف عثمان وعبدالله بن مسعود وأُبيّ بن كعب. وأقدم ما نعرف من كتب القراءات هو «كتاب في القراءة» ليحيى بن يعمر(ت ـ ٨٩هـ) وهو أحد تلاميذ أبي الأسود الدؤلي، ويضم هذاالكتاب الاختلافات المشهورة في المصاحف، وظل هذا الكتاب فيما يقال، المرجع الأساسي في هذا المجال حتى القرن الرابع الهجري[2]. وقد كان للنحاة القدامى محاولات في إيجاد قراءة دقيقة ملزمة للقرآن الكريم، كان أجودها محاولة عمرو بن العلاء التي ظلت متداولة حتى القرن الخامس الهجري. وفي القرن السادس الهجري ألَّفَ عليّ بن عساكر بن المرجب البطائحي (ت ٥٧٢هـ) كتابه الذي يضم البقايا الهامة من كتب قدماء القُرَّاء مع مقارنتها بقراءة أبي عمرو بن العلاء، وعنوان كتاب ابن عساكر هو «الخلاف بين قراءة عبدالله بن عامر، وبين قراءة أبي عمرو بن العلاء.. عبدالله بن كثير.. عاصم.. حمزة.. إلخ»[3].

تفسير القرآن:

ولكن الأمر لم يقف عند جمع القرآن الكريم، والكتابة عن اختلاف المصاحف، واختلاف القراءات، بل امتد الأمر بالسلمين إلى محاولة فهم ما قد يستغلق عليهم فهمه من معاني آياته، فكان لا بد من محاولات للتفسير، ولجلال المهمة وخطورتها كان لا بد لمن يتصدى لها أن يكون مؤهلاً لها،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) تاريخ التراث العربي ـ سزكين ـ حـ١ ص ٩.

(٣) المرجع السابق.

فكان على الصفوة من الصحابة الذين عايشوا الرسول ﷺ، ولازموه، أن يتحملوا هذه المهمة الجليلة، بما سمعوه من النبي عليه الصلاة والسلام من تفسير وبيان لآيات القرآن الكريم، إذ كان عليه الصلاة والسلام أول مفسر للقرآن تفسير مشافهة، احتفظ به الصحابة في صدورهم.

وقد تحرج الصحابة باديء الأمر من التصدي لهذه التبعة، كما تحرج أبو بكر قبل ذلك من جمع القرآن، وكان تحرجهم على أساس أن هذا العمل ليس في حقيقة الأمر إلا شهادة على الله بأنه قد عَنَى بهذه الآية كذا، وبهذه الآية كذا، وقد كانوا لشعورهم الديني العميق يتحرجون من هذه الشهادة، لذلك كان كثير من المفسرين في العصور الإسلامية الأولى يكتفون بالمرويات عن النبي عليه السلام، وعن المعاصرين له من الصحابة، وسمي هذا النوع من التفسير بالتفسير الأثري، أو تفسير الرواية، وكان رجال الحديث والرواية هم أصحاب الشأن الأول في هذا المقام، ذلك لأنهم بروايتهم لكل ما صدر عن النبي عليه السلام من قول، قد رووا فيما رووا أقواله في القرآن أيضاً. وهذا هو السبب الذي من أجله نجد في كتاب من كتب الحديث، وهو صحيح البخاري، بابين في الدراسات القرآنية هما: كتاب تفسير القرآن وكتاب فضائل القرآن.

ووجود مثل هذه الأبواب أو الكتب في كتب الحديث هو الذي دفع المستشرقين وبعض مؤرخي التفسير إلى القول بأن التفسير نشأ أولاً على أنه فرع من الحديث[1].

وكان المفسرون من الصحابة قلة، وأشهر من تقدم لهذه المهمة علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن مسعود، وأُبَيّ بن كعب.

ولم يكن الصحابة رغم علمهم وتلقيهم عن النبي ـ يستشعر الواحد منهم حرجاً إذا استغلق عليه فهم آية، بل كان يسأل غيره كما كان يفعل عمر بن الخطاب أحياناً عندما يستغلق عليه استخلاص حكم من آية، وأصبح ذلك التحري تقليداً في نطاق علم التفسير لا يزال ساري المفعول إلى

(١) محمد خلف الله أحمد ـ دراسات في المكتبة العربية ص ٣١ ـ ٣٢.

يومنا هذا. إذ في القرآن الكريم آيات كثيرة تحتاج إلى التفسير، فهناك الآيات المحكمات، والآيات المتشابهات، والآيات التي يحتاج تفسيرها إلى أسباب نزولها، وفيه آيات العبادة والتشريع والمعاملات، وفي الآيات من الألفاظ ما يحتاج فيه إلى معرفة اللغة وإتقان فهمها والإلمام بعلومها. لكل ذلك كان عدد المفسرين محدوداً حتى من الصحابة[1].

وكان المروي أيضاً عن الرسول عليه الصلاة والسلام وعن الصحابة في التفسير قليلاً، إذ لم يكن يتعدى البيان الموجز لبضع آيات، حتى لتقول عائشة: لم يكن النبي يفسر شيئاً من القرآن إلا آيات تُعَدّ، عَلَّمَهُنَّ إياه جبريل.

وبعد أن اكتفى جيل التابعين وتابعي التابعين من المفسرين بالمرويات عن النبي عليه السلام وعن الصحابة، ظلت هذه المرويات تنمو، وتضخم التفسير الأثري، بمرور الزمن، فأخذ يتأثر بما في البيئة الإسلامية، من أقاصيص دينية، وروايات عن أهل الكتاب وخاصة فيما يتعلق بالتاريخ الديني، مما جعل كثيراً من أئمة المسلمين لا يثقون في هذه المرويات والنقول، حتى أن الإمام أحمد بن حنبل يقول: ثلاثة ليس لها أصل - التفسير، والملاحم، والمغازي.

ثم كانت الخطوة التالية أن أخذ المفسرون يجمعون هذه المرويات بحسب الرواة، فأهل كل إقليم يجمعون تفسير عالم إقليمهم أو بلدهم، كما فعل أهل مكة حين جمعوا ما رُوي عن ابن عباس وعن مجاهد وعكرمة، وسعيد بن جبير. ثم بعد ذلك كان الاتجاه إلى جمع المرويات دون اعتبار الأساس الإقليمي، بل جمع كل ما يُسْمَع.

ثم كانت الخطوة الأخيرة ترتيب ما تم جمعه من هذه المرويات بترتيب الآيات القرآنية في المصحف، ثم أصبحت هناك كتب تفسر القرآن كله، ومن ذلك كتاب «جامع البيان في تفسير القرآن» لابن جرير الطبري وكتاب

---

(١) د. مصطفى الشكعة - مناهج التأليف عند العلماء العرب - ص ٣٤ - ٣٥.

«الدر المنثور في التفسير المأثور» لجلال الدين السيوطي المصري (ت ٩١١هـ).

ثم ظهر نوع آخر من التفسير، نشأ عن ظروف الحياة وما فيها من حركة واضطراب ومشكلات تستجد، هذا النوع من التفسير تجاوز حدودالتفسير الأثري أو المنقول بالرواية، وكان أشد ارتباطاً بالحياة ومستجداتها، وبالضرورات الاجتماعية التي سادت العالم الإسلامي على اختلاف عصوره، وتعدد أقاليمه، ذلك هو «التفسير العقلي» أو «التفسير بالرأي» فكان أقوى من سابقه الأثري، تعبيراً عن الفكر الإسلامي، وتصويراً لتدرج الحياة والمجتمعات الإسلامية، وانعكست فيه ألوان الثقافات المختلفة للمفسرين، ومستوى أفكار كل منهم، فبدت شخصية المفسر واضحة متميزة في تفسيره كلٌّ حسب نوع علمه وثقافته، فظهرت كتب للنحاة في معاني القرآن، وللمتكلمين في تأويل القرآن، وكتب للفقهاء في آيات الأحكام مثال ذلك:

١ ـ «جامع البيان في تفسير القرآن» لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري المولود في طبرستان سنة ٢٢٤هـ، المتوفي ببغداد سنة ٣١١هـ.

ويمثل هذا الكتاب النوع الأول من التفسير وهو التفسير الأثري أو النقلي، وبذلك يعتبر أهم مصدر في تاريخ التفسير، يعطينا صورة لتفسير الصحابة والتابعين، ولكنه يتميز عن القدماء بأنه يُبرز شخصية صاحبه وعلمه وثقافته، فالطبري له رأيه المعتمد على ثقافته وعلمه، يتضح ذلك حين يعرض لآراء القدماء من المفسرين فيرجح رأياً على رأي، عاكساً في عرضه وتفسيره، ما كان في العصر العباسي الأول من علوم ساعدت على خدمة التفسير، كالنحو والصرف والبيان وفقه اللغة ومعاني الألفاظ اللغوية مما أضاف إلى التفسير كثيراً من الفوائد اللغوية والأدبية والتاريخية.

أما مثال التفسير العقلي فهو:

٢ ـ «مفاتيح الغيب» أو «التفسير الكبير». للإمام محمد الرازي فخر الدين

«ت ٦٠٦هـ» ويمثل هذا التفسير الثقافة العربية بعد امتزاجها بالثقافات المختلفة التي أفرزت نوعاً جديداً من الفكر، والمناشط العقلية، فكان الكتاب مشتملاً على الفلاسفة والمتكلمين والمعتزلة وغيرهم، إلى جانب آراء أصحاب الملل والنحل الأخرى واعتراضاتهم على القرآن.

كما يضم الكتاب نظرات هامة حول الجن والملائكة، وإبليس، وفرعون، وهامان، وقصة صلب المسيح عليه السلام، ويضم كذلك أبحاثاً حول المعجزات وكرامات الأولياء، وحول القضاء والقدر.

وبذلك يعتبر الكتاب مرآة تعكس ما كان من ثقافة صاحبه، وما كان في المجتمع من علوم وثقافات تتميز بالجدل والمناقشات والنشاط العقلي.

ومن التفاسير التي تعكس تخصص صاحبها ونزعته المذهبية:

٣ - «تفسير الكشاف» وصاحبه هو أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، المولود في زمخشر سنة ٤٦٧ هـ. والمتوفي بالجرجانية من قرى خوارزم سنة ٥٣٨هـ. وفي هذا التفسير تظهر بوضوح ثقافة مؤلفه في اللغة والبيان، ونزعته المعتزلية.

ومن التفسيرات التي تُعني بالمشكلات الحياتية المعاصرة نجد:

٤ - «تفسير المنار» للسيد محمد رشيد رضا، وهو عبارة عن مجموعة الدروس التي كان يلقيها الشيخ محمد عبده في الأزهر الشريف.

يقول صاحب التفسير عن هذا التفسير: «هو التفسير الوحيد الجامع بين المأثور، وصريح المعقول الذي يبين حكم التشريع، وسنن الله في الإنسان، وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان.

وهذا التفسير - رغم أنه لم يكتمل - غير أنه كما قال صاحبه يجمع بين المأثور والمعقول فقداحتوي على ما يتعلق بالأحوال الشخصية إلى جانب بيان موقف الدين بعامة والقرآن بخاصة مما ساد العصر من معارف وعلوم طبيعية، وما يتعلق بحياة الجماعات والأفراد والشعوب من قوانين اجتماعية، وما جدَّ من مشكلات ناجمة عن تطور الحضارة كأكل ذبيحة غير المسلم.

هذا فضلاً عن منهج متطور في التأليف والفهرسة التي تهدي القارىء في مقدمة كل جزء من أجزائه إلى ما يحتويه هذا الجزء من بحوث. وبذلك يكاد يكون دائرة معارف عصرية تتعلق بمشكلات العصر الدينية والاجتماعية[١].

كذلك كان للتصوف الإسلامي نصيب في مظاهر تطور التفسير، فكان الصوفية لا يقفون في تفسيرهم لآيات الكتاب عند ظاهر النص، بل يوجهون هممهم إلى المعاني الباطنة، وربما كانت طريقتهم تأتي أحياناً بلفتات لها قيمتها في التفسير، غير أن هذا النهج كثيراً ما أدى بهم إلى بعض التأويلات البعيدة عن النص.

ويختلف الصوفية عن الباطنية في التفسير، من حيث أن الصوفية يُقرون بما للنص من ظاهر وباطن، خلافاً للباطنية، الذين ينصرفون عن ظاهر النص مكتفين بالتأويل، ولهذا هاجمهم الغزالي في كتابه «فضائح الباطنية».

ويتضح مسلك الصوفية في التفسير مما نقله السيوطي عن ابن عطاء الله السكندري حيث يقول: «اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني الغريبة، ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جاءت الآية له، ودلت عليه في عرف اللسان، ولهم افهام باطنة تُفَهِّمُ عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه. وقد جاء في الحديث: «لكل آية ظهر وبطن». فلا يصدنك عن تلقي هذه المعاني منهم أن يقول ذو جدل ومعارضة: هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله، فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا. وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله ما ألهمهم».

ومن أهم كتب التفسير الصوفي، تفسير ابن سهل التستري، وتفسير القشيري، وتفسير ابن عربي.

---

(١) محمد خلف الله أحمد ـ دراسات في المكتبة العربية ص ٣٨.

ومن الصوفية من كانوا قريبين من أهل السنة، فكان تفسير القشيري قريباً من تفسيرات أهل السنة ومن كان قد استخدم المصطلحات الصوفية كالمقامات، والأحوال، والشهود، والحجاب، وما إلى ذلك.

أما تفسير ابن عربي فإنه يمثل التفسير الصوفي في مرحلة متأخرة من تاريخ التصوف، إذ المعروف عنه أن فلسفته الصوفية تختلف عن مذاهب الصوفية القدماء، فإليه يُنسب القول بوحدة الوجود وغير ذلك من المذاهب ذات الطابع الفلسفي التي يقال إن التصوف قد اكتسبها من تأثره بفلسفات قديمة[1].

الرواية وتدوين الحديث: ـ

من الشائع المعروف أن الحديث النبوي لم يدون في حياة النبي ﷺ، ولا في عهد الخلفاء الراشدين، وظل غير مدون حتى العصر الأموي، في أواخر القرن الأول الهجري وبالتحديد إبان خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٧ هـ/١٠١ هـ ـ ٧١٧ م/٧٢٠ م).

وسبب عدم تدوين الحديث الشريف في حياة النبي، أنه ﷺ كان ينهي عن كتابة أي شيء سوى القرآن الكريم، وفي حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فَلْيَمْحُه، وحدثوا عني فلا حرج، ومن كَذَب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[2].

وظل الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ يسلكون نهجه، حتى بعد جمع القرآن الكريم ظلوا متحرجين من جمع الحديث النبوي وتدوينه، وكذلك كانوا ينهون عن كتابة أو انتساخ أي كتب أخرى، ربما كان ذلك حرصاً

---

(١) د. كفافي ود. الشريف ـ في علوم القرآن ص ١٦٨.

(٢) يقول د/مصطفى الشكعة ـ مناهج التأليف عند القدماء العرب ص ٣٧: وربما خطر للرسول ﷺ أنه بتدوين أحاديثه ربما وقع بعض الجهلاء في الخلط بين القرآن والحديث، وإن كان ذلك أمراً بعيداً كل البعد، لأن للصيغة الإلهية في القرآن الكريم بيانها وإعجازها وتميّزها الذي لا يمكن أن يجعل هناك شبهة خلط بين القرآن الكتاب الإلهي، وبين الحديث القول النبوي الإنساني، وإن كان ﷺ لا ينطق عن الهوى.

منهم على ألا تنشغل الأفئدة بغير القرآن، من ذلك ما يرويه خالد بن عرفطة[1] قال: «كنت جالساً عند عمر، إذ أتى برجل من عبد القيس، سكنُه بالسوس، فقال له عمر ـ رضي الله عنه ـ: أنت فلان بن فلان العبدي؟ قال: نعم. قال: وأنت النازل بالسوس؟ قال: نعم. فضربه عمر بقناة كانت معه. فقال الرجل: ما لي يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: اجلس. فجلس. فقرأ عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم، آلر تلك آيات الكتاب المبين، إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون، نحن نقص عليك أحسن القصص. .» إلى «لَمِنَ الغافلين» فقرأها عليه ثلاثاً، وضربه ثلاثاً، فقال له الرجل: ما لي يا أمير المؤمنين؟ فقال: أنت الذي نسخت كتاب دانيال؟ قال: مُرْني بأمرك أتبعه. قال: انطلق فامْحُه بالحميم والصوف الأبيض، ثم لا تقرأه، ولا تُقربه أحداً من الناس ـ فلئن بلغني عنك أنك قرأته أو أقرأته أحداً من الناس لأنهنك عقوبة، ثم قال له: اجلس. فجلس بين يديه فقال: انطلقت أنا فانتسختُ كتاباً من أهل الكتاب، ثم جئت به في أديم، فقال لي رسول الله ﷺ: «ما هذا في يديك يا عمر؟ قال: قلت: يا رسول الله كتاب انتسخته لنزداد به علماً إلى علمنا. فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه. . .».

وقول عمر ـ رضي الله عنه ـ في الرواية السابقة، ورد في رواية لابن كثير في البداية والنهاية[2]، حيث يذكر ابن كثير أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ، فغضب منه.

وظل الصحابة يتحرجون من جمع الحديث، الشريف وتدوينه، وربما فكر بعضهم في جمعه وتدوينه ولكنه عَدَل عن ذلك خشية انشغال الناس به والابتعاد عن كتاب الله، من ذلك ما يذكره الخطيب البغدادي[3] عن «أن

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي ـ د/ناصر الدين الأسد. ص ٦٥ ـ ٦٦. نقلاً عن (تقييد العلم) للخطيب البغدادي ص ٥١ ـ ٥٢.

(٢) جـ ٢ ص ١٣٣.

(٣) تقييد العلم ـ ص ٤٩ وما بعدها. وانظر فجر الإسلام لأحمد أمين ص ٢٢١.

عمر بن الخطاب كان قد استشار الصحابة في كتابة الحديث، وأخذ يستخير الله في ذلك شهراً، ثم أصبح يوماً وقد عَزَم اللَّهُ له فقال: إني كنت أردت أن أكتب السُّنَنَ، وإني ذكرت قوماً كتبوا قبلكم كتبوا كتباً فأكبوا عليها، وتركوا كتاب الله تعالى، وإني والله لا أُلْبِسُ كتاب الله بشيء أبداً».

وكان لحديث عمر أن انصرف كثير من الصحابة عن كتابة الحديث، يروونه ويكرهونه أن يكتبه سامعهم، وهؤلاء مثل زيد بن ثابت، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وأبي موسى الأشعري، وسار على نهجهم كثير من التابعين.

وإذا كان بعض التابعين قد كتب ما يحفظ من الحديث، فإن ذلك لا يعطي صورة لتدوين الحديث بوجه عام، وظل الحديث مروياً حتى خلافة عمر بن عبد العزيز، الذي أمر بجمع الحديث وتدوينه خوفاً من ضياعة أو ضياع الكثير منه بموت العلماء الحفّاظ، فأذِن ـ بعد أن ظل يستخير الله أربعين يوماً ـ لقاضي المدينة وواليها آنذاك، أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم (ت ـ ١٢٠ هـ) أن يدون الحديث.

ورد في حاشية الزرقاني على موطّأ مالك[1] «وقال مالك في الموطأ رواية محمد بن الحسن: أخبرنا يحيى بن سعيد أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سُنّته أو نحو هذا فاكتبه لي، فإني خفت دروس العلم، وذهاب العلماء».

ولكن يجدر أن نشير إلى أن نهى الرسول ﷺ عن كتابة شيء سوى القرآن، وكذلك تحرج الصحابة وكثير من التابعين من جمع الحديث وتدوينه ليس يعني أن الحديث لم يكتب منه شيء قط، بل إن الروايات تؤكد وجود كتابات للحديث، وأن الرسول ﷺ يسمح بذلك[2] لنفر من الصحابة في

(١) جـ ١ ص ١٠. وانظر طبقات ابن سعد جـ ٨ ص ٤٨٠.

(٢) يقول الأستاذ عبد السلام هارون في (تحقيق النصوص ونشرها. ص ١٠): «على أن المحققين من المحدِّثين يَرَوْنَ أن هذا الحديث ـ أي حديث النهي عن الكتابة ـ قد نسخ بأحاديث أخرى تبيح الكتابة. انظر: الباعث الحثيث ص ١٤٧ ـ ١٤٩.

بعض الأحوال، دون أن تصبح كتابة الحديث ظاهرة عامة شائعة. فمن تلك الحالات التي سمح فيها النبي ﷺ بكتابة حديثه، ما رواه الترمذي عن أبي هريرة قال: كان رجل من الأنصار يجلس إلى رسول الله ﷺ، فيسمع منه الحديث فيعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «اسْتَعِنْ بيمينك». وأومأ بيده إلى الخط.

ومنها ما رواه أبو داود والحاكم وغيرهما عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قلت: يا رسول الله، إني أسمع منك الشيء فأكتبه؟ قال: نعم. قال: في الغضب والرضا؟ قال: «نعم، فإني لا أقول فيهما إلا حقاً».

ومنها ما رواه البخاري ومسلم أن أبا شاه اليمني التمس من رسول الله ﷺ أن يكتب له شيئاً سمعه من خطبته عام الفتح فقال: «اكتبوا لأبي شاه».

وروى البخاري عن أبي هريرة قال: ليس أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً مني، إلا ما كان من عبدالله بن عمرو؛ فإنه كان يكتب ولا أكتب[1].

كما أن النبي ﷺ كان يرسل كتباً لبعض الأقوام يبين لهم فرائض دينهم وخاصة تلك التي تتصل بالزكاة.

غير أن هذه الكتابات التي سمح بها النبي ﷺ كانت في نطاقها الضيق على المستوى الفردي، لا تمثل تدويناً عاماً للحديث الشريف، يقابل ذلك سماح منه ﷺ، بل حَثٌّ حثيثٌ للمسلمين على حفظ حديثه وروايته لتعليم الناس. ففي مقدمة القسطلاني على البخاري[2] جاء: «اللهم ارحم خلفائي، قلنا: «يا رسول الله مَنْ خلفاؤك؟ قال: الذين يروون أحاديثي ويعلمونها الناس». وكان كثيراً ما يقول للوفود: «احفظوا أحاديثي وأخبروا

---

(١) تخبرنا المصادر في غير موضع عن كيفية التدوين وطريقة النسخ في ذلك الوقت، فقد كان يُكتب في الصحف (جمع صحيفة) فإذا امتلأت يكتب على النعل (العلل لابن حنبل ١/٥٠) وإذا امتلأت يكتب في الكف (طبقات ابن سعد ٦/٢٥٧).

(٢) د/شوقي ضيف ـ تاريخ الأدب العربي ـ العصر الإسلامي ـ ص ٣٥ ـ ٣٦.

بها مَنْ وراءكم من العشائر».

لذلك مضى الصحابة بعد وفاته ﷺ في الأقطار الإسلامية يعلمون الناس كتاب الله ويبلغونهم سنة رسوله، لا يكادون يتركون شيئاً من أفعاله وأقواله إلا نشروها وبلغوها، ورووها ليعمل الناس بهاوليحفظهاجيل أمين من التابعين ليرويها ويبلغها فيحفظها الخَلَفُ عن السَّلَف ليرويها بدوره في أمانة تتمثل في إسناد ما يروى إلى من سمع منه أو حدثه أو أخبره أو أنبأه، فيقول: سمعت من فلان عن فلان، أو حدثني أو أخبرني أو أنبأني، وبذلك تكوَّنَتْ سلاسل السَّند، ومع مُضي الزمن وطول المدة وتعاقب أجيال الرواة، تضخمت تلك السلاسل وتعددت طرق الرواية بتعدد السند للحديث الواحد نتيجة تفرق الصحابة في الأمصار الإسلامية، فكان لكل جهة من جهات الدولة الإسلامية الواسعة صحابيها ورواته.

الرواية:

الرواية في أبسط تعريفاتها هي الحكاية، وهي نقل المحفوظ أو المسموع أو المقروء نقل مشافهة، والرواية الشفوية ـ كما يقول الأستاذ عبد السلام هارون، هي أول محاولة لنشر العلم، وهي الطريقة البدائية للعلم عند جميع الشعوب، غير أن الرواية العربية اقترنت منذ اللحظة الأولى بالحرص البالغ، والدقة الكاملة والأمانة. كان هذا أساسها على الأقل، لأن الدين يدعو إلى ذلك، ولأن كثيراً من نصوص الكتاب، وكثيراً من نصوص السنة، كان شاهداً من شواهد التشريع، وآية من آيات الفتوى، فالتزم القوم الأمانة والحرص فيها حين يروون كلام الله وكلام الرسول، بل حين يروون أشعار الجاهليين والإسلاميين، وأيامَهم ووقائعهم إلى حدٍّ ما[1].

ولكون الرواية أساساً جوهرياً في علم الحديث، وفي دراسة تطوره، تلك الدراسة التي لا تقتصر أهميتها على علم الحديث وحسب، بل لا

---

(١) تحقيق النصوص ونشرها. ص ٩.

يستغني عنها كل من أراد فهماً دقيقاً لطبيعة المكتبة العربية في نشأتها وازدهارها، فإن مؤرخ التراث العربي فؤاد سزكين يؤكد على أهمية تصور دقيق لخصائص الراوية العربية لمن يتصدى لتلك الدراسات، وكذلك لمن يريد الوصول إلى حكم عادل في قضية أصالة الشعر العربي القديم[1]. ومن هذا المنطلق يناقش قضية مفهوم الرواية العربية وعلى الأخص رواية الحديث الشريف عند نفر من المستشرقين الذين عرفوا باهتماماتهم البالغة في هذا الميدان من ميادين التراث العربي الإسلامي وعلى وجه الخصوص المستشرق جولد تسيهر Goldziher ومن سَبَقَه إلى هذه الدراسات مثل شبرنجر Sprenger وكريمر A. O. Kremer وموير B. W. Muir . ويرد على جولد تسيهر ومن حذاه من الباحثين المحْدَثين عند التعرض لبعض القضايا الأساسية، والتفصيلات الجزئية[2].

ومن المآخذ التي يأخذها سزكين على جولد تسيهر، أن تسيهر الذي تأثر أساساً بأبحاث شبرنجر في هذا المجال، يرى أن شبرنجر قد نَسَخَ الرأي الخاطىء الزاعم أن كتب الحديث قد قامت على مصادر شفوية، بيد أن جولد تسيهر كان يرى أن التحرج الديني، والاهتمامات العقيدية للفرق الإسلامية قد دفعت في وقت تالٍ إلى «كراهية تدوين الحديث» فعاد الرأي الخاطىء بذلك إلى الظهور. فينبه سزكين إلى خطورة هذه الفكرة غير الصحيحة وهي فكرة أن رواية الحديث في وقت تالٍ أي ما بين وفاة الرسول ﷺ حتى استقرار علم الحديث ووضوح معالمه ـ كانت تعتمد على المشافهة وحسب، هذه الفكرة كما يرى سزكين أدت بجولد تسيهر إلى آراء خاطئة حول تطور كتب الحديث، وأن رأى تسيهر الذي لا شاهد عليه في الكتب العربية، قد نشأ لعوامل مختلفة، منها أن الرواية العربية ذات شكل يبدو ـ لأول وهلة ـ أمراً بالغ التعقيد، ولذلك كما يبدو أن جولد تسيهر على تضلعه في اللغة العربية، قد أساء فهم بعض المعلومات الواردة في كتب

(١) تاريخ التراث العربي جـ١ ص ٨٧.
(٢) انظر تفصيلاً. المرجع السابق ص ٨٧ ـ ١١٨.

الحديث، وضرب بها منذ البداية في اتجاه خاطىء.

وينهض رأي جولد تسيهر على أن أنه ليس هناك ما يمنع من افتراض كون الصحابة والتابعين قد أرادوا المحافظة على أقوال الرسول وما رُوي عنه، فقاموا بتدوينها خوفاً عليها من الضياع، لأنه لا يجوز ترك أقوال الرسول لمصادفات الحفظ في الصدور، في مجتمع كانت الأقوال المأثورة للبشر العاديين تحفظ بالتدوين، ويرى جولد تسيهر أن ذلك خاص بمرحلة صدر الإسلام، غير أنه ظهر لدى القوم فيما تلا ذلك من زمن تَحَرُّجُ من الاحتفاظ بالحديث على شكل مدون.

وتبعاً لهذا الرأي يكون جولد تسيهر قد نبذ المعلومات الخاصة بما حدث بعد ذلك لمدونات الحديث، فجعل بداية الجهود الجامعة في أواخر القرن الثاني الهجري وأوائل القرن الثالث للهجرة.

وتكون مجموعات الحديث هذه، لا تُعَدّ في رأي جولد تسيهر عملاً تم إنجازه بمنهج علمي نقدي، أو وفق تصنيف منهجي، بل انتقاها الجامعون من الكتب التي أتيحت لهم، وكان عليهم فوق هذا أن يجمعوا الروايات الشفوية في رحلاتهم الطويلة، ثم يضعوها الرواية بجانب الرواية، وهذا حال كتب الفقه أيضاً، إذ يبدو أنها قد نشأت قبل أن تؤلف الكتب الرسمية في القرن الثالث الهجري جامعة للمعلومات الواردة في الصحف، أو معتمدة على المصادر الشفوية، ويختلف الحكم فيها من حال إلى حال.

وينبه سزكين في تعليقه على رأي جولد تسيهر إلى أن تسيهر لم يدرس كتب علم أصول الحديث دراسة شاملة، رغم أنه عرف قسماً منها كان لا يزال مخطوطاً في ذلك الوقت. وفوق هذا يبدو أنه لم ينظر ـ رغم كثرة مصادره ـ إلى بعض المعلومات في سياقها وفي ضوء ظروفها، ويبدو كذلك أنه لم يُصِبْ في فهم المواضع التي قد تعطي ـ لأول وهلة ـ دلالة تختلف عن معناها الحقيقي اختلافاً أساسياً.

وفي بداية رد سزكين على جولد تسيهر، يقسّم المراحل التي مرت بها مكتبة الحديث إلى مراحل ثلاث هي:

١ ـ مرحلة كتابة الحديث: وهي مرحلة كتابة الأحاديث في كراريس صغيرة، أطلق على الواحد منها اسم «الصحيفة»[1] أو «الجزء»، وتمت هذه المرحلة في عصر الصحابة وأوائل التابعين.

٢ ـ مرحلة تدوين الحديث: وفيها تم ضم التسجيلات المتفرقة، وذلك في الربع الأخير من القرن الأول للهجرة، والربع الأول من القرن الثاني.

٣ ـ مرحلة تصنيف الحديث: وفيها تم ترتيب الأحاديث حسب مضمونها في فصول أو أبواب، وبدأ هذا العمل مع الربع الثاني من القرن الثاني، واستمر حتى ظهرت طريقة أخرى لترتيب الأحاديث مع أواخر القرن الثاني الهجري، وهي ترتيب الأحاديث وفق أسماء الصحابة في كتب يحمل الواحد منها اسم «المسند».

وفي القرن الثالث الهجري تم تنقيح الكتب المنهجية المبكرة، وأعدت ملخصات سميت عند الباحثين الأوربيين بما ترجمته «المجموعات الفقهية»، وربما تكون هذه التسمية غير دقيقة، إلا أن جولد تسيهر اعتبرها أول كتب قامت على أساس منهجي في علم الحديث.

ومن هنا فيما يبدو أن جولد تسيهر لم يتنبه بادىء ذي بدء إلى الفرق بين تدوين الحديث وتصنيف الحديث، ولذا فقد اختلطت عليه الروايات الخاصة بهما اختلاطاً.

وفي محاولة جولد تسيهر إثبات ما ذهب إليه فإنه يتهم الخبر المشهور بأن جمع الحديث بدأ في خلافة عمر بن عبد العزيز، بأنه خبر موضوع، مع أنه ورد في أكثر من موضع صحيح كطبقات ابن سعد ٨/ ٤٨٠، وفي موطأ مالك برواية الشيباني ص ٣٨٩، وفي سنن الدارمي ص ٦٨، وفي صحيح البخاري ١/ ٣٦ نصه: «وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإن خفت دروس العلم،

---

(١) كصحيفة عبدالله بن عمرو بن العاص التي كان يدون فيها أحاديث الرسول ﷺ بعد أن أذن له بذلك، وكان عمرو يسمى صحيفته هذه «الصادقة». انظر (تقييد العلم) للخطيب البغدادي ص ٨٤. والطبقات الكبرى لابن سعد ٤/ ٢٦٢.

وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً».

ورأى جولد تسيهر في هذا الخبر نزوع الأجيال المتأخرة إلى محاولة عقد صلة بين عمر بن عبد العزيز وكتب الحديث[1].

وتوضح لنا المصادر القديمة أن المؤلفين في تلك الفترة القديمة ـ رغم ما يبدو من تناقل جهودهم شفاها ـ كانوا يتلقون المادة عن بعضهم اعتماداً على نصوص مكتوبة.

يتضح ذلك من مفهوم مصطلحات علم الحديث وهو ما يسمى «تَحمُّل العلم» أي تَلَقّيه أو أخذه، ويعتبر هذا الجانب سمة بارزة تتميز بها الحضارة الإسلامية دون غيرها من الحضارات. فقد ناقشت الكتب المنهجية لعمل الحديث قضية طرق «تَحمُّل العلم» وأظهرت أن هناك ثماني طرق معروفة للتحمل، كان العلماء يستخدمونها وفق الظروف المتاحة. وهذه الطرق هي السماع، والقراءة، والإجازة، والمناولة، والكتابة أو المكاتبة، والوصية، والوجادة.

وهذه الأنواع تقوم في مجملها على الرواية المدونة، وليس للحفظ دور فيها إلا في السماع والقراءة، مع أن النصوص المدونة كانت ضرورية فيهما أيضاً، وقد أثبت البحث التاريخي أن القرن الأول للهجرة عرف استخدام نصف هذه الطرق تقريباً[1].

كان التلميذ يسمع النص من شيخه أو يقرأه على شيخه وحده أو مع تلاميذ أو سامعين أخر. فإذا كان التلميذ وحده. فإنه عند الرواية يستخدم غالباً عبارة «حَدَّثَنا» أو «حدثني». وإذا كان مع تلاميذ أو سامعين آخرين فإنه يستخدم عبارة «أخبرنا» و«أخبرني». وقد أطلق العلماء على الطريقة الأولى «السماع» وعلى الطريقة الثانية «القراءة».

---

(١) سزكين ـ تاريخ التراث العربي ص ٩٠.

(١) سزكين ـ تاريخ التراث العربي جـ ١ ص ٣٩٨.

فالسماع إذن هو أن يسمع التليمذ أو السامع ما يلقيه عليه الشيخ من مرويات سواء من حافظته أو يقرأها من كتابه، ويقوم لهذا بعبارات مثل «سمعت عن» أو «حدثني».

و «القراءة» تكون بأن يقرأ التلميذ أو غيره حديثاً واحداً، أو عدداً من الأحاديث من كتاب، أو يلقيها على الشيخ من حافظته، والشيخ منصت يقارن ما يلقي بما في نسخته، أو بما وعته حافظته، ويقدم لهذا بعبارات مثل «أخبرني» أو قرأت على...».

إذن فكل من هاتين الطريقتين ـ رغم اعتمادها على الحافظة ـ تستخدمان النصوص المدونة. أما بقية الأنواع فاعتمادها أساساً على المكتوب أو المدون.

فالإجازة مثلاً تكون بأن يعطي الشيخ أو الراوي إجازة أي تصريحاً لآخر بأن يروي نَصَّاً أو أكثر، أو تكون الإجازة بأن يمنح الشيخ أو الراوي إجازة لآخر برواية كتب لا تسمى تفصيلاً. ويقدم لها بعبارات مثل «أخبرني» وأحياناً بعبارة «أجازني»[1].

ولا يغفل سزكين في مقاله عن المفهوم الصحيح للرواية العربية، دور الحافظة الذي أدركه الباحثون المحدثون أدراكاً خاطئاً ـ كما يقول ـ إذ كان للحافظة دور حاسم على الفكرة غير الصحيحة عن تطور كتب الحديث، تلك الفكرة التي أدت إلى الخطأ في تفسير الأخبار أحياناً[2]. فإن المحدثين الذين كانوا يعتزون بقدرتهم على رواية الحديث من صدورهم، كانوا يستخدمون الكتب والأصول المدونة أيضاً، من ذلك ما يرويه سفيان بن عيينة (١٠٧ هـ/٧٢٥ م ـ ١٩٦ هـ/٧١٢ م) أن زهير ابن معاوية الجعفي (ت ١٩٣ هـ/٧٨٩ م) قال له: «أَخْرِجْ كتُبَكَ» فقلت «أنا أَحْفَظُ من كتبي». (انظر التهذيب لابن حجر ٤/١٢١).

---

(١) انظر تعريف بقية الطرق في المرجع السابق ص ٩٣ ـ ٩٤.
(٢) انظر أمثلة على ذلك في المرجع السابق جـ١ ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

كما أن التدقيق في كتب الحديث، يدلنا على أن كل محدِّث تقريباً كان له كتاب أو كتب، وأنه كان يلقب لهذا «صاحب حفظ» تكريماً له. ووصف مرة أبو زرعة وأبو حاتم الإمام مالك بأنه صاحب كتاب وصاحب حفظ، على عكس أصحاب الكتب الذين لم يكونوا يعرفون أحاديثهم حفظاً[1].

أسباب جمع الحديث:

وقبل الإشارة إلى أهم كتب الحديث، نشير إلى أهم الأسباب التي كسرت حاجز التحرج من جمع الحديث النبوي وتدوينه.

المعروف أن السنة النبوية هي المصدر الثاني للتشريع في الدين الإسلامي بعد القرآني، والحديث هو الموضح للأحكام التي لم تأت صريحة في النص القرآن الكريم، وبعض هذه الأحكام عَرَّضَتْ الصحابة والخلفاء الراشدين لمواقف يصعب تذليلها، من ذلك مثلاً ما ورد عن تحريم الخمر في القرآن الكريم: ﴿يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس﴾[3]. فإن نوع التحريم لم يذكر في النص القرآني هل هو تحريم جزئي أم هو كلّي، ولم يذكر كذلك مقدار ما يكون منه حراماً، ولا كيفيته، هنا نجد الجواب في الحديث الشريف «ما أسكر كثيره فقليله حرام». وفسر على ذلك كثيراً من النصوص القرآنية وبخاصة ما يتعلق بالأحكام. وكان الصحابة يسألون بعضهم فيما يعرض لهم من أمور كهذه، يلتمسون توضيحها في الحديث الشريف، ومن ذلك ما كان يتعلق بالمواريث مثلاً رغم أن آية المواريث من التفصيل بمكان في القرآن الكريم «يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين... حتى

---

(١) انظر أمثلة لمن توقعهم الذاكرة أحياناً في أخطاء عند الرواية، ومنهم من عُرف بكثرة الحفظ ـ المرجع السابق ص ١٠٦.

(٢) سورة المائدة ـ ٩٠.

(٣) سورة البقرة ـ ٢١٩.

قوله تعالى: ﴿والله عليم حليم﴾[1] فإن امرأة جاءت الخليفة أبا بكر تسأله إن كان لها حق في مال حفيدها فما هو؟ فيجيبها أبو بكر: ما أجد لكِ في كتاب الله شيئاً، وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لكِ شيئاً، وسأل أبو بكر في ذلك بعض الصحابة، فشهد المغيرة بن شعبة أن رسول الله أعطاها السدس، ولكن أبا بكر مع ثقته في المغيرة أراد أن يوثق هذا القول الذي سيكون فيما بعد حكماً دينياً، فيسأل المغيرة: ومن سمع ذلك معك؟ فيشهد معه محمد بن مسلمة. فلما اطمأن أبو بكر إلى مصدر الحكم أمر لها بسدس ثروة حفيدها.

كذلك فيما أجمله القرآن الكريم، وكان تفصيله في الحديث الشريف، ما ورد في القرآن الكريم عن فريضة الصلاة، لم يحدد أوقاتها ولا كيفية أدائها، فوضح الحديث الشريف ذلك، وفسر على ذلك ما ورد عن الزكاة مجملاً في القرآن الكريم وكان في الحديث الشريف تفصيل قواعد الزكاة، والأسس التي يجب أتباعها في جمعها وتوزيعها على من يستحقها.

وقد روي عن عليّ بن أبي طالب أنه لما أرسل ابنَ عباس ليحاجَّ بعض الخوارج، أوصاه بألا يعارضهم بالقرآن، لأن القرآن حَمَّال أوجه، ويحتمل معاني مختلفة، وبأن يكون عماده السُّنَّة فلا يجدوا منها مخرجاً[2].

وكان من أسباب الاهتمام بجمع الحديث وتدوينه بعد طول تحرج، أن بعض الأفراد والفئات أخذت تستغل الحديث بأحاديث موضوعة، ترويجاً لمذهب سياسي، أو خدمة لأفكار غريبة مشبوهة، أو تشويهاً للدين وبث البلبلة وهز الإيمان، ومن هذه الفئات من كان يظهر الإسلام ويبطن غيره، وكان أمثال هؤلاء يزيفون الأحاديث التي يضعونها من عندهم بأسانيد يغتر بها من لا حظَّ لهم من العلم والفقه. من هؤلاء المزيفين رجل زنديق يُدعى عبد الكريم بن أبي العوجاء، اعترف وهو يساق لضرب عنقه جزاء تزييفه

(١) سورة النساء - ١١ - ١٢

(٢) نهج البلاغة (طبعة بيروت) ٢/١٤٦.

بأنه وضع أربعة آلاف حديث حلل فيها ما شاء، وحرم فيها ما شاء[1].

هذا مع ما كان من خوف المسلمين من ضياع الحديث أو معظمه إذا طال أمد التحرج من تدوينه، فقد يموت الحفّاظ فيموت معهم ما في صدورهم، ويضيع ما كان لديهم من صحف.

أهم كتب الحديث:

كان جهد التأليف في العصر الأموي متجهاً نحو تدوين المرويات، وجمع النصوص المتفرقة، وتأليف الرسائل في موضوعات جزئية لتحقيق هدف بعينه. وتلك هي مرحلة التدوين.

أمّا المرحلة الثانية وهي أواخر العصر الأموي وأوائل العباسي فهي مرحلة التصنيف، أي ترتيب المادة ترتيباً موضوعياً وفق الموضوعات المختلفة. وفي النصف الثاني من القرن الثاني الهجري كان ترتيب المادة وفق الصحابة الذين أخذوا عن الرسول، فظهرت كتب «المسانيد» - جمع «مُسْنَد» وفي ذلك الوقت ظهرت أيضاً كتب الطبقات الأولى للمحدِّثين[2].

ويعتبر كتاب السنن في الفقه لمكحول، أقدم كتاب مرتب ترتيباً موضوعياً. أما مرحلة التصنيف، وهي المرحلة التي تقع ما بين ١٢٥ هـ /٧٤٢م و١٥٠هـ/ ٧٦٧م، فهي المرحلة التي ظهرت فيها أيضاً المدونات التاريخية لابن إسحق، وأبي مخنف، وعوانه ابن الحكم وغيرهم. وتتميز كتب الحديث في هذه المرحلة بعناوين معروفة مثل «سنن» و«مصنف» و«موطأ» و«جامع» ومعظم هذه الكتب التي تم تدوينها في تلك الفترة لم يصل إلينا منهابطريق مباشر إلا القليل.

ومن ثمار جهود الجمع كتاب «الموطأ» للإمام مالك بن أنس (٩٣ - ١٧٩ هـ) وقد ألفه في المدينة، وكان (ابن جريج) عبد الملك بن عبد العزيز يقوم بالجمع في مكة (١٥٠هـ)، و(الأوزاعي) عبد الرحمن في الشام

---

(١) مناهج التأليف عند علماء المسلمين. د/مصطفى الشكعة ص ٣٩. نقلاً عن فجر الإسلام ص ٢١١.

(٢) تاريخ التراث العربي - سزكين - جـ ١ ص ١٢٩

(١٨٣هـ)، و(الثوري) أبو سفيان في الكوفة (١٦١هـ)، و(ابن دينار) حماد بن سلمة في البصرة (١٧٦هـ). فهؤلاء تزامنوا جميعاً، وإن تفرقوا في الأمصار.

وفي الثلث الأخير من القرن الثاني الهجري حتى نهاية العقد الرابع من القرن الثالث يظهر كتاب «المسند» لأحمد بن حنبل، الإمام الذي وقف حياته على جمع الحديث الشريف، حتى أنه ضَمَّنَ مسنده ما يقرب من ثلاثين ألف حديث اختارها من بين سبعمائة وخمسين ألف حديث[1]. ثم يظهر الصحيحان «صحيح» الإمم محمد بن أسماعيل البخاري (١٩٤ ـ ٢٥٦هـ) نسبة إلى بخارى التي عاش بها، والثاني «صحيح» الإمام مسلم بن الحجاج القشيري الذي عاش في نيسابور بإيران.

وقد عرف كل من الكتابين ذَوَى العنوان الواحد، بإسناده إلى صاحبه، فالأول «صحيح البخاري» والثاني «صحيح مسلم» وكلا الصحيحين من أكثر-إن لم يكونا أكثر-كتب الأحاديث النبوية ثقة عند جمهور المسلمين في كل مكان.

أما كتب السنن فمن أشهرها أربعة كبيرة يحمل كل منها عنوان «سُنَن» ويعرف كل منها بإسناده إلى اسم صاحبه.

منها «سُنَن» محمد بن يزيد بن ماجه (ت ـ ٢٧٣هـ).

و «سُنَن» أبي داود السجستاني (ت ـ ٢٧٥هـ).

و «سُنَن» أبي عيسى محمد الترمذي (ت ـ ٢٨٧هـ).

و «سُنَن» أحمد بن علي النسائي (ت ـ ٣٠٣هـ).

وهذه السنن لا تقل عن الصحيحين علو منزلة وشديد ثقة عند جمهور المسلمين.

---

(١) مناهج التأليف عند العلماء المسلمين ـ د/مصطفى الشكعة ـ ص ٤١

الإمام البخاري ومنهجه في «الصحيح»

هو محمد بن إسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَهْ، وهو سليل أجداد من الفرس كانوا على دين المجوس، وأول من أسلم من أجداده، هو المغيرة، وكان إسلامه على يد اليمان الجعفي، والي بخارى، وقد اشتهر محمد بن اسماعيل هذا في أنحاء العالم الإسلامي باسم «البخاري» نسبة إلى بخارى التي ولد فيها سنة ١٩٤هـ. ومات بالقرب من سمرقند سنة ٢٥٦هـ. وكل من بخارى وسمرقند كانا في مشرق الوطن الإسلامي.

أنفق البخاري من عمره ستة عشر عاماً في جمع كتابه الذي اشتهر مقترناً باسمه «سحيح البخاري» وكان مؤلفه قد سماه «الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ» وقد جمع البخاري خلال السنوات الست عشرة، حوالي ثلاثمائة ألف حديث، زار من أجلها خراسان والعراق ومصر والشام، وسمع من نحو ألف شيخ(١). وقد جمع حوالي ثلاثمائة ألف حديث انتقى منها لصحيحه سبعة آلاف وخمسة وسبعين ومائتين حديثاً.

وقد أرادالبخاري من ذلك أن يقتصر على الأحاديث الصحيحة، والحديث الصحيح في اصطلاح المحدِّثين هو الحديث المسند الذي يتصل إسناده من الراوي إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ويكون كل واحد من الرواة عدلاً ضابطاً.

وقد اشترط البخاري في جمعه للأحاديث التي يصححها شروطاً عرفت بين رجال الحديث بشروط البخاري. وهي أن يكون إسناد الحديث متصلاً،

(١) تذكرة الحفاظ ٢/١٢٢.

وأن يكون كل راوٍ من رواته مسلماً، صادقـاً، غير مـدلس، ولا مختلط، متصفاً بصفات العدالة، ضابطاً متحفـظاً، سليم الذهن، قليـل الوهـم، سليم الاعتقاد.

وقد قسم البخاري كتابه إلى أبواب أو كتب، وعدة هذه الكتب سبعة وتسعون كتاباً، وهي مصنفة بحسب الموضوعـات: باب الـوحي، وباب الطهارة، وباب الصلاة، وباب الزكاة، وباب الصوم، وباب الحـج. . . إلخ.

ولم يخل كتاب البخاري من النقد، فقـد نقدوه من حيث أنـه كان يقطع الحديث. فيذكر بعض الحديث في باب، وبعضه في باب آخر، وذلك إذا كان الحديث يتعلق بموضوعين.

كذلك نقدوه في بعض الأحاديث التي بلغت عـدتها مـائة حـديث وعشراً، قالـوا إن فيها عِلَلاً كثـيرة. وقالـوا إنه لم يحقق في الكتـاب كل شروطه، ومن هنا كان في الأحاديث التي جمعها أحاديث موقوفة، ومقطوعة. وقد اعتذر عنه بعضهم بقوله إنما ذكر مثل هذه الأحاديث للاستئناس، لا لتكون أساساً للباب.

وقد لاحظ ابن خلدون (المقدمة ص ٣٨٧ ط بيروت) في دراستـه لصحيح البخاري أن عدداً كبيراً من الأحاديث قد تكرر فيه، وعلل ابن خلدون هذا بأن الإمام البخاري خرَّج الأحاديث يسوقها في كل باب بمعنى ذلك الباب الذي تضمنه الحديث، وهكذا جاء التكرار الذي وصل إلى نحو ثلاثة آلاف حديث (المقدمة ص ٣٨٧).

الإمام مسلم ومنهجه في «الصحيح»

هو مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، عربي الأصل من قشير وإليها يُنسب، ونياسبور كانت مسكن أهله، وبها أو بإحدى ضواحيها كانت وفاته سنة ٢٦١هـ.

وإذا كان مسلم قد سمى كتابه «الصحيح» كما فعل البخاري، فإن الجهد والسنوات التي أنفقها في جمعه تقترب مما قام به معاصره الإمام البخاري، فقد أنفق مسلم من عمره خمس عشرة سنة زار خلالها بغداد أكثر من مرة، وطوّف في العراق والشام ومصر والحجاز، يسمع ويجمع، حتى توفر له ثلاثمائة ألف حديث، انتقى منها لصحيحه أثني عشر ألف حديث، كما أن الإمام مسلم تتلمذ على الإمام أحمد بن حنبل، وانتفع بمجهوده كما انتفع البخاري، والتقى العالمان البخاري ومسلم في نيسابور عندما كان البخاري في زيارة لها، وعندما تعرض البخاري لمحنة إبان زيارته نيسابور، انبرى مسلم ينافح عنه، ويقف معه، ويشد من أزره[1].

حدد مسلم منهجه في أول كتابه حين ذكر أن الأحاديث عنده ثلاثة أقسام: الأول ما رواه الحفاظ والمتقنون. والقسم الثاني ما رواه المستورون والمتوسطون في الحفظ والإتقان، والقسم الثالث ما رواه الضعفاء والمتروكون. وأنه إذا فرغ من القسم الأول أَتْبَعَهُ الثاني، وأما الثالث فلا يعرج عليه.

ويوازن رجال الحديث دائماً بين الصحيحين: صحيح البخاري،

(١) مناهج التأليف عند العلماء المسلمين. د. مصطفى الشكعة. ص ٤٢.

وصحيح مسلم، ويختلفون في أيها أفضل، ولكل من الصحيحين أنصار، ولكنهم جميعاً يتفقون على شيء واحد تقريبا هو أن البخاري قد غلبت عليه النظرة الفقهية، ومن هنا كانت عنايته بالحديث على أنه الأصل الثاني للتشريع. ومن هنا أيضاً كانت تجزئته الحديث وتقطيعه، وكان تبويب الكتاب على هذا الأساس.

أما مسلم فقد قصد إلى جمع الحديث وتدوينه، لأنه حديث النبي ﷺ يجب أن يُجمَع ويدوَّن، ومن هنا يكون كتاب مسلم أفضل لأنه كتابُ حديث.

وعلى أي حال فإن صحيح مسلم هو الآخر دقيق غاية الدقة، وهو وإن مال إلى ترتيب كتابه ترتيباً فقهياً إلا أنه لم يبالغ مبالغة البخاري. ومع ذلك فإن صحيح مسلم لم ينل ما ناله صحيح البخاري من شهرة وذيوع صيت، فشهرة البخاري تطغى على شهرة أي كتاب آخر في الحديث، بل تكاد هذه الشهرة تجعل الناس يظنون أن ليس هناك من كتب في الحديث سوى البخاري[1].

---

(١) دراسات في المكتبة العربية ـ محمد خلف الله ص ٤١ ـ ٤٢.

التدوين والنهضة العلمية:

مما سبق نعرف أن بدايات التدوين، أو المحاولات الأولى المبكرة، أخذت مكانها عند العرب منذ بواكير الإسلام، كما عرفنا من أمر كتابة نصوص القرآن على العُسُب، والرِّقاق، واللخاف، والأكتاف والأضلاع. وما كان من بعض الصحابة أيضاً في تدوين الحديث النبوي، ثم ما حدث بعد وفاة الرسول ﷺ من جمع القرآن وتدوينه في مصحف أيام أبي بكر، ثم توحيد المصاحف في مصحف أيام عثمان بن عفان، ثم جمع الحديث أيام عمر بن عبد العزيز. كل ذلك كان تدويناً وإن لم يكن بالمعنى الواسع الذي حدث في العصر العباسي الذي يرى بعض الباحثين أنه عصر بداية التدوين.

ولما كان من المعروف أن أمة العرب قبل الإسلام لم تكن أمة كاتبة، فإن الفضل الأول في توجيه العرب إلى الكتابة والتدوين، لا هو للعرب، ولا هو للفُرس، بل الفضل في ذلك للدين الجديد، الذي يحث الناس في أكثر من موضع في كتاب الله على العلم، قراءة وكتابة وتأملاً وتَفَقُّهاً. فأثمر ذلك رجالاً في الدين جمعوا، ودوَّنوا، ورتبوا، وصنّفوا، وكان لعلماء الحديث منهج تميز بالدقة والسلامة والتثبت.

ولا ننكر فضل الفتوح الإسلامية في تنمية هذا المنهج الإسلامي، واتساع آفاق المعرفة بالإطلال على علوم غير العرب وثقافاتهم. فنما العلم، واتسعت المعارف، وحرصت الأمة الإسلامية على طلب العلم أينما كان، امتثالاً لحث العقيدة والسنة على ذلك. ودرج الخلفاء على تشجيع العلم والعلماء، كلٌّ قدر طاقته، وحسب ما أتيح لكل خليفة من فرص، حتى جاءت الخلافة العباسية، فأتيحت الفرص بقدر واسع، وتهيأت الظروف

والإمكانات فتضخم العلم وتفرع، وكثر العلماء وحفزت الهمم، فكان ذلك العصر بحق عصر ازدهار العلم، وكثرة التأليف، ونشاط العقول في كل نوع من أنواع المعارف، فأرسيت دعائم المكتبة العربية التي حوت من التراث العلمي المتنوع ما لو وصل إلينا كاملاً لكان لدينا علم كثير وفضل عميم. ومن وسائل ازدهار العلم في العصر العباسي، الحرص على نهضة التعلم فانتشرت الكتاتيب التي كان يقوم بالتعليم فيها رجال علماء لا يحرصون على عائد مادي يعود عليهم بقدر ما يحرصون على تأديب الناشئة، وتزويدهم بالعلم.

ويعطينا الجاحظ وابن قتيبة[1] أمثلة من هؤلاء العلماء في أكثر من فرع من فروع العلم، مثل أبي البيداء الرياحي اللغوي، ومحمد بن السكن المحدِّث، وأبي عبد الرحمن السُّلَمي المقرىء، وأبي صالح الإخباري.

وكان الخاصة من القوم يحرصون على تأديب أبنائهم، فيستحضرون لهم من العلماء من يقوم بالمهمة، مثل المفضل الضبي معلم المهدي، وقد علمه على مختاراته الشعرية المعروفة بالمفضليات، وكان الكسائي معلم الرشيد وابنيه الأمين والمأمون، وكان قُطرب معلم الأمين وأبناء أبي دُلف قائد المأمون، ومنهم كذلك اليزيدي يحيى بن المبارك معلم أبناء يزيد بن المنصور الحميري خال المهدي، ومنهم الفرَّاء معلم أبناء المأمون، وغير هؤلاء.

كما أن المساجد لم تكن بيوت عبادة وحسب، بل كانت ساحات كبرى للعلم، حيث يتحلق التلاميذ شيوخهم، يكتبون ما يمليه عليهم هؤلاء الشيوخ من علوم مختلفة. وفي المساجد كانت تعقد حلقات للعلم تدور فيها المناظرات والمناقشات في شتى ألوان المعارف. كانت من هذه الحلقات، حلقات للشعراء ينشدون فيها أشعارهم[2]. وكانت تدور في

---

(١) البيان والتبيين ١/١٨١. والمعارف ص ٢٧١.

(٢) الموشح ٢٨٩.

هذه الحلقات مناظرات يحمى فيها وطيس المعارضة بين العلماء، كتلك المناظرة التي تروى عن تعُّرض الأخفش للكسائي فسأله عن مائة مسألة كان فيها محاوراً مستفيضاً في المناقشة[1].

وقد أثمرت هذه الحلقات العلمية عدداً وفيراً من العلماء في غير فرع من فروع العلم، إذ يُروى أن النضر بن شميل تلميذ الخليل بن أحمد، حين عزم على الخروج من البصرة إلى خراسان كان في وداعه نحو ثلاثة آلاف رجل بين محدِّث ونحوي ولغوي وعروضي وإخباري[2].

وكان سوق البصرة المعروف بالمربد منهلاً لقصائده من الراغبين في لقاء الفصحاء من الأعراب، تهذيباً لأذواقهم وألسنتهم بما يسمعونه من لغتهم، وما يسجلونه عنهم من طرائف الشعر، بل كان كثير من شباب البصرة الشعراء يرحلون إلى البادية للتزود باللغة والشعر من ينابيعهما الأصيلة كما فعل بشار بن برد[3].

كذلك كانت مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء وسراة القوم من الأسباب الهامة في ازدهار الحركة العلمية في العصر العباسي، إذ كانت هذه المجالس أشبه ما تكون بالندوات العلمية، إذ كانت تقام في هذه المجالس مناظرات بين العلماء، تثري العلم، وتزيد المعارف.

كانت للرشيد مجالس يتبارى فيها العلماء، وكان المأمون نفسه عالماً واسع الثقافة بالعلوم الدينية واللغوية وبالفلسفة وعلوم الأوائل وكانت مجالسه العلمية في دار الخلافة ببغداد ندوات علمية لكل فروع المعرفة، وكان يطلب من يحيى بن أكتم أن يجمع له في مجلسه وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد، فيجمع له الكثير منهم ويجلس المأمون يناقشهم ويسألهم، ولم يكتف المأمون بذلك، بل طلب من يحيى بن أكتم أيضاً أن ينوع المجالس ليجعل منها مجالس متخصصة، بحيث يكون لكل طائفة من

---

(١) معجم الأدباء ١١/٢٢٨. وإنباء الرواة ٢/٣٧.
(٢) المرجع السابق ١٩/٢٣٨.
(٣) الأغاني ٣/٤٥٠.

العلماء مجلس[1]. وتميزت هذه المجالس بالحرية المطلقة في مناقشة أي موضوع كان حتى آراء الزنادقة، وكانت هذه الحرية المكفولة للعلماء سبباً آخر من أسباب ازدهار العلم وغزارته[2].

وكان من أهم أسباب التقدم العلمي في ذلك العصر، استخدام الورق في الكتابة، مما سهل على العلماء مهمة التأليف والنسخ، فكثرت المؤلفات وتنوعت المعارف، وتم تأليف أمهات الكتب العربية في شتى ألوان المعارف ومختلف ضروب العلم.

ويرجع الفضل في استخدام الورق إلى الفضل بن يحيى البرمكي الذي أنشأ في عهد الرشيد مصنعاً للورق ببغداد، فاستبدل العلماء في كتابتهم الورق بالجلد الذي كان عائقاً في طريق غزارة التأليف.

وربما كان بعض الناس من علية القوم آنذاك يفضلون الكتابة على الجلود ويأنفون من الورق، نفهم ذلك من «رسالة الجد والهزل» التي يسجل فيها الجاحظ نقدَ محمد بن عبد الملك بن الزيات له، لأنه ـ أي الجاحظ ـ استعمل الورق في الكتابة بدلاً من الجلد، فيرد عليه الجاحظ قائلاً: [3] «وما عليك أن تكون كتبي كلها من الورق الصيني ومن الكاغد الخراساني؟ قل لي: لِمَ زينتَ النسخ في الجلود، ولِمَ حثثتني على الأدم وأنت تعلمُ أن الجلود جافية الحجم، ثقيلة الوزن، إن أصابها الماء بطلت، وإن كان يوم لثق استرخت، وإن لم يكن فيها إلا أنها تبغض إلى أربابها نزول الغيث، وتكره إلى مالكيها الحيا، لكان في ذلك ما كفى ومنع منها. وقد علمت أن الورَّاق لا يخط في تلك الأيام سطراً، ولا يقطع فيها جلداً. . . وهي أنتن ريحاً وأكثر ثمناً وأحمل للغش، يغش الكوفيُّ بالواسطي، والواسطي بالبصري. . . . ولو أراد صاحب علم أن يحمل منها قدر ما يكفيه في سفره لما كفاه حِمْلُ بعير، ولو أراد مثل ذلك من القطني لكفاه ما

---

(١) بغداد. لطيفور ص ٤٥.

(٢) انظر هذه المجالس وما كان يدور فيها ـ تاريخ الأدب العربي ـ العصر العباسي الأول د. شوقي ضيف ص ١٠٤ ـ ١٠٧.

(٣) رسائل الجاحظ ١/٢٥٢ ـ ٢٥٣؛ تحقيق عبد السلام هارون

يحمل مع زاده». ثم يبين الجاحظ سبب تفضيل ابن الزيات للجلود في الكتابة فيقول: «وقلتَ لي: عليك بها فإنها أحمل للحك والتغيير، وأبقى على تعاور العارية وعلى تقليب الأيدي، ولرديدها ثمن، ولطرسها مرجوع... وليس لدفاتر القطني أثمان في السوق، وإن كان فيها كل حديث ظريف، ولَطَف مليح، وعلم نفيس.. إلخ».

وكان لاستخدام الورق الذي تسبب في غزارة التأليف، أن راجت الوراقة وأنشأ بعض الوراقين لهم دكاكين كثيرة ملئوها بالكتب يتجرون فيها، وكان بعض الشباب يغدو إلى هذه الدكاكين لا ليشتري منها فحسب، بل ليقرأ فيها ما لذ وطاب من صنوف الآداب نظير أجر بسيط، يتقاضاه منه صاحبها، وبلغ من عناية الوراقين بعملهم، أن مَوَّه بعضهم خطوطه بالذهب، ويذكر الجاحظ أن الزنادقة كانوا يتأنقون في كتبهم تأنقاً شديداً[1].

وأصبحت الكتب سجلاً لأمهات العلم وأصوله، وأكثر اختصاراً لمدة التعليم من الجلوس إلى الفقهاء والعلماء، يقول الجاحظ:[2] «وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن، وجالسَ الفقهاء خمسين عاماً، وهو لا يُعَدُّ فقيهاً ولا يُجْعَلُ قاضياً، فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة، ويحفظ كتاب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن أنه من العمال، وبالحريّ أن لا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصبح حاكماً - أي قاضياً - على مصر من الأمصار، أو بلد من البلدان».

ومن الأسباب الهامة أيضاً في ازدهار العلم وغزارة المعارف، ووفرة العلماء وتنوع العلوم، تلك الإطلالة على ما كان عند أهل البلاد المفتوحة من علوم وثقافات، كان ذلك عن طريق المشافهة مع المستعربين، وعن طريق الترجمة والنقل، وقد بدأت الترجمة في العصر الأموي على استحياء، إذ كان ما ترجم آنذاك قليلاً، فقد تُرجمت لخالد بن يزيد بن معاوية بعض

(١) الحيوان ١/٥٥ وما بعدها.
(٢) المرجع السابق ١/٨٧.

كتب في الصنعة والطب والنجوم[1]. وأن عمر بن العزيز أمر بترجمة كتاب في الطب لأهرن بن أعين، وأن هشام بن عبد الملك تُرجم له كتاب في تاريخ الساسانيين، وكان معظم المترجمين من المستعربين.

ويذكر ابن النديم[2] أن المأمون كانت له مراسلات مع ملك الروم، وقد استظهر عليه المأمون فأرسل إلى ملك الروم يسأله الإذن في إرسال جماعة يختارون من العلوم القديمة المخزونة ببلاد الروم فأجاب ملك الروم إلى ذلك بعد امتناع، فأرسل المأمون جماعة منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وَسَلْم صاحب بيت الحكمة وغيرهم. فاختاروا ما يشاءون من علوم الروم، وحملوها إلى المأمون، فأمرهم بنقلها إلى العربيـة فنقلوها، وكان ضمن هؤلاء الجماعة أيضاً يوحنا بن ماسويه، وقال محمد بن إسحق: ممن عني بإخراج الكتب من بلاد الروم محمد وأحمد والحسن بنـو شاكـر المنجم، وحنين بن إسحق، وغيرهم، فجاءوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والارثماطيقي والطب[3].

ومن أشهر المترجمين قبل الإسلام يوحنا فيلوبونـوس، الإسكندري المعروف باسم يحيى النحوي، وكان يعيش في القرن السادس الميلادي، ونقل عن اليونانية كتباً كثيرة في المنطق والطب والطبيعيات[4]. وفي العصر الأموي كان أبرزهم سويـرس سبيوخت أسقف ديـر قنسرين، ويعقوب الرهاوي وله مصنّف هام في النحو السرياني.

أما في العصر العباسي فقد فتح باب الترجمة على مصراعيـه، وقد اهتم الخلفاء العباسيون بالترجمة اهتماماً بالغاً، ولم يبخلوا عليها بالنفقات مهما عظمت. ولم يتركوا لساناً من ألسن الأمم المعروفة إذ ذاك لم ينقلوا منه شيئاً، وإن كان أكثر نقلهم عن اليونانية والفارسية والهندية، فأخذوا عن كل أمة أحسن ما عندها، فكان اعتمادهم في الفلسفة والطب والهندسة

---

(١) ويذكر ابن النديم أن الذي ترجمها له هو «اصطفن القديم» ـ الفهرست ص ٣٤٠.
(٢) الفهرست ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠.
(٣) الفهرست ص ٣٤٠.
(٤) المرجع السابق ص ٣٤٠.

والموسيقى والمنطق والنجوم على اليونان، وفي النجوم والسير والآداب والحكم والتاريخ والموسيقى على الفرس، وفي الطب (الهندي) والعقاقير والحساب والنجوم والموسيقى والأقاصيص على الهنود. وفي الفلاحة والزراعة والتنجيم والسحر والطلاسم على الأنباط أو الكلدان. وفي الكيمياء والتشريح على المصريين. فكأنهم ورثوا أهم علوم الآشوريين والبابليين والمصريين، والفرس، والهنود، واليونان، وقد مزجوا ذلك كله واستخرجوا منه علوم التمدن الإسلامي[1].

ومما ساعد على إفادة العرب من هذه المترجمات، وفهمها فهماً دقيقاً أدى بعد ذلك إلى ظهور علماء متخصصين ألفوا كتباً قيمة في كل فرع من فروع العلم، أن المترجمين الذين نقلوا ذلك التراث الضخم إلى العربية، كانوا يجيدون لغة ذلك التراث إجادة تامة إلى جانب إجادتهم العربية التي ينقلون إليها، مع إلمامهم التام بموضوعات ترجماتهم، وكان معظم هؤلاء المترجمين يلتزمون الدقة، ويتوخون الأمانة في كل ما ينقلونه إلى العربية، إذ كانوا عادة يحرصون على أن تكون تحت أيديهم نسخ الأصل الذي ينقلون عنه وترجماتها في غير العربية كالسريانية مثلاً ليقابلوا بين بعضها والبعض الآخر، وكانوا يقسمون الجمل إلى بنود وفصول وفقرات حتى يتيسر نقل معانيها إلى العربية في وضوح لا يحتمل اللبس كما كان يفعل ابن الأشعث فيما يروي ابن أبي أُصَيْبِعَة،ومن شروحهم للأصل يتضح أنهم كانوا على إلمام دقيق بالتعبيرات الدارجة، والمصطلحات المألوفة في اللغة التي ينقلون عنها. وإذا كان اختلاف التراكيب ونظام الجمل في اللغات، وعدم تكافؤ الألفاظ فيها قد أدى أحياناً إلى غموض في المعاني بعد ترجمتها إلى العربية فإن مترجمين من الممتازين نهضوا بعد ذلك إلى مراجعة مثل هذه الترجمات وأصلحوا ما بها، وأبانوا معانيها، أو أعادوا ترجمتها. من ذلك مثلاً ما فعله شيخ المترجمين آنذاك اسحق بن حنين عندما نهض بإصلاح أو إعادة ترجمة ابن البطريق من مؤلفات جالينوس، بل كان اسحق بن حنين يعيد ترجمة ما سبق له أن نقله إلى العربية في صباه، وفعل أيضاً في ترجمات ابن باسيل

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ـ جورجي زيدان ـ جـ٢ ص ٣٣٩ ـ ط بيروت.

ما فعله في ترجمات ابن البطريق، ومما ساعد ابن حنين على ذلك أنه كان يجيد غير العربية ثلاث لغات هي اليونانية والسريانية والفارسية، وممن اشتهروا بالترجمة الدقيقة غير ابن حنين، ثابت بن قرة، وقسطا بن لوقا، وغيرهما. لذلك كانت ترجمات العرب عن اليونانية أو غيرها، وترجمات الفرنجة من العربية إلى اللاتينية ـ في صقلية وأسبانيا ـ تشهد بأن العرب كانوا أكثر أمانة ودقة ووضوحاً[1].

وبانتقال تراث هذه الأمم القديمة إلى تراثنا العربي الإسلامي، وإتصال هذه الروافد بتراثنا الأصيل، وتفاعلها معه في ظل الخبرة العربية الإسلامية القائمة على التأمل العقلي، والمنهجية الدقيقة التي اكتسبوها من دراسات الحديث وتصنيفه، ظهر علماء من العرب والمستعربين في كنف الدولة الإسلامية، ألفوا كتباً لها ما لها من القيمة والأصالة في مختلف العلوم والفنون.

فكان على سبيل المثال لكتاب كليلة ودمنة الذي نقله ابن المقفع عن الفارسية، أثر كبير في الأدب العربي وغيره، وحذا حذوه كثير من المؤلفين، وعرفت العربية في ضوئه القصص على ألسنة الحيوان والطير، ووضع الأمثال والحكم والعظات على ألسنتها، وبخاصة في عصور الاستبداد، وتكميم الأفواه وتحريم النقد.

وأفاد العرب من التراث الهندي، في مجال الفلك وحساب حركات الكواكب، فصنعوا الزيجات، مثل الزيج الذي صنعه الفزاري واشتهر بين علماء العرب حتى لم يعملوا إلا به أيام المأمون حيث بدأ مذهب بطليموس في الحساب، والجداول الفلكية.

كما أفاد العرب من الهند أدباً وشعراً وحكمة، وألفاظاً هندية تم تعريبها، هذا إلى جانب آراء في الأدب والبلاغة، من ذلك ما أورد الجاحظ شواهد منه كقول الهنود: إن على الخطيب أن يكون رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيّد الأمّة بكلام

(١) في تراثنا العربي الإسلامي ـ د. توفيق الطويل ص ٧٦ ـ ٧٧. ط. عالم المعرفة. مارس سنة ١٩٨٥.

الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه فضل للتصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح، ولا يصفيها كل التصفية، ولا يهذبها كل التهذيب، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيماً أو فيلسوفاً عظيماً» ويعلق الأستاذ أحمد أمين على هذه الفقرة بقوله: «إننا رأينا هذه الجملة الهندية تصاغ في كتب البلاغة العربية بما سموه «مُقْتَضَى الحال»[1].

وقد نقل لنا البيروني (ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) كثيراً من معارف الهند وعلومهم في كتابه القيم الذي سماه (تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة».

ومن الثقافة اليونانية الرومانية أفاد المسلمون ثروة عظيمة في كل ما ينتجه العقل والعاطفة والذوق، في الفلسفة والرياضة والفلك وعلوم الطبيعة والحياة والطب والأدب، والتاريخ والسياسة والفنون الجميلة.

وقد اتصل المسلمون بعد الفتح الإسلامي بكثير من البلاد التي فتحها الإسكندر الأكبر ونشر فيها علوم اليونان وحضارتهم، مثل جنديسابور وحران والإسكندرية وقد اتصلت قصور الخلفاء منذ مطلع العصر العباسي بمدرسة جنديسابور، وكان من أشهر أطبائها جورجيوس بن بختيشُوِّع طبيب المنصور، وابنه جبريل طبيب الرشيد والمأمون. وكان هؤلاء الأطباء من النصارى والنساطرة الذين مهروا في الترجمة إلى العربية.

أما مدرسة حران فكان أهلها أيضاً من المنابع الهامة للثقافة اليونانية وكانوا من الصابئة إلى عهد المأمون، وكان لمدرسة حران أثرها الواضح في نشر الرياضيات بعامة، والفلك بخاصة، ومن أشهر مترجميها إلى العربية الرياضي الفلكي (ثابت بن قرة ت ٢٩٨هـ/٩٠٠م) والفلكي الهندسي (محمد بن جابر البناني ـ ت ٣٣٤هـ/٩٢٩م).

وأفاد العرب من مدرسة الإسكندرية الطب والكيمياء والعلوم الطبيعية إلى جانب الفلسفة والفن، وقد امتزجت أبحاثها بالسحر

(١) المرجع السابق ص ٨٣ ـ ٨٤.

والطلاسم والتنجيم وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز يعالجه الطبيب ابن أبحر السكندري.

وقد ظهر أثر تلك المدارس بعد الترجمة، في المجادلات الدينية، ومناقشات المعتزلة.

أهم الكتب التي ترجمت إلى اللغة العربية:

وفي دور الترجمة الأول تم نقل مؤلفات أرسطو وشروح الإسكندرية عليها، وبعض مؤلفات أفلاطون، وأهم كتب جالينوس في الطب، وأهم ما وصل إليه العقل اليوناني في العلم والفلسفة، ونقل ابن المقفع عن الفارسية كتاب كليلة ودمنة، ونقل غيره السند هند عن الهندية، ومنطق أرسطو، وكتاب المجسطي في الفلك.

وفي هذا الدور من أدوار الترجمة كان اتصال المعتزلة بالكتب المترجمة، فتأثرت أبحاث النَّظَّام وغيره بكتب أرسطو في الفلسفة، وتأثروا بالمنطق فتكلموا عن العَرَض والجوهر والطفرة وما إلى ذلك.

كما تُرجمت في الدور الثاني من أدوار الترجمة. كتب أرسطو، وأعيدت ترجمة المجسطي لبطليموس في الفلك، وكتب الحكم الذهبية لفيثاغورث، وكتب في الطب لبقراط، وجالينوس، ومحاورات طيماوس والسياسة المدنية، والنواميس لأفلاطون، والمقولات لأرسطو. وكان نقل ذلك على يدي حنين بن إسحق ومدرسته.

أما أهم ما ترجم في الدور الثالث من أدوار الترجمة، فهي كتب أرسطو في المنطق والطبيعة، وتفسير هذه الكتب، وقد أشار ابن النديم إلى كثير من أسماء الكتب المترجمة في مقالاته السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة، كما ذكر أسماء المترجمين عن اللغات الأخرى كالفارسية والهندية والسريانية واليونانية[١]. وتناول أسماء المؤلفين العرب وكتبهم في مختلف العلوم والفنون والصناعات[٢].

(١) الفهرست ص ٣٤٠ - ٣٤٢.

(٢) المرجع السابق ص ٣٤٠ - ٥٠٧.

التدوين وعلوم اللغة: ـ

لقد بدأت الدراسات اللغوية في أبسط صورها بعد تدوين القرآن الكريم وبالذات بعد تدوين المصحف العثماني، وكانت نشأتها في إطار دراسة القرآن الكريم. وكثير من النصوص تروى أن أبا الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ/٦٨٨ م) قد قام بوضع رموز تدل على الحركات، بتكليف من زياد بن أبيه (ت ٥٣ هـ/٦٧٣ م). ورواية أخرى تفيد بأن نصر بن عاصم (ت ٨٩ هـ/٧٠٧ م) أو (٩٠ هـ/٧٠٨ م) تلميذ أبي الأسود الدؤلي هو الذي قام بذلك. وقد قوبل هذا التجديد بالرفض والمعارضة من قبل بعض الصحابة وكبار التابعين، ومنهم عبدالله بن عمر، وقتادة، والنخعي، ومحمد بن سيرين[١].

غير أن أوائل المسلمين من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين. كان رفضهم أو موافقتهم على شيء يتعرض للقرآن والسنة، ينبع من منطلق واحد هو الهيبة والتحرج الشديدين والاحترام البالغ الكلام الله وكلام رسوله، ومن هذا المنطلق أيضاً ينزلون عن هذا التحرج إذا خافوا على هذين المصدرين العظيمين أن يضيعا أو يحدث ما يوجد فيهما لبسا أو بلبلة، فبعد التحرج من جمع القرآن الكريم نزلوا عن هذا التحرج وجمعوه خشية ضياعه، وبعد طول تحرج من جمع الحديث، ثم جمعه خشية ضياعه أو تزييفه.

وهكذا كان الأمر بالنسبة للغة القرآن والحديث، فبعد اتساع الفتوح الإسلامية، واختلاط العرب بأجناس غريبة، وخشية اختلاط

---

(١) تاريخ التراث العربي ـ سزكين جـ ١ ص ٨.

اللسان، وتفشي اللحن في النطق، اهتم جمهور كبير من العلماء في أواخر العصر الأموي بالذات، بجمع ألفاظ اللغة وأشعار العرب في الجاهلية والإسلام حين رأوا أن اللحن شائع على ألسنة الموالى، وعلى ألسنة بعض العرب أنفسهم نتيجة الاختلاط بالعناصر الأجنبية، كما أن، الشعوب المفتوحة التي دخلت الإسلام، كانت في حاجة إلى تعلم اللغة العربية لغة القرآن والحديث.

من أجل ذلك انبرى علماء البصرة والكوفة يجمعون ألفاظ العربية وأشعارها حفاظاً عليها أن تذوب في خضم لغات الشعوب المستعربة، وآلى العلماء على أنفسهم ألا يأخذوا اللغة من لسان عربي متحضر، فرحلوا إلى البادية حيث نقاء اللغة وصفاؤها، وكان عمرو بن العلاء يقول: «لا أقول قالت العرب إلا ما سمعت من عالية السافلة، وسافلة العالية» يقصد الجزء الغربي من نجد وما يترامى إليه من السفوح الشرقية لجبال الحجاز[1].

إذن فقد تعددت مصادر جمع اللغة العربية، وكان أهمها القرآن الكريم، فالشعر الجاهلي والإسلامي، ثم سماع الأعراب بالذهاب إليهم في باديتهم، أو عندما يفد هؤلاء الأعراب إلى البصرة والكوفة وبغداد ليتكسبوا من شعرهم.

وكان نتيجة هذا الجمع لألفاظ اللغة أن بدأت علوم اللغة العربية تتبلور، تلك العلوم التي سماها القدماء علوم النحو والصرف والبلاغة وعلوم الإملاء، والوضع والاشتقاق، وتاريخ اللغة، وفقه اللغة، ثم أخيراً عمل المعاجم وتحديد معاني الألفاظ.

ونبدأ بهذا الفن الأخير، وهو عمل المعاجم.

---

(١) تاريخ الأدب العربي ـ العصر العباسي الأول ـ د/شوقي ضيف ص ١١٩.

المعاجم العربية

تعتبر المعاجم من أهم المصادر اللغوية بالنسبة لعلماء اللغة انفسهم في بحوثهم اللغوية، وخاصة إذا ما كانت هذه البحوث متصلة بفقه اللغة أو بتاريخها، أو بالمترادفات، أو بالاشتقاق اللغوي، أو بالحقيقة والمجاز، أو بالأصيل والدخيل من الألفاظ، أو باللهجات العربية، أو بالقواعد النحوية التي تتباين بتباين استخدام القبائل للقواعد واستعمالهم للألفاظ.

كما أن المعاجم ـ من بين العلوم اللغوية ـ هي مقياس تقدم الأمة وتأخرها أو تحضرها وتخلفها، حيث مجموع ما تستخدمه الأمة من ألفاظ، هو مجموع ما تعرفه من ماديات ومعنويات. وهو دليل ما أفادته الأمة من معارف أمم أخرى.

ولقد مضى تدوين معاجم العربية في اتجاهين:

أولهما: تدوين ما كان يُسمع من أعراب البادية كيفما اتفق، وكذلك تحديد معناه كيفما اتفق. إذ قد يعجز الأعراب عن تحديد معاني الألفاظ بدقة، وذلك هو السبب الذي جعل كتب اللغة، أول العهد بالتدوين، خالية من ترتيب الألفاظ. انها الظروف التي اضطرتهم. والكتاب الذي يمثل هذه المرحلة خير تمثيل هو «النوادر في اللغة» لأبي زيد الأنصاري[1].

ثانياً: تدوين الألفاظ المتعلقة بموضوع واحد في مكان واحد، وعلى هذه الطريقة يأخذ اللغوي وحدة الموضوع أساساً للجمع، وذلك عمل اللغوي الذي استقر وعمل على ترتيب ما جمع من ألفاظ.

ترتيب ألفاظ المعاجم اللغوية العربية:

ينتقد الأستاذ محمد خلف الله أحمد نظام المعاجم اللغوية العربية من جهتين: **أولاهما** تتعلق بالمشقة التي يعانيها الباحث عندما يريد

(١) أبو زيد هذا هو سعيد بن أوس، من أشهر وأوثق أئمة اللغة والرواية في البصرة ـ ولد سنة ١١٩ هـ وتوفي سنة ٢١٥ هـ)، وكان سيبويه يعنيه حين كان يقول: حدثني الثقة. وقد طبع هذا الكتاب في المطبعة الكاثوليكية ببيروت.

الكشف عن معنى كلمة من الكلمات، وهذه تنشأ من البحث عن الأصل الثلاثي للكلمة.

وثانيتهما: تتعلق بالإهمال الشنيع الذي تلقاه بعض الكلمات من اللغويين، وخاصة تلك الكلمات التي اكتسبت معنى سياسياً أو اجتماعياً، وأصبحت لها قيمة خاصة.

ويستشهد على ذلك بقول الأستاذ ساطع الحصري في كتابه (آراء وأحاديث في اللغة والأدب): «إن الغرض من المعجم هو ترتيب الكلمات ترتيباً معقولاً، يضمن الوصول إلى إيجاد الكلمة المطلوبة بأعظم ما يمكن من السرعة والسهولة، ولا شك في أن هذه السرعة والسهولة لا تحصلان إلا بترتيب الكلمات بحسب حروفها الهجائية. ومن البديهي أن هذه ليست من الأمور التي تختلف بين لغة وأخرى بوجه من الوجوه...».

ويكمل الأستاذ محمد خلف الله قائلاً: «إن المعاجم تشذ عن هذه القاعدة العامة، شذوذاً غريباً. لأنها تصنف الكلمات تصنيفاً مفعماً بالالتواء والتعقيد، بحيث لا يستطيع أحد أن يجد كلمة من الكلمات إلا إذا عرف مقدماً مادتها الأصلية، وكيفية اشتقاقها من تلك المادة بصورة تفصيلية...»[1].

أول من جمع معجماً لغوياً في اللغة العربية:

ويكاد يتفق المؤرخون على أن الخليل بن أحمد الفراهيدي هو أول من جمع اللغة، أو حاول جمعها في معجم، ومعجمه الذي قيل إنه جمعه، هو «كتاب العين»، وقد رتب فيه الألفاظ بحسب مخارج الحروف، مع مراعاة أواخر الأصول لأوائلها. فمثلاً كلمة (نبع) في باب العين، وكلمة (علم) في باب الميم، وهكذا... ولم يستعمل الخليل ترتيب الكلمات بحسب ترتيب حروف الهجاء، بل رتبها بحسب

(١) دراسات في المكتبة العربية ـ ص ٥٠ ـ ٥١.

مخارجها من جهاز النطق، فبدأ بحروف الحلق فحروف اللسان، فحروف الأسنان، فحروف الشفتين. . . إلخ. واختتم كتابه بحروف العلة، كما أنه اتبع الطريقة نفسها في ترتيب مفردات كل باب على حدة، وقد بدأ كتابه بحرف العين لأنه من أقصى حروف الحلق وإن لم يكن أقصاها، وسمي كتابه باسم العين، وهو الحرف الحرف الأول الذي يبدأ به أبواب هذا الكتاب.

ومن طريقة الخليل أيضاً في كتاب العين، أنه لم يكن يكتفي بذكر الكلمات المنتهية بحرف معين بترتيبها الذي اختاره، بل كان يذكر أيضاً بعد كل مادة منتهية بهذا الحرف الكلمات التي تحدث عن تبديل موضع هذا الحرف في الأصل المذكور، فهو مثلاً إذا ذكر مادة (صرع) في باب العين، وشرحها انتقل بعدها إلى المواد الآتية: رصع، عصر - صعر إلخ. . . وهو ما اصطلح اللغويون العرب على تسميته بالاشتقاق الكبير.

والمعاجم اللغوية العربية نوعان: معاجم الألفاظ ومعاجم المعاني.

١ - معاجم الألفاظ: -

وهي التي تعيننا على معرفة معاني الكلمات أو الألفاظ التي نجهل معانيها، ونريد معرفتها بدقة، وتدلنا على معرفة أعلام الأشخاص والقبائل والأماكن وضبطها. وكثيراً ما تدلنا هذه المعاجم على شواهد كثيرة، وتعرض روايات متضاربة نتيجة تدقيق اللغويين في رواية النصوص الأدبية والنصوص القديمة منها على وجه الخصوص.

أما معاجم المعاني فإن فائدتها من نوع آخر، إذ هي تقدم الألفاظ المناسبة للمعاني التي تدوّر في خلدنا ونريد لها ألفاظاً دقيقة تعبر عنها وتستوعبها ولا تؤدي إلى لبس أو غرابة فيما نريد التعبير عنه، ولذلك فإن هذه المعاجم ذات نفع كبير لفئة الأدباء والشعراء، فهم يقدرونها حق قدرها، كذلك من يعملون في ميدان الترجمة والنقل من لغة أخرى إلى اللغة العربية، إذ يكون المترجم قد استوعب أفكار

النصوص التي قرأها في اللغة الأجنبية ولكن اللفظ العربي المناسب للفكرة لا يسعفه فيلجأ إلى مثل هذه المعاجم فيجد فيها بغيته، كذلك من يعمل في مجال البحث العلمي، والخطباء، إذ كثيراً ما يقف الباحث أو المترجم أو الخطيب أو الأديب أو الشاعر. حائراً لا يدري كيف يعبر عن معنى معين، أو عن أحد المعاني أو المدركات الحسية، ويشعر بالحاجة إلى لفظ يستعمله يكون مرادفاً للفظ آخر سبق له أن استعمله ولا يرغب في تكراره. فإن في معاجم المعاني ما يتطلبه كل هؤلاء من ألفاظ.

وقد اهتم اللغويون والأدباء العرب منذ بداية عهد التدوين، بالتصنيف في هذا الباب، فكانت لهم في البداية رسائل مختصرة، ثم وضعوا عدداً من المعاجم تختلف حجماً واستيعاباً.

وكانت المرحلة الأولى من تأليف هذا النوع من المعاجم، هي مرحلة تأليف رسائل صغيرة يختص كل منها بألفاظ معنى أو جنس من أجناس النبات أو الحيوان، مثل: كتاب المطر وكتاب اللبأ واللبن لأبي زيد الأنصاري. ومثل كتاب الخيل وكتاب الإبل وكتاب الشاء وكتاب النخل والكرم للأصمعي. وغير ذلك كثير.

أما المرحلة الثانية من مراحل تأليف هذا النوع من المعاجم فهي مرحلة تأليف كتب أوسع حجماً، وأشمل موضوعاً من الرسائل، إذ يجمع كل كتاب عدداً كبيراً من الأبواب والمعاني.

ولعل ابن السِّكيت[1] هو أول من كتب في هذا النوع من الكتب، وله كتابه المعروف باسم «كتاب الألفاظ» وهو أقدم كتاب وصل إلينا في هذا اللون من الكتابة[2].

---

(١) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، المعروف بابن السكيت، وهو لغوي مشهور، مات في بغداد سنة ٢٤٤ هـ في خلافة المتوكل. وله غير كتاب الألفاظ، كتاب «إصلاح المنطق» وكتاب «الأضداد».

(٢) لهذا الكتاب طبعة مزودة بالفهارس والشروح، في المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٨٩٥ بعنوان «كنز الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ».

من أشهر معاجم الألفاظ: -

١ - أساس البلاغة:

وصاحبه هو أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ولد في زمخشر سنة ٤٦٧ هـ، ومات في جرجانية سنة ٥٣٨ هـ. وهو إمام في الدين والتفسير واللغة. وتم طبع هذا الكتاب في مطبعة دار الكتب المصرية في جزءين كبيرين.

ومنهج الزمخشري في هذا الكتاب هو:

أ - أن الزمخشري كان يكتفي بذكر الأكثر فصاحة من اللغات.

ب - أن الزمخشري كان يبدأ بذكر المعنى الحقيقي أولاً، ثم يثنى بذكر المعاني المجازية أو ما تعارف عليه القوم منها، وبذلك لا يخلط بين المعاني، وفي الوقت نفسه يدلنا على تطور معاني الألفاظ، وبالتالي تطور اللغة.

جـ - لا يقدم الزمخشري لمعاني الألفاظ شروحاً من عنده إلا فيما ندر، وإنما هو يورد اللفظ في عبارات أدبية صدرت عن الأقدمين. وبهذه الطريقة يقدم لنا فائدة كبيرة، إذ يعلمنا معنى اللفظ، وطريقة استعماله في أكثر من موضع.

د - كان تأليف الزمخشري لكتابه من أجل غرض بلاغي، وهو توضيح المعاني المجازية للألفاظ، وتمييزها عن المعاني الحقيقية، لذلك فإنه لم يذكر إلا الألفاظ التي لها استعمالات مجازية، أما الألفاظ التي لا يتناولها المجاز، فإنه لم يكن يذكرها دائماً. ولذا كان لا بد لمن يرجع إليه أن

يستعين بمعجم آخر إلى جانبه.

أما طريقة الكشف في هذا الكتاب فهي تجريد اللفظ من الزوائد ورده إلى أصله، ثم الكشف عن هذا الأصل على أساس الترتيب الأبجدي مع مراعاة أول اللفظ، وهذه أيسر طرق البحث التي تستخدم في المعاجم.

٢ ـ لسان العرب:

ومؤلفه ابن منظور المصري، وهو أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الإفريقي المصري. كان مولده سنة ٦٣٠ هـ. وتوفي بالقاهرة سنة ٧١١ هـ.

ويتميز ابن منظور بسعة اطلاعه وغزارة قراءته للكتب التي أفرزتها قرائح العلماء قبله في التراث العربي منذ بدأ التأليف فاستوعب ولخص وغاص في أعماق المصادر القديمة، فانعكست هذه المعارف في معجمه الضخم الواسع الذي سماه لسان العرب. فجاء هذا المعجم أغنى معجم في المكتبة العربية، وبذلك يكون هذا المعجم موسوعة أدبية ولغوية أكثر منه مجرد معجم لبيان معاني الألفاظ، ذلك لما يحتويه هذا المعجم من مادة وفيرة، وبحوث لغوية واستطرادات أدبية. ومما يميزه أيضاً كثرة التفصيل، وإيراد الوجوه المختلفة، واللغات والروايات المتعددة، كما أنه يتميز بذكر المصادر التي يستمد منها مادته، والإكثار من ذكر الشواهد الشعرية والنثرية التي يحتج بها. ومن هنا يصبح هذا المعجم مصدراً صالحاً لدراسة اللهجات، ودراسة فقه اللغة، ودراسة الخلافات الصرفية والنحوية.

أما طريقة الكشف فيه فهي البحث عن أصل الكلمة مجردة، ثم الكشف عنها في باب الحرف الأخير، وفصل الحرف الأول. وهي الطريقة التي اتبعها قبله الجوهري في معجمه «الصحاح».

٣ ـ القاموس المحيط:

ومؤلفه هو مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن

عمر الشيرازي الفيروز آبادي، وهو من رجال القرن الثامن الهجري، ولد سنة ٧٢٩ هـ بإقليم فارس في إيران، ورحل كثيراً طالباً العلم والمعرفة، فزار بغداد والقاهرة ودمشق، وبلاد الهند وبلاد الروم، ثم تولى القضاء في اليمن، وظل بها حتى مات سنة ٨١٧ هـ.

وبلغت شهرة «القاموس المحيط» درجة عالية جعلت الناس يطلقون اسمه (القاموس) على أي معجم عربي، فيقولون (القاموس) بدلاً من المعجم.

ولقد طبع القاموس المحيط أكثر من مرة، وتجيء طبعته في أربعة أجزاء.

ويشتمل القاموس المحيط على مادة غزيرة جداً، فقد أوفى على مادة لسان العرب، فجمع بين دفتيه في أجزائه الأربعة كل مفردات اللغة التي احتواها لسان العرب، وربما زاد عليها، ومن هنا تأتي صعوبة البحث فيه للمبتدئين خاصة، ذلك أن صاحبه يكتفي ببيان معاني الألفاظ مجردة عن الشواهد والروايات، كما أنه يكثر من استعمال الرموز أثناء الشرح بدلاً من بعض الكلمات التي يكثر تكرارها. فاستعمل مثلاً الحرف (م) بدلاً من كلمة معروف، والحرف (ع) بدلاً من كلمة موضع، والحرف (ج) بدلاً من كلمة جَمْع، و(جج) بدلاً من كلمة جمع الجمع، والحرف (هـ) بدلاً من كلمة قرية وحرف (د) بدلاً من كلمة بلد.

ومن خصائص هذا المعجم التي يراها الباحث فيه مذكورة في المقدمة: أنه لا يضبط عين المضارع المفتوحة، ويكتفي بضبطها في حالتْي الضم والكسر. كذلك من خصائصه أنه يقدم المشهور الفصيح أولاً، ثم يتبعه باللغات الأخرى. كما أنه يقدم المقيس على غيره غالباً في المصادر وفي الجموع.

والمعجم بوجه عام مكثف المادة، ولعل هذا التكثيف إلى جانب لغته الرمزية الاصطلاحية، من الأسباب التي دفعت بعض اللغويين إلى

شرحه ونقده، فألف الزبيدي[1] شرحاً لهذا المعجم وسماه (تاج العروس) وزوده بشواهد كثيرة، فجاء في عشرة أجزاء. ثم ألف الشيخ أحمد فارس الشدياق[2] كتابه (الجاسوس على القاموس). وطريقه الكشف في القاموس هي طريقة الكشف في لسان العرب.

ومن معاجم الألفاظ:

١ — ابن الانباري ، ابو بكر محمد بن القاسم . ت٣٢٧هـ . **كتاب الاضداد** تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم . الكويت ، وزارة الثقافة .

من اشهر كتب الاضداد واقدمها ، يورد الكلمة ويعطي معناها ثم يورد معنى آخر لنفس الكلمة يكون ضدها ويشرح معناه ويستعين بشواهد من القرآن الكريم والشعر العربي .

٢ — ابن دريد ، ابو بكر محمد بن الحسين . ت ٣٢١هـ . **كتاب الجمهرة في اللغة** . تحقيق كرنكو . حيدر آباد الدكن ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥١هـ. ٤ج .

من اشهر المعاجم المبكرة بعد معجم الخليل . رتب مواده حسب حروف الألفباء بصرف النظر عن الاشتقاق . اعادت طبعه بالاوفست دار صادر في بيروت . ويشتمل الجزء الرابع على عدد من الفهارس الجيدة .

٣ — ابن سيده ، ابو الحسن علي بن اسماعيل . ت ٤٥٨هـ . **المحكم** ... تحقيق مصطفى السقا وحسين نصار . القاهرة ، جامعة الدول العربية . ٣ج .

يسير ابن سيده في معجمه هذا على نسق الخليل مع تغيير طفيف . وقد بدأت الجامعة العربية بنشره منذ سنة ١٩٦١م . وقد صدر منه حتى الآن ثلاثة اجزاء .

٤ — ابن فارس ، ابو الحسين احمد . ت ٣٩٥هـ . **مقاييس اللغة** . تحقيق عبد السلام محمد هارون . القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٣٦٦هـ .

من المعاجم المهمة في هذا الباب يتبع ترتيب ابن دريد في معجمه مع اختلافات كثيرة . التحقيق جيد .

---

(١) من رجال اللغة في القرن الثاني عشر الهجري.
(٢) من رجال القرن الثالث عشر الهجري.

من أشهر معاجم المعاني:

١ ـ كتاب الألفاظ:

ومؤلفه هو أبو يوسف بن إسحاق المعروف بابن السِّكيت، وهو من رجال القرن الثالث الهجري، عالم لغوي مشهور، توفي في بغداد سنة ٢٤٤ هـ في خلافة المتوكل.

وكتاب الألفاظ يعتبر من أوائل الكتب التي ألفت في هذا الغرض، وقد طبع طبعة مزودة بالفهارس والشروح القيمة، في المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٨٩٥ م بعنوان (كنز الحُفّاظ في كتاب تهذيب الألفاظ).

ومنهج ابن السكيت في كتابه هذا هو أنه جعله في أكثر من مائة وخمسين باباً، تناول في كل باب منها معنى من المعاني، ذاكراً الألفاظ التي تستعمل في التعبير عن جميع أحوال هذا المعنى ودرجاته. وقد حاول المؤلف أن يتناول في أبواب كتابه هذا أهم أغراض الكلام ماديةً ومعنويةً. فمن أبوابه أبواب الكلام الدالة على الطول والقِصَر، والحُسْن والدِّمامة، والهزال وغير ذلك من الصفات الجسمية، كما أن هناك أبواباً للشح والغضب والكبر والذكاء والشجاعة والجبن والعقل والحمق والشَّرَه والكذب والطبع وما شابهها من الصفات الخلقية. وفيه أبواب تتصل بالجوع والعطش والنوم والمرض والسَّفر والاجتماع والتفرق والزواج وما إلى ذلك من أفعال وأحوال إنسانية. وهناك أبواب كثيرة تتصل بمظاهر الطبيعة كالليل والنهار والشمس والقمر والمياه والأزمنة والبرد والحر. وأبواب أخرى تتصل بحوائج الإنسان ومظاهره من ثياب وحُلى وسلاح وطعام وشراب وآنية... إلخ.

غير أن تصنيف أبواب الكتاب كان يفتقر إلى المنطقية، إذ جعل ابن السكيت أبواب كتابه تتتابع دون ترتيب أو فكرة موجهة، لكنه على أي حال يعتبر رائد هذا النوع من التأليف المعجمي. ولنستدل على طريقته نمثل ببعض النماذج منه:

قال ابن السكيت في (باب الغضب والحدة والعداوة)، وهو الباب العاشر من الكتاب:

«الأصمعي: يقال: لقد ضَمِدَ عليه يضمد ضَمَداً إذا غضب». قال النابغة الذبياني:

ومَنْ عصاك فَعَاقِبْهُ معاقبةً   تنهي الظلوم ولا تعقد على ضَمَدِ

قال: وقد حَرِدَ حَرَداً، وحَرِبَ حَرَباً إذا هاج وغضب.
وحَرَّبْتُه فحرب، وحَرَّشْتُه وهَيَّجته. قال الهذلي:

كأن محَرَّباً من أُسْدِ تَرْجٍ   ينازلهم، لِنَابَيْه قَبيبُ

قال: ويقال: أَغَدَّ عليه إغدادًا ـ وأصله من غَدَّة البعير ـ وهو مُغِدٌّ ومُسْمَغِدٌّ إذا انتفخ من الغضب. ووَرِمَ وضَرِمَ ضَرَماً واحْتَدَمَ عليه إذا تحرَّق عليه. وأصله من احتدام الحَرِّ. ويقال: إنه لَيُنْفِطُ غضباً، ويقال: قد ازْمَاكَّ، واصْماكَّ أي غَضِبَ. وقد اضفأدَّ اضْفِئداداً إذا انتفخ من الغضب. ويقال: هو يَتَغَرُّ عليه، إذا غلى عليه من الغضب. ويقال: قد تَنَغَّرَ. وإنما أُخِذَ من نَغَران القِدْر وهو غَلْيُها. ويقال: قد شَرِيَ، وهو أن يتمادى ويتتابع في غضبه. ويقال: شَرِيَ البرقُ، وهو يَشْرِي إذا كثر لمعانه. قال طرفة:

يا مَنْ يَرَى البرق يشرى في مُلَمَّعَةٍ   كالنار أُذْكى لها المستوقدُ السَّعَفا

وهكذا يسير إلى آخر الباب.

وفي الباب الثاني من المعجم وهو باب الفقر والجدب، يقول ابن السكيت: «قال يونُس: الفقير يكون له بعض ما يقُيمه، والمسكين الذي لا شيء له. قال الراعي:

أمَّـا الفقير الـذي كانت حَلُوبَتُـه   وَفْقَ العيـالِ فلم يُتْرَكْ لـه سَبَـدُ

قال: وقلت لأعرابيّ: أفقير أنت أم مسكين؟ فقال: لا والله بل مسكين، قال أبو زيد: ومنهم المُقْتِرُ وهو المُحْوِج والمُقِلُّ، وهو الإقتار والإقلال والإحْواج، وهو شيء واحد، وهو من الفقر، وفيهن بقية من نشب لا يغمره ولا يغمر عياله. ويقال للمقتر: إن به لخصاصة. والمخِلّ مثل المقتر. يقال: أخَلَّ يُخِلُّ إخلالاً، والاسم الخلة. والمعوز قريب من المخل، وهو أسوأهما حالاً، يقال: أعْوَزَ يُعْوِزُ إعوازاً، والاسم من الْعَوَز. ويقال في الفاقة: إنه لَمُفْتَاق، وإنه لذو فاقة. وفي الحاجة: إنه لمحتاج، وإنه لذو حاجة وإنه لمسكين، (وليس فيها فعل. وحكى الفرَّاء: هـو يتمسكن لربِّـه). ومنهم المُعْـدِمْ، يقـال: أعْـدَمَ يُعْـدِمُ إعـداماً، الاسـمُ العُدْمُ. ومنهم الصعلوك وهو الذي ليس له شيء. (وليس فيها فعل. وحكي غيره: تصعلك). ويقال: إن به لفاقةً، وإنه لذو فاقة، وإن به لخصاصة، وإنه لذو خصاصة. ومنهم السُّبروت، وهو مثل الصعلوك، وامرأة سبروتة. . .

أبو زيد: ومنهم الفقير المدقع وهو الذي لا يتكرم عن شيء أخذه وإنْ قلَّ. وأدْقَعَ فلان إلى فلان في الشتيمة، وفي أي فعل ما كان. وأدْقع له. قال الأصمعي: المدقع الذي لصق بالدقعاء، وهي التراب. أبو زيد: ومنهم القانع وهو الذي يتعرض لما في أيدي الناس. يقال: قد قَنَع فلان إلى فلان قنوعاً، وهو ذم، وهو الطمع حيث كان.

الأصمعي: القانع السائل والقنوع المسألة. قال الشَّمَّاخ:

لَمَـالُ المـرء يُصْلحـه فيُغنى   مَفَـاقِـره أعفّ من القَـنُـوع

وهكذا يمضي ابن السكيت إلى آخر الباب.

ونستشف من النماذج التي أورناها من كتاب ابن السكيت أنه يحاول في كل باب أن يستقصي جميع الألفاظ المستعملة في هذا المعنى، وهو في استقصائه هذا لا يأتي على الألفاظ المتداولة وحسب، بل يذكر كثيراً من الألفاظ الغريبة المهجورة.

كما أن المؤلف يذكر مصادره التي استقى منها معلوماته، وهي في ذلك مثل ابن منظور، فتراه مثلاً يذكر الأصمعي وأبا زيد ويونس بن حبيب وغيرهم.

ومما يُحمد له أيضاً انتقاؤه النصوص الجيدة الموثوق بها عندما يسوقها شاهداً من شواهد كتابه.

٢ ـ الألفاظ الكتابية: ـ

ومؤلفه هو الأديب اللغوي عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني المتوفى سنة ٣٢٠ هـ. والكتاب يمثل المرحلة الثانية من مراحل تأليف معاجم المعاني. وقد حذا فيه الهمذاني حذو ابن السكيت من حيث تقسيم كتابه إلى أبواب عديدة كل منها يتناول معنى من المعاني، فاستوعب في الغالب كل الموضوعات التي تناولها ابن السكيت.

غير أن الهمذاني لم تكن المفردات همه الأول كما كان الحال عند ابن السكيت، بل وجه الهمذاني همته نحو العبارات والتراكيب. ويبدو أن المؤلف كان يرمي إلى خدمة الناشئين من الكتاب فيزودهم بما يلزمهم في صناعتهم من العبارات الجميلة والإزدواجات البارعة مما ورد على أقلام مشاهير الكُتّاب. ويبدو أنه اختار عنوان الكتاب من هذا المنطلق التعليمي فسماه (الألفاظ الكتابية). يتضح ذلك فيما قاله المؤلف في مقدمة كتابه:

«الكتابة من أعلى الصناعات وأكرمها، وأسمقها بأصحابها إلى معالي الأمور وشرائف الرتب، فهم بين سيّد ومدبِّر سيادة، وملكٍ وسائس دولة ومملكة. وبلغت بقومٍ منهم منزلة الخلافة، وأعطتهم أزِمَّة المُلْك. والمتصرفون فيها في الحظّ منها بين متعلق بالسِّماك مضاءً ونفاذاً، وبين منكّس في الحضيض نقصاً وتخلفاً. . . ووجدت من المتأخرين في الآلة قوماً أخطأهم الاتساع في الكلام، فهم متعلقون في مخاطباتهم وكتبهم باللفظة الغريبة والحرف الشاذ ليتميزوا بذلك من العامة، ويرتفعوا عند الأغبياء عن طبقة الحشو. والخرس والبكم أحسن من النطق في

هذا المذهب الذي تذهب إليه هذه الطائفة في الخطاب... فجمعت في كتابي هذا لجميع الطبقات أجناساً من ألفاظ كُتَّاب الرسائل والدواوين البعيدة من الاشتباه والالتباس، السليمة من التقعير، المحمولة على الاستعارة والتلويح، على مذاهب الكُتَّاب وأهل الخطابة، دون مذاهب المتشدقين والمتفاصحين من المتأدبين والمؤدِّبين المتكلفين، البعيدة المرام على قربها من الأفهام، في كل فن من فنون المخاطبات، ملتقطة من كتب الرسائل وأفواه الرجال وعَرَصَات الدواوين ومحافل الرؤساء، ومتخيرة من بطون الدفاتر ومصنفات العلماء، فليست لفظة منها إلا وهي تنوب عن أختها في موضعها من المكاتبة، أو تقوم مقامها في المحاورة، إما بمشاكلة أو بمجانسة أو بمحاورة، فإذا عرفها العارف بها وبأماكنها التي توضع فيها كانت له مادة قوية وعوناً وظهيراً... إلخ.

ومما يدل على أن الكتاب بلغ ما كان يسعى إليه مؤلفه، أن الكُتَّاب الناشئين وجدوا فيه رغيبتهم فتلقفوه يغترفون مما فيه عوناً لهم في صناعتهم، ولذا فإن الصاحب بن عَبَّاد كاتب البويهيين ووزيرهم قال: «لو أدركت عبد الرحمن بن عيسى مصنف كتاب الألفاظ لأمرت بقطع يده» فلما سُئل عن السبب قال: «جمع شذور العربية الجزلة في أوراق يسيرة فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب، ورفع عن المتأدبين تعب الدرس والحفظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمة».

نموذج من الكتاب:

يقول الهمذاني في الباب الأول من كتابه بمعنى (أصلَحَ الفاسدَ): «تقول: لَمَّ فلان الشَّعَث، وضَمَّ النَّشْر، ورمَّ الرَّثَّ، وسَدَّ الثغر، ورَفَع الخرق، ورتق الفتق، وأصلح الفاسد، وأصلح الخَلَلَ، وجَمَعَ الشتات، وجَبَر الهون والوهى جميعاً. (يقال: جبرتُ الكسر جبراً، وأجبرت فلاناً على الأمر إجباراً) ويقال: أسا الكلم (مقصور) يأسوه أسواً، وأسى على مصيبته أي حزن يأسى أسىً... ويقال: شَعَب الصَّدْعَ، ورأب الصدع،» ورأب الثأى رأباً (أخذ من الرؤبة، وهي قطعة من خشب تدخل في

الجفنة إذا انكسرت تُصلح بها، قال كعب بن مالك الأنصاري:

طعنّا طعنة حمراءَ فيهم حرامٌ رأبُها حتى الممات

ويقال شعبتُ الأمر إذا أصلحته وشعَبته إذا أفسدته أيضاً، وهذا من الأضداد، والشُّعوبُ المنيَّة لأنها تَشْعَب أي تفرِّق. وفي المثل: إن دواء الشِّق أن تحوصه، أي تخيطه، وسدَّ الثلمة، وأقام الأوَد، وسدَّ الفُرج والخلل، وأقام الصعر، وَلأَمَ الصدع. والوصم والخلل والفساد والفتق واحد، ويقال: أخاف وقوع الوصم في هذا الأمر. وقوَّمَ الميْل وثقَّف الأوَد والعِوَج، وداوي السقم، وداوي الأدواء وحسم الداء وسَوَّى الزيغ. والميَل فيما كان خلقةً فيقال: في عنقه مَيَل. والميْل فعلك، وميلك إلى الشيء. وإذا زدت في اللفظ قلت: رأب متباين الصدع وضمَّ متفرق النَّشْر... إلخ.

من خلال هذا النموذج من كتاب الهمذاني نتبين أنه يتخير العبارات التي وردت على ألسن الكُتّاب واعتادوا استعمالها، ويأتي بها مترادفة في كل باب من أبواب كتابه، ولا يأبه كثيراً بالمفردات. كما أنه حريص على تجنب المهجور من الألفاظ والغريب من التعبير، وهو في ذلك يتميز عن ابن السكيت.

وقد طُبع كتاب الهمذاني (الألفاظ الكتابية) عدة طبعات، تميزت من بينها طبعة بيروت سنة ١٨٨٥ م بعناية لويس شيخو، وزودت بمفتاح للكتاب مرتب على حروف المعجم في نحو أربعين صفحة يُستدل بها على مواطن العبارات والألفاظ.

٣ ـ جواهر الألفاظ: ـ

ومؤلفه قدامة بن جعفر وهو أبو الفرج قدامة بن جعفر البغدادي، كان كاتباً وناقداً وأديباً مشهوراً، وكان نصرانياً وأسلم على يد المكتفى بالله العباسي، وتوفي بعد سنة ٣٢٠ هـ. وله غير هذا الكتاب من الكتب المطبوعة كتاب (الخراج) وكتاب (نقد الشعر). أما كتابه (جواهر الألفاظ) فقد طبع في مصر بتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد سنة ١٩٣٢ م.

وقد جاء كتاب قدامة (جواهر الألفاظ) تالياً لكتاب الهمذاني الألفاظ الكتابية) ولكن قدامة كان يرى أن كتاب عبد الرحمن الهمذاني على غناه بالتراكيب الرائعة إلا أنه لا يطفىء ظمأ الكاتب البديعي الولوع بالإزدواج والسجع قبل كل شيء، وقد أحس قدامة بهذا النقص في كتاب الهمذاني وأشار إليه في مقدمة كتابه بصراحة في قوله:

«هذا كتاب يشتمل على ألفاظ مختلفة تدل على معان متفقة مؤتلفة وأبواب موضونة، بحروف مسجعة مكنونة، متقاربة الأوزان والمباني، متناسبة الوجوه والمعاني، تونق أبصار الناظرين، وتروق بصائر المتوسمين، وتتسع بهذا مذاهب الخِطاب، وتنفسخ معها بلاغة الكتاب، لأن مؤلف الكلام البليغ الفصيح، واللفظ المسجّع الصحيح، كناظم الجوهر المرصّع، ومركّب العقد الموشّع: يعد أكثر أصنافه، ليسهل عليه اتقان رصفه وائتلافه، وقد ألف للألفاظ غير كتاب، فقيل: أصلح الفاسد، وضم النشر، وسدّ الثلم، وأسا الكلم[1]. فوزن (أصلح

(١) يشير بهذا الكلام إلى كتاب (الألفاظ الكتابية) للهمذاني.

الفاسد) مخالف لوزن (ضم النشر) وكذلك (سدّ) و (أسا). ولو قيل: أصلح الفاسد وألّفَ الشارد وسدَّد العاند، وأصلح ما فسد وقوَّم الأود. أو قيل: صلح فاسده ورجع شارده، لكان في استقامة الوزن واتساق السجع عِوَضٌ من تبايُن اللفظ».

فمن المثال السابق يتبين لنا أن قدامة بن جعفر تختلف اهتماماته إلى حد ما عن اهتمامات الهمذاني، فقدامة مغرم بالبديع يحلى به عباراته، ويتضح ذلك بصورة جلية في كتابه (نقد الشعر) الذي ضمنه كثيراً من المحسنات اللفظية والمعنوية، وهي موضوع علم البديع الذي بدأه ابن المعتز وكان قدامة من أشهر الذين أكملوا ما بدأه ابن المعتز، ولأن البديع بعد ذلك سيطر على الكتاب والشعراء وفتنهم، فإن كتاب قدامة تلقفته أيدي كتّاب القرن الرابع ومن تلاهم، ووجدوا فيه ما يبتغونه لفنهم المتكلف. القائم على الازدواج في التعبير.

ولنأخذ مثالاً من كتاب قدامة يوضح منحاه البديعي، ولنرى الفرق بينه وبين كتاب الهمذاني.

يقول قدامة في الباب الأول من كتابه بمعنى (أَصْلَحَ الفاسِدَ):

«يقال: أصلح الفاسد، وحصد المعاند، وأقام المائد، وقوَّم الحائد، ورَدَّ الشارد. ولمَّ الشَّعَث، وكفَّ الحدَث، ورَمَّ ما شَذَّ وانتكس. وضمَّ النَّشْر، وجانَبَ الشَّرَّ والأشْر. ورَمَّ الرَّث، ووَصَل ما قُطِع واجتث، وجَمَعَ الشتات. وهَجَر الظلم والإعنات. وأعاد المنهدِم، وداوي السَّقِم، وأسا الكلم. ورَتَقَ الفَتْق، ورَقَعَ الوَهى والخَرق. وشَعَبَ الصدع، ورَأَبَ القَطع. ورأبَ الثأيَ، ورتق الوهيَ. وحاصَ الشَّقَّ، وألحَمَ الفتق، وسدَّ الثلمة، وكشَفَ الغُمَّة. وسدَّ الفُرَجَ، وسكَّن الرّهج، وأقام الأوَد، وطمَسَ الكُفْر والعَنَد. وسدَّ الخلل، ورَدَّ الخجل، وثَقَّفَ الخَطَل، وعَدَل الميَل، ونَقّى الوَجَل. وأقام الصَّعَر والصّور، وثَقَّف الزيغ والزور... إلخ.

فبهذا الإزدواج والسجع ابتعد قدامة في كتابه عن الفكرة

المعجمية، إذ لا مكان عنده للشرح والتفسير وبيان المعنى، ولكن هذا الكتاب كان ذا قيمة كبيرة عند كتاب القرن الرابع ومن جاء بعدهم لشغفهم بالبديع والمحسنات اللفظية والمعنوية.

ويظل بذلك كتاب ابن السكيت أقرب إلى المعجمية من كتاب قدامة وكتاب الهمذاني، رغم أنه أسبقهما في التأليف.

٤ ـ فقه اللغة للثعالبي: -

والثعـالبي مؤلف هذا الكتـاب هـو أبـو منصـور عبـد الملك بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، كان مـولده في منتصف القـرن الرابـع الهجري، ووفاته في ٤٢٩ هـ.

ولقب بالثعالبي لأنه كان في أول أمره فَرَّاءً في مـدينته نيسـابور يخيط جلود الثعالب، ومن ثم فقد نُسب إلى مهنته نسبته إلى بلدته. ثم ما لبث الثعالبي أن فتح له العلم أبوابه، فعكف على القراءة والمتابعة، والتحصيل الواعي، حتى أصبح عالماً متنوع المواهب غزير الإنتاج فألف العديد من الكتب النفيسـة الفريـدة في موضوعاتهـا وعناوينهـا، فحاز إعجاب العامة والخاصة، وترسم خطاه العلماء، يقول عنه ابن بسام: «كان في وقته راعي تلعات العلم، وجامع أشتات النثر والنظم، رأس المؤلفين في زمانه، وإمام المصنفين بحكم قرانه، سار ذكره سير المثل، وضُربت إليه آباط الإبل، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب طلوع النجم في الغياهب، تواليفه أشهر مواضع، وأبهر مطالع، وأكثر راوٍ لها وجـامع، من أن يستـوفيها حـد أو وصف، أو يوفيهـا حقوقهـا نظم أو رصف»[1].

ومن أشهر كتب الثعالبي (يتيمـة الدهـر) الذي أرَّخ فيـه لشعراء عصره، وجمع فيه نخبة صالحة من أشعارهم. ومن كتبه المطبوعة أيضاً (خاص الخاص)، و(ثمار القلوب في المضاف والمنسوب) و(سحر البلاغة وسر البراعة) و(من غاب منـه المطرب) و(لـطائف المعارف)

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٧٨/٣.

و (نثر النظم وحل العقد) و (سر الأدب) و (المؤنس الوحيد) و (أحسن ما سمعت). . . إلخ.

ومن كتبه في فقه اللغة غير كتابنا هذا (الإعجاز والإيجاز) و (الكتابة والتعريض) ويسمى أيضاً (النهاية في الكتابة) و (الأمثال) ويسمى (الفرائد والقلائد) وله كتب في التاريخ أهمها (غرر السِّيَر). . . هذا خلاف كتبه غير المطبوعة.

واستطاع الثعالبي في كتابه (فقه اللغة) أن يجمع بين صفتي الشمول والترتيب، وهما الصفتان الملازمتان لفكرة المعجم.

وقد استمد الثعالبي مادة كتابه من من كتب علماء اللغة وأئمتها مثل الخليل، والأصمعي، وأبي عبيدة، وأبي زيد، وأبي عمرو الشيباني، والكسائي والفَرَّاء، وابن الأعرابي والنضر بن شميل، وابن دريد، وابن خاوليه، والأزهري، وغيرهم. فكان كتابه جامعاً وافياً.

وقد اتبع الثعالبي في (فقه اللغة) منهج التبويب والترتيب، فقد قسمه إلى ثلاثين باباً كبيراً، كل باب منها يحتوي على معنى من المعاني الأساسية، ينقسم كل باب بعد ذلك إلى عدد من الفصول الصغيرة يجمع كل منها الألفاظ المستخدمة في التعبير عن فرع من فروع المعنى الأصلي الذي دار عليه الباب كله.

فمثلاً الباب العشرون من الكتاب موضوعه الأصوات وحكاياتها. وينقسم هذا الباب إلى ثلاثة وعشرين فصلاً، يضم كل منها الألفاظ المستعملة في التعبير عن نوع معين من الأصوات، فصل ثلاث في الأصوات الخفية، وفصل في الأصوات الشديدة، وفصل في أصوات النائم، وفصل في أصوات الخيل، وفصل في أصوات السباع، والوحوش، والطيور، والحشرات، والماء، والنار. . . إلخ.

والباب الرابع والعشرون مثلاً يأتي موضوعه باسم (أعمار الناس والدواب) وينقسم هذا الباب بدوره إلى سبعة عشر فصلاً يتناول كل منها شعبة من شُعَب الموضوع الأساسي، فنجد فيه فصلاً عن (ترتيب سن

الغلام) وآخر في (ظهور الشيب) ونالت في الشيخوخة والكِبَر، وفصل في ترتيب سن المرأة، وفصل أسماء صغار مختلف الحيوانات، وفصل مثلاً في ترتيب سن كل من البعير والفرس والبقرة الوحشية، والشاة والعنز والظبي. فهذا الترتيب لا بد أن يسهل مهمة الرجوع إليه والإفادة منه.

ويلتقي كتاب (فقه اللغة) مع كتاب ابن السكيت (الألفاظ) في الاهتمام بإيراد الألفاظ المفردة، ويختلف عنه وعن كتاب الهمذاني وكتاب قدامة، في أن (فقه اللغة) مرتب، شديد الاهتمام بتحديد مدلولات الألفاظ وبيان ما بينها من فروق. يقول مثلاً في الفصل الثالث عشر من الباب الخامس عشر في تفصيل كيفية النظر وهيئاته في اختلاف أحواله:

«إذا نظر الإنسان إلى الشيء بمجامع عينه قيل: رَمَقَهُ. فإن نظر إليه من جانب أذنه قيل: لَحَظَهُ. فإن نظر إليه بعجلة قيل: لَمَحَهُ. فإن رماه ببصره مع حدة نظر قيل: حَدَجَهُ بطرفه، (وفي حديث ابن مسعود: حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم). فإن نظر إليه بشدة وحِدَّة قيل: ارشقه وأسف النظر إليه. فإن نظر إليه نظر المتعجب منه والكاره له والمبغض إياه قيل: شفنه وشَفَنَ إليه شفونا وشَفَناً. فإن أعاره لحظ العداوة قيل: نظر إليه شَذْراً. فإن نظر إليه بعين المحبة قيل: نظر إليه نظرة ذي علق. فإن نظر إليه نظر المستثبت قيل: تَوَضَّحَهُ. فإن نظر واضعاً يده على حاجبه مستظلاً بها من الشمس ليستبين المنظور إليه قيل: استكفه، واستوضحه واستشرفه. . . إلخ.

وقد طبع كتاب (فقه اللغة) عدة طبعات في مصر وبيروت.

٥ ـ المخصص لابن سيده:

وابن سيدة مؤلف (المخصص) هو أبو الحسن علي بن أحمد بن سيده الأندلسي الإشبيلي، ولد في مرسية بالأندلس ضريراً، وكان أبوه ضريراً، عاش قرابة الستين عاماً وتوفي سنة ٤٥٨ هـ. وهو عالم لغوي مشهور بسعة الحفظ وجودته، واهتم بدراسة الفلسفة والمنطق والنحو والتاريخ.

وكتاب (المخصص) يعتبر خزانة لكل ما تم تأليفه قبله من رسائل ومعاجم، لذلك فهو أضخم معجم في المعاني حوته المكتبة العربية. فقد نثر صاحبه بين دفتيه كتاب (المصنف في غريب الحديث) لأبي عبيد، وجميع كتب ابن السكيت، وكتابَيْ ثعلب (الفصيح) و(النوادر) وكتابَيْ أبي حنيفة في الأنواء والنبات. وغير ذلك من كتب الفرَّاء، والأصمعي، وأبي زيد، وأبي حاتم، والمبرد، وكراع، والنضر، وابن الأعرابي، واللحياني، وابن قتيبة، وأما في الكتب المجنَّسة فالجمهرة لابن دريد، والعين للخليل بن أحمد... إلخ.

وطريقة ابن سيده في (المخصص) شبيهة بطريقة الثعالبي في (فقه اللغة) قبله في أنه قسم الكتاب أبواباً بعدد ما يحتمل المعنى الأصلي من فروع، غير أن ابن سيده في مخصصه أكثر إحكاماً ممن سبقه.

فابن سيده قسم كتابه إلى أبواب: مسهبة بدأها بالإنسان ثم الغرائز، ثم النساء، وتناول ما يخص الإنسان من اللباس والطعام، وما يعتريه من الأمراض، وما يحتاج إليه من: المنازل والسلاح والخيل والإبل والغنم، وما حول الإنسان من طبيعة كالوحوش، والحشرات

والطير والأنواء والسماء والدهور والأزمنة، والأهوية والرياح والماء والنخيل والنبات والمعادن. . . إلخ.

وقد بين ابن سيده منهجه في تأليف كتابه حين قال في المقدمة:

«فأما فضائل هذا الكتاب من قِبَلِ كيفية وضعه، فمنها تقديم الأعم فالأعم على الأخص فالأخص، والإتيان بالكليات قبل الجزئيات، والابتداء بالجواهر والتقفية بالأعراض على ما يستحقه من التقديم والتأخير، وتقديمنا كم على كيف. وشدة المحافظة على التقييد والتحليل. مثال ذلك ما وصفته في صدر هذا الكتاب حين شرعت في القول على خلق الإنسان، فبدأت بتنقله وتكوُّنه شيئاً فشيئاً، ثم أردفت بكلية جوهره، ثم بطوائفه وهي الجواهر التي تأتلف منها كليته، ثم ما يلحقه من العِظَم والصِّغر، ثم الكيفيات، كالألوان، إلى ما يتبعها من الأعراض، والخصال الحميدة والذميمة. . . إلخ».

كما أن ابن سيده يذكر مصادره في عرض مادة فيبدأ بذكر اسم صاحب الكلام مثل:

«أبو عبيد: رجل نَجْدٌ ونَجُد ونَجِد ونجيدٌ من شدَّة البأس. سيبويه: نَجْدٌ وأنجاد، أبو عبيد: نَجُد نَجادة واسم النجدة. . . إلخ».

تدوين الأدب: -

يرتبط تدوين الأدب القديم بتديون ما تقدم الحديث عنه، من تدوين القرآن الكريم والحديث النبوي والأنساب والتاريخ واللغة.

وكما عرفنا من أن الأمة العربية قبل الإسلام لم تكن أمة كاتبة، فلم تسجل تراثها كتابة إلا في القليل النادر، مثلما ورد في بعض الروايات من أن بعض دواوين الشعر كانت تكتب، ولكن الحقيقة أن هذا التراث الشعري الكبير كان ينتقل عبر الأجيال - بوجه عام - عن طريق الرواية، وكان بعض الفحول من شعراء الجاهلية رواة لغيرهم ممن سبقهم أو عاصرهم. فمثلاً كان الشاعر الجاهلي الحكيم زهير بن أبي سُلمى راوية لزوج أمه الشاعر الجاهلي التميمي الكبير أوس بن حجر، وكان الحطيئة الشاعر الهجّاء المخضرم راوية لزهير بن أبي سُلمى، وكان كثير بن عبد الرحمن الخزاعي المعروف بكثير عزة، راوية للشاعر الإسلامي العذري جميل بن عبدالله بن معمر المعروف بجميل بثينة، وأن جميل بثينة كان راوية لشاعر عذري سبقه اسمه هدبة بن خشرم وكان هدبة بن خشرم هذا راوية للحطيئة.

ولعل هذا النوع من الرواية، أي رواية شاعر لشاعر يحبه تبعث نوعاً من الاطمئنان تجاه سلامة الرواية. أكثر مما كان من شأن الرواية عند محترفيها دون الارتباط عندهم بالرواية عن شاعر واحد بعينه، فقد وجد في الجاهلية وصدر الإسلام كثير من الرواة الذين يروون جيد الشعر العربي لأي شاعر، دون الاقتصار على واحد بعينه، وكان هذا النوع غير المتخصص في شاعر بعينه، منهم من عاش صدر الإسلام وهؤلاء كانوا من الأمناء في الرواية، الموثوق بهم علماً وديناً ونسباً، ومن أشهر هؤلاء (مخرمة بن نوفل) وهو أبو صفوان مخرمة بن نوفل القرشي، وكان صحابياً عالماً بالأنساب، كُفَّ بَصرُه إبان خلافة عثمان بن عفان، وعاش حتى أدرك خلافة معاوية. ومنهم أيضاً (عقيل بن أبي طالب) وهو شقيق الإمام علي بن أبي طالب، وكان أيضاً عالماً بالأنساب وبخاصة أنساب قريش وأخبارها. ومنهم (عبدالله بن عباس) وهو ابن عم الرسول

عليه الصلاة والسلام، وكان يلقب بحَبْر الأمة أي عالمها، لسعة ثقافته، وغزارة علمه في الأنساب والأخبار وفي الفقه وفي التفسير وأيام العرب وشعرهم (ت ٦٨ هـ).

ولما حلّ القرن الثاني، ونشطت حركة الجمع والتدوين لكل ما أنتجته القريحة العربية وبخاصة في الشعر، انبرى كثير من العلماء يَنْشدون الشعر العربي الأصيل جاهليَّهُ وإسلاميَّه، ويلتمسونه في ينابيعه الصافية، في البادية حيث لا عجمة ولا رطانة أجنبية تركت آثارها على الألسنة العربية. وعرفنا أن الذين اضطلعوا بهذه المهمة هم علماء اللغة الذين أصبحوا من خلال دورهم العلمي في اللغة، رُواةً للشعر العربي الذي جمعوه ودونوه شواهد على ما تصدوا له من ألوان المعارف اللغوية. ومن أشهر رواة تلك الفترة:

أبو عمر بن العلاء سيد رواة الشعر غير مدافع. وهو العالم اللغوي الثقة، وهو الأديب الراوي، وواحد من القراء المشهورين، ولد في مكة وعاش في البصرة وتوفي بالكوفة قرابة عام ١٥٤ هـ.

ومنهم المفضل الضَّبيّ وهو أبو العباس المفضل بن محمد الضبي، صاحب كتاب (المفضليات) الذي أدَّب عليه الخليفة المهدي في صباه، وواحد من أشهر رواة الكوفة وأوثقهم، توفي حوالى سنة ١٦٨ هـ، وقيل سنة ١٧٨ هـ.

ومن هؤلاء الذين اشتهروا في الرواية آنذاك خلف الأحمر، وهو أبو محرز خلف بن حيان الأحمر البصري. وقد أخذ عليه العلماء مآخذ كثيرة في روايته. توفي سنة ١٨٠ هـ.

ومنهم حَمَّاد الراوية وهو حَمَّاد بن ميسرة المبارك الديلمي الكوفي، وقد اقترن اسمه بالرواية لكثرة ما رواه وما اشتهر به فيها. غير أنه مطعون عليه في كثير مما روى، ويقال إن الخليفة المهدي أبطل رواية حماد لتزيُّده على الناس في الشعر. وتوفي حماد سنة ١٥٥ هـ.

ومن الرواة العلماء في الرواية واللغة، الأصمعي وهو أبو سعيد

عبد الملك بن قريب، واسع المعرفة، كثير الحفظ، غزير المادة ولد في البصرة سنة ١٢٢ هـ وتوفي فيها سنة ٢١٦ هـ. اشتهر بكثـرة تنقله في البادية جامعاً لغة العرب وأخبارهم.

وأبو زيد الأنصاري: سعيد بن أوس، كان أيضاً من كبار الرواة وعلماء اللغة في البصرة، ولد سنة ١١٩ هـ وتوفي سنة ٢١٥ هـ. ويقال أن سيبويه حين يقول: حدثني الثقة، إنما يعني بالثقة أبا زيد الأنصاري. ولأبي زيد عدة كتب. أشهر ما طُبع منها (النوادر في اللغة).

ومن هؤلاء أيضاً محمد بن سلام الجمحي، وكان عـالماً راويـة ناقداً إخبارياً معروفاً، وهو صاحب كتاب (طبقات فحول الشعراء). توفي سنة ٢٣٢ هـ وأبـو سعيد السكَّري: وهو الحسن بن الحسين السكُّري، من أشهر رواه الشعر وصُناع الدواوين في عصره وأخصبهم تأليفاً. توفي في البصرة قرابة عام ٢٧٥ هـ.

وأبو عمرو الشيباني: وهو إسحاق ابن مرار الشيبـاني من علماء الرواية واللغة وتتلمذ عليه كل من ثعلب الكوفي وابن السّكيت وغيرهما، جمع عدداً من دواوين الشعر، وألف هو عدة رسائل لغوية. توفي حوالى سنة ٢١٣ هـ.

ومنهم محمد بن حبيب، واشتهر بالرواية والأنساب فضلاً عن كونه لغوياً، وكان من موالي بني العباس، ويقال إن اسم (حبيب) هو لأمّه.

ومنهم أيضاً عليّ بن عبدالله الطوسي، وكنيته أبو الحسن، وكان لغوياً راوية نحوياً. توفي حوالى منتصف القرن الثالث الهجري.

ومن هؤلاء أيضاً ابن السّكيت العالم اللغوي الذي سبق الكلام عنه في التعريف بكتابه (الألفاظ). وكذلك ثعلب الكوفي وغير هؤلاء من العلماء الذين اشتهر معظمهم بالعلم والرواية.

وإذا كان ضمن هذه الكثرة الكاثرة من علماء الرواية مَنْ اتُّهِم في روايته، فإن معظمهم موثوق فيه، وليس معنى ذلك أن الرواية سلمت

تماماً من الزيف، بل شابتها بعض النوازع المذهبية والسياسية والعنصرية والقبلية والشخصية، مما جعل بعض مؤرخي الأدب يشك في صحة ما رُوي من الشعر العربي القديم، لكن يجب ألا ينسحب الشك على كل ما روى منه، إذ معظم الرواة ثقات، وبالتالي فإن معظم ما روي من الشعر القديم موثوق به.

وإذا كان معظم رواة الشعر من علماء اللغة والأنساب والقراءة والحديث فليس معنى ذلك أن ما جمعوه هو فقط ما تناثر في بطون كتبهم للاستشهاد به في مواطن الاستشهاد، بل تنوع جمع الشعر وما ترتب عليه، فقد جُمعت أشعار القبائل، وصُنعت المختارات الشعرية، كالمفضليات والأصمعيات، ودواوين الحماسة وغيرها، ودونت دواوين الشعراء، وألفت كتب في تراجم الشعراء وأخبارهم وأنسابهم وطبقاتهم، مما كان ثروة للخالفين بعدهم، وذخيرة من الوثائق للباحثين يتعرفون منها ملامح الشعر العربي في مراحله الأولى وما أصابه من تطور عبر السنين. كما نشأت دراسات مبنية على جهود هؤلاء المصنفين الأوائل أثْرَتْ المكتبة العربية في غير فن من فنون اللغة وتراثها.

وإن مفهوم الأدب عند القدماء غير ما نراه الآن محدوداً بالتعبير الجميل شعراً ونثراً، بل فهمه العلماء القدامى بمفهوم ثقافي واسع، هذا المفهوم هو الذي أثرى المكتبة العربية بمؤلفاتهم التي تشمل الشعر والرسائل والخطب والتاريخ والفلسفة والتراجم والرحلات والنقد والقصص والاجتماع، فكل ذلك ينضوي بهذا المفهوم تحت كلمة (أدب) ولكثرة ما خلفته لنا تلك المراحل السابقة من مؤلفات في الأدب فإننا نقتصر على التعريف ببعض من أنواع التأليف الأدبي، نلقي من خلاله نظرة على بعض مصادر تراثنا الأدبي عساها تكون حافزاً للطالب أن يتطلع إليها فيزداد ثقة في ماضيه، ويعمل على وصل حاضره ومستقبله بذلك الماضي العلمي الجاد.



من كتب الأنساب والتاريخ:

- أنساب الأشراف للبلاذري
- جمهرة أنساب العرب لابن حزم.
- تاريخ الأمم والملوك للطبري.
- الكامل لابن الأثير



أنساب الأشراف للبلاذري

هو الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي البلاذري، ويكنيه ابن النديم بأبي جعفر (الفهرست ص ١٦٤). وكان البلاذري إماماً نَسَّابة، راوية ثقة، مُحدِّثاً ثَبْتاً، أديباً مُتَفَنِّناً، شاعراً مجيداً.

كان مولده في أواخر القرن الثاني الهجري، ووفاته في سنة تسع وسبعين ومائتين للهجرة. ويذكر ابن النديم أن البلاذري أصيب في أواخر أيامه بالوسوسة فشُدّ في البيمارستان حتى مات فيه. (الفهرست ص ١٦٤).

نشأ البلاذري في بغداد واغترف من معين علمائها وأدبائها كثيراً من العلم والأدب والحديث والفقه.

رحل من أجل الاستزادة في العلم إلى حلب وحمص والعراق ومنبج وأنطاكية، ويذكر ابن النديم أن له من الكتب كتاب البلدان الصغير وكتاب البلدان الكبير ولم يُتِّمه، وكتاب الأخبار والأنساب، كما يذكر أنه كان أحد النقلة من الفارسي إلى اللسان العربي (الفهرست ص ١٦٤).

وكان البلاذري في سياحته العلمية يجمع الروايات المحفوظة بين سكان تلك البلاد التي زارها ليقارنها بما حفظه عن علماء بغداد.

قال عنه المستشرق الشهير (دي جويه): إنه اشتغل منذ نعومة أظفاره بتأليف كتاب جامع لتاريخ الدول الإسلامية، أتى فيه على

الحقائق التاريخية دون أن يغضب خليفة وقته، ومن كتبه «عهد أردشير» ترجمه من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية ولم يكتف فيه بالترجمة، بل وضعه في قالب شعري.

ومن أجل ما كان البلاذري يتمتع به من العلم والأدب والفقه والحديث، فقد كانت له الحظوة لدى الخلفاء والوزراء، فكان ينادم المتوكل، يحظى لدى المستعين والمعتز والمعتمد. كتابه (أنساب الأشراف).

يتناول الكتاب أنساب العرب وأخبارهم ويشرحها. فهو كتاب أنساب وكتاب أخبار. أما تسمية الكتاب بـ «أنساب الأشراف» فإنها تسمية الكتاب المخطوط، ولم يكن البلاذري أول من استخدم هذه الألفاظ (أنساب، أشراف، أخبار) فقد سبقه إليها كثيرون مثل أبي اليقظان النسابة (ت ١٩٠ هـ) وهشام بن محمد الكلبي (ت ٢٠٦ هـ) والهيثم بن عدي (ت ٢٠٧ هـ) ومصعب بن عبدالله الزبيري (ت ٢٣٣ هـ) وغيرهم. فأفاد البلاذري ممن سبقوه في هذا المجال.

أما الأشراف وهي جمع شريف، فإن هذا الاسم يطلق في اللغة على الرجل الماجد، أو من كان كريم الآباء، ثم أطلق لقب الشريف على من كان من آل بيت رسول الله ﷺ شاملاً العلويين والجعفريين والعباسيين، ومن الناس من جعله مقصوراً على ذرية الحسن والحسين، على أن التخصيص بآل البيت وبخاصة نسل عليّ بن أبي طالب لم يشتهر إلا في القرن الرابع الهجري ويغلب أنه كان في آخره (انظر مقدمة محقق الكتاب ص ٢٠).

والبلاذري قد لا يكون من مراده في (أنساب الأشراف) أن يترجم لآل البيت وذلك واضح مما احتواه الكتاب، بل كان يقصد المعنى اللغوي لكلمة شريف.

يبدأ الكتاب بذكر نسب نوح عليه السلام، ثم يتكلم عن العرب فيصل إلى عدنان رأس النسب النبوي الشريف ويظل يتدرج إلى أجداد

النبي ﷺ حتى يصل إلى مولده ﷺ، ثم يتكلم عن أمر السقيفة، ثم يصعد بنسب الرسول ﷺ مرة أخرى فيتناول أبناء الجد الأول عبد المطلب واحداً واحداً وأبناءهم شارحاً راوياً أخبارهم باستفاضة.

ثم يتناول نسل قيس حتى يصل إلى ثقيف مترجماً لبعض رجالها، ومع كون الكتاب خاصاً بالعرف، فإنه البلاذري حين يتحدث عن الخلفاء نجده يتناول من كان على عهدهم من رجالات وثائرين حتى ولو لم يكونوا من العرب مثل أبي مسلم الخراساني وابن المقفع. كما تناول (أسماء عظماء اليهود) من بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة. ومن صفات الكتاب أنه يذكر الخبر برواياته المختلفة بالأسانيد شأن كل الكتب الشبيهة آنذاك، كما أنه يعقد تراجم مطولة لبعض الأعلام الذين اشتهروا من حكام وعلماء وأدباء.

وشأن الكتب الشهية آنذاك، أنه إذا أورد نصاً في موضوع أو ترجمة، ثم جاءت ترجمة لشخص يتعلق به النص، أورده مرة أخرى، كما كان يحدث في كتب الحديث مما كان يستدعي إعادة كثير من الأحاديث في الكتاب.

أما الحادثة الطويلة فإنه لا يكرر فيها ما مضى بل يحيل على ما تقدم.

وقد اهتم البلاذري في كتابه اهتماماً خاصاً بذكر الخوارج، فكان عندما يتحدث عن أي خليفة أموي كان لا يترك الحديث عنه إلا بعد أن يُعنون بـ (الخوارج في عهده).

ويختلف الكتاب عن غيره من كتب التاريخ في أنه لا يسوق الأحداث فيه وفق التسلسل التاريخي. كما أنه يختلف عن كتب الأنساب في أنه لم يسرد الأنساب موجزة مختصرة، بل إنه يجمع بين التاريخ والتراجم والأدب وتشابك الأنساب.

وقد ظهر الجزء الأول من الكتاب سنة ١٩٥٩ عن دار المعارف بمصر بتحقيق الدكتور محمد حُميْد الله بتفويض من معهد المخطوطات

بجامعة الدول العربية، في سلسلة ذخائر العرب. ويشتمل الكتاب على فهارس متنوعة واستدراكات قيمة. كما تم تزويد الجزء الأول في بدايته بفهرست مخطوط إستانبول لكتاب أنساب الأشراف وهذا الفهرست كان المحقق قد نشره في نشرة المعهد الفرنسي بدمشق عام ١٩٥٤.

جمهرة أنساب العرب لابن حزم

وابن حزم هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي. وهو قرشيّ الولاء، أندلسي الدار وكان جده يزيد أول من أسلم من أجداده، وكان جده خَلَف أول من دخل الأندلس من آبائه.

وقد ولد ابن حزم في قرطبة من بلاد الأندلس في رمضان سنة ٣٨٤ هـ. وكانت وفاته في شعبان سنة ٤٥٦ هـ في قريته قَنْتَ ليشم.

كان أبوه «أحمد» عالماً جليلاً ووزيراً من وزراء المنصور محمد بن أبي عامر، وابنه المظفر. أما ابن حزم نفسه فقد تولى الوزارة في عهد صديقه الخليفة المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام الذي قُتل بعد سبعة أسابيع من توليه الخلافة، ثم تولى ابن حزم الوزارة في عهد الخليفة بعد ذلك وانقطع للعلم.

كان ابن حزم محدِّثاً فقيهاً، عالماً بالسِّيَر والأخبار، درس المنطق وألَّف فيه (التقريب لحد المنطق والمدخل إليه).

درس فقه المالكية وقرأ الموطّأ، ثم درس المذهب الشافعي وتعصب له، ثم انتقل إلى مذهب الظاهرية، مذهب داود بن علي بن خلف الأصبهاني وكان متعصباً للشافعي منحازاً إليه.

وقد اشتهر ابن حزم بالجدل والمناظرة، والجرأة على نقد وتخطىء كبار العلماء والطعن فيهم، فتمالأ عليه علماء وقته وأجمعوا على تضليله، وأوعزوا ضده صدور الحكام والمحكومين، فعملوا على إيذائه وإبعاده ونفيه، بل بلغ الأمر إلى إحراق كتبه.

وقد امتدحه كثير من العلماء مثل الذهبي وأبي حامد الغزالي وعز الدين بن عبد السلام والمراكشي وغيرهم.

ولـه كثيـر من الكتب والمؤلفـات في الفقـه وأصـول الأحكـام، والأنساب والسِّيَر والتاريخ والإمامة والسياسة والمنطق والرد على أعداء الإسلام، وأهل الآراء والنحل.

كتابه جمهرة أنساب العرب: -

من أهم ما يميز كتاب ابن حزم في أنساب العرب عن غيره من كتب الأنساب أنه قد التزم عقد الصلة بين القبائل العربية التي نزحت إلى الأندلس والمغرب، وبين الأصول المشرقية لهذه القبائل والأسر، وقد التزم ذلك كلما حانت له فرصة أو مناسبة في حديثه عن الأنساب العربية، غير غافل مع ذلك عن بيان المدن والمساكن التي اتخذتها تلك الجاليات وتجمهرت وتكاثـرت فيها، لـذلك يُعـد الكتاب وثيقـة هامـة حفظت لنا أسماء كثير من تلك البلدان وتعليل تسمياتها أحياناً.

ويعتبـر كتاب (جمهـرة أنساب العـرب) من أوسـع كتب النسب وأغناها وأدقها، مع شيء من الإيجاز والاستيعاب. فقد تبلور رحيق ما اجتنـاه ابن حزم من بسـاتين سـابقيـه في الأنسـاب والسيـر والتـراجم والتاريخ، ليخرج كتابه في هذه الصورة المتكاملة التي امتـازت بذكـر الصحـابـة والأشـراف من آل البيت النبـوي ونسلهم والخلفـاء وذوي السلطان والـولايات وأنسـالهم، مع الإشـارة إلى الأحداث التـاريخيـة والقبليـة والأدبية وأيـام العرب وأمثـالها المشهـورة، شامـلاً كـل ذلـك بالتحقيق ودقة الحكم وسلامته. فابتعد بذاك عن جفاف كتب الأنساب، وزاد ميل القارىء له، وزدات فائدته منه.

ويعقد ابن حزم فصلاً عن ديانات العرب وأصنافها، وينـوع في تناوله الأنساب إذ لم يغفل الحديث عن نسب البربر وكان في ذلك رائداً احتذاه غيره من علماء النسب، وقد اعتمد عليه بعد ذلك ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) في تاريخه، كما أنه عرض لنسب بني إسرائيل معتمداً في ذلك على دراسته الدقيقة للتوراة، ومعرفته بدقائقها وخفاياها. ولم يفته في نهاية كتابه أن يشير إلى أنساب ملوك الفرس إشارة المختصر المستوعب.

تاريخ الطبري

ومؤلفه هو المحدِّث الفقيه الجامع لأشتات العلوم، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، تفقه في العلم وهو ما يزال صبياً، يقول عن نفسه: «حفظتُ القرآن ولي سبع سنين» وصليتُ وأنا ابن ثماني سنين، وكتبتُ الحديث وأنا ابن تسع» (معجم الأدباء ١٨/٤٩).

واسم الطبري نسبة إلى طبرستان حيث ولد بآمل سنة أربع وعشرين ومائتين، وقيل سنة خمس وعشرين ومائتين، وقد علل سبب الاختلاف في سنة المولد لأن أهل بلدهم لا يؤرخون بالسنين بل بالأحداث.

ولم يكن يبلغ الثانية عشرة من عمره حتى بدأ رحلاته من أجل العلم، فكان أول ما رحل إلى الرِّي وما جاورها من البلاد، فأخذ عن شيوخها ودرس فقه العراق على أعلامه آنذاك. ثم عزم على الرحلة إلى بغداد ليأخذ عن ابن حنبل، ولكنه قبل أن يصل إليها إلى الكوفة فدرس القراءات والحديث على أعلامها، ويقال إنه سمع من أبي كُرَيب أكثر من مائة ألف حديث (معجم الأدباء ١٨/٥١، ٥٢). ثم عاد إلى بغداد منقطعاً فترة لعلوم القرآن، وفقه الإمام الشافعي الذي اتخذه مذهباً وأفتى به سنوات. وقد عزم على لقاء أصحاب الإمام الشافعي بمصر وفي طريقه إلى مصر عرَّج على أجناد الشام وسواحلها وثغورها، وأطال أيامه في بيروت على الخصوص حيث لقي العباس بن الوليد البيروتي المقرىء، وظل بها حتى ختم القرآن برواية الشاميين تلاوة على

البيروتي، ثم تابع مسيره إلى مصر فوصل إليها سنة ثلاث وخمسين ومائتين. فتدارس الآداب وناقش في الفقه والحديث واللغة والنحو والشعر. وجاءه رجل يسأله في العروض ولم يكن قد نشط له من قبل، فقال له الطبري: عليَّ قول ألاّ أتكلّم اليوم في شيء من العروض، فإذا كان في غد فصِرْ إليَّ، ثم طلب الطبري من صديق له كتاب الخليل بن أحمد في العروض، فنظر فيه ليلته، فأمسى غير عروضي، وأصبح وهو عروضي. وطالت أيامه بمصر، وذهب إلى الشام ثم عاد إلى مصر مستزيداً من فقه الإمام الشافعي، ومن فقه الإمام مالك، وفي مصر أيضاً لقي يونس بن عبد الأعلى الصدفي شيخ الإقراء بها فأخذ عنه قراءة حمزة وقراءة ورش. ثم عاد إلى بغداد منقطعاً للدرس والتأليف.

وقد أعرض الطبري عن أي إغراء إلا العلم فرفض المناصب والمنح والعطايا، واشتهر بتفسيره للقرآن الكريم، الذي عرف بتفسير الطبري.

أما كتابه في التاريخ واسمه (تاريخ الملوك والرسل) أو (تاريخ الأمم والملوك) فإنه يُعدُّ أوفى عمل تاريخي بين مصنفات العرب، إذ بلغ الذرة رواية متقنة، وثقة وأمانة وإتقاناً، أشاد به معاصروه ومن جاءوا بعده.

بدأه الطبري بالحديث عن دلالة حدوث العالم والزمان. وأن أول ما تم خَلْقُه بعد الزمان هو القلم وما بعده شيئاً فشيئاً، ثم ذكر آدم وما كان بعده من أخبار الأنبياء والرسل على ترتيبهم الذي ورد في التوراة، شارحاً الأحداث التي وقعت في زمانهم، مفسراً ما ورد بشأنهم في القرآن الكريم، متناولاً أخبار من عاصرهم من ملوك وعلى الخصوص ملوك الفرس، متدرجاً في الشرح والتفصيل حتى بعثة النبي محمد ﷺ. ثم تناول التاريخ الإسلامي مرتباً على الحوادث منذ العام الأول للهجرة حتى سنة ثلاثمائة واثنتين، وإذا طالت أخبار الحوادث جَزَّأها على حسب السنين.

ويتميز هذا الكتاب بأنه سجل لما أودع في كتب الحديث والتفسير واللغة والأدب والسِّيَر والمغازي وتاريخ الأحداث والرجال، ونصوص الشعر والخطب والعهود. وقد انتهج الطبري في كتابه منهج المحدِّثين، ذاكراً السند حتى يتصل بصاحبه. مبتعداً عن التدخل برأيه في معظم الأحيان. كما أنه كان ينسب كل رواية لصاحبها، وقد وجه بعض العلماء نقداً للكتاب من حيث عدم تدخل صاحبه برأيه في تمحيص الروايات والأخبار، خاصة وقد وقع في هذا التاريخ كثير من الأخبار الضعيفة والقصص الزائفة، والإسرائيليات والأحاديث الموضوعة. وربما كان عذر الطبري في ذلك أنه انتهج نهج رواه الحديث فيذكرون الحديث بطرقه ورجاله، تاركين للقارىء الحكم، أمانة للعلم وإبراء للذمة.

الكامل لابن الأثير

وابن الأثير هو عليّ بن محمد الشيباني، وكنيته أبو الحسن، ولقبه عز الدين، ويعرف بابن الأثير الجزري، نسبة إلى جزيرة ابن عمر، فوق الموصل يُحيط بها نهر دجلة إلا من ناحية واحدة، شبه الهلال. وكان مولده بهذه الجزيرة في جمادى الأولى سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م. وعز الدين هو ثالث ثلاثة إخوة يسمى كل منهم بابن الأثير، وكل واحد منهم عالم في فرعه، كان كبيرهم مجد الدين بن الأثير (ت ٦٠٦ هـ) من رجال الحديث، وله (النهاية في غريب الحديث والأثر) و(جامع الأصول في أحاديث الرسول). وأصغرهم هو ضياء الدين بن الأثير، المولود سنة ٥٨٨ هـ، وهو العالم اللغوي البلاغي الأديب، وأشهر كتبه (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر).

أما أوسطهم وهو عز الدين بن الأثير العالم المؤرخ صاحب كتاب (الكامل في التاريخ) وله أيضاً (أسد الغابة في معرفة الصحابة) و(كتاب اللباب في تهذيب الأنساب) وهو مختصر لكتاب الأنساب للسمعاني. وله كتاب (تاريخ الدولة الأتابكية).

وانتقل عز الدين مع أبيه وأخويه إلى الموصل، وهناك سمع من أبي الفضل عبدالله بن أحمد الخطيب الطوسي، ومن في طبقته. كما أنه زار بغداد مراراً، حاجّاً ورسولاً من صاحب الموصل، وسمع في بغداد من الشيخ أبي القاسم يعيش بن صدقة الفقيه الشافعي، ومن أبي أحمد عبد الوهاب بن عليّ الصوفي، ومن غيرهما. ثم رحل إلى الشام والقدس وسمع هناك من علمائهما ثم قفل راجعاً إلى الموصل.

وكان عز الدين إلى جانب علمه في التاريخ، عالماً في الحديث، خبيراً في أنساب العرب وأخبارهم، وأيامهم، ووقائعهم، ذا حظوة لدى الناس وذوي السلطان، عالماً كريم الخلق. متواضعاً.

وقد اتسعت ثقافته من كثرة أسفاره وتنقله بين الموصل وبغداد ودمشق والقدس وحلب، يتلقى في كل بلد ينزله ما عند علمائه من الفقهاء والقراء والنحاة والمحدثين والرواة والمؤرخين. وظل هكذا حتى وافته المنية في شعبان سنة ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م.

كتاب الكامل في التاريخ:

هو عبارة عن تاريخ شامل جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما، يبدأ بالتأريخ لأول الزمان حتى آخر سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠ م، أي قبل وفاة عز الدين بعامين.

وقد وضح ابن الأثير في مقدمة كتابه سبب تأليفه له، بأنه نظر في كتب التاريخ المؤلفة قبله فرآها متباينة في تحصيل الغرض، منها ما هو مطوَّل قد استقصى الطرق والروايات، ومنها ما هو مختصر قد أخلّ بكثير مما هو آت، ومع ذلك فقد ترك كلهم العظيم من الحادثات، وسوَّد كثيراً من الأوراق بصغائر الأعراض، وقد أخلَّ الشرقي منهم بذكر أخبار الغرب، والغربي قد أهمل أحوال الشرق، فكان الطالب إذا أراد أن يطالع تاريخاً متصلاً إلى وقته يحتاج إلى مجلدات كثيرة وكتب متعددة مع ما فيها من الإخلال والإملال، لذلك جاء ابن الأثير بكتابه (الكامل) جامعاً لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما ليكون عوناً للطالب وتذكرة له يراجعها خوف النسيان، آتياً بالحوادث والكائنات من أول الزمان متتابعة يتلو بعضها بعضاً حتى وقته. ومع ذلك فهو لا يدعى الكمال، ولكنه جمع في كتابه ما لم يجتمع في كتاب واحد.

ويقرر ابن الأثير أنه أخذ عن الطبري جميع تراجمه، إذ كتاب الطبري هو المعول عليه، ولكنه لم يتبع خطوات الطبري في التأليف، فالطبري كان يذكر في الحادثة الواحدة عديداً من الروايات، فأخذ ابن

الأثير أتم هذه الروايات ونقلها وأضاف إليها. أي أنه لم ينقل الحوادث التاريخية على علاتها، بل كان ينتقي منها ما يراه موافقاً لمعقوله. ولم يكن ينقل إلا ما يراه صواباً، ويُعرض عن نقل ما لا يراه موافقاً العقل، وكان ينقد ما ينقله.

كما أن ابن الأثير في كتابه (الكامل) كان يهتم بضبط الأسماء بالحركات ويقيدها ليزيل أي لَبْس، وكان إذا ذكر فتح بلد أو ناحية، شرح اسم البلد وسبب التسمية، وأصل اشتقاق هذا الاسم. ويمتاز منهج ابن الأثير أيضاً بشدة التَّثَبُّت والدقة فيما ينقل، بل ينقد أحياناً بعض المصادر التي يستمد منها معلوماته، وكان قد استمد من مصادر أخرى غير الطبري، مثل ابن الكلبي، والمبرِّد، والبلاذري، والمسعودي، والشهرستاني.

وقد اتبع في كتابه تناول الأحداث بالسنين، كل سنة يذكر أهم ما حدث فيها فإذا انتهى منها انتقل إلى السنة التالية، فإذا انتهى من أحداث سنة، بدأ أحداث السنة التالية بقوله: «ثم دخلت سنة....» وهذه الطريقة في التأريخ يتبعها ابن الأثير منذ السنة الأولى للهجرة النبوية إذ يقول: «ذكر ما كان من الأمور أول سنة من الهجرة»، وبعدها يقول: «ثم دخلت السنة الثانية من الهجرة» وهكذا حتى ينتهي بكتابه بذكر أحداث سنة ٦٢٨ هـ.

أما ما قبل الهجرة النبوية فقد تناوله أحداثاً متسلسلة، وملوكاً وأنبياء، «القول في الزمان»، ثم «القول في جميع الزمان من أوله إلى آخره» ثم «القول في ابتداء الخلق وما كان أوله» ثم «القول فيما خلق بعد القلم» وهكذا. حتى يبدأ في التقسيم الزمني منذ السنة الأولى من الهجرة.

من المجموعات الشعرية أو المختارات الشعرية القديمة

- المفضليات - للمفضل الضبي
- الأصمعيات - للأصمعي
- جمهرة أشعار العرب للقرشي
- ديوان الحماسة لأبي تمام



بعد أن شاعت الكتابة بين الناس، وتيسرت أدواتها وأهمها الورق، اتجه كثير من العلماء إلى التدوين، وكثر التأليف، وتوجه الرواة والمتأدبون إلى تسجيل ما حفظوه وسمعوه من أشعار العرب الأوائل التي ظلت تنتقل من جيل إلى جيل، وكانت مسيرة هذا التدوين أو التسجيل المبكر للشعر القديم تتخذ أشكالاً متباينة، فهناك من اهتم بتسجيل قصائد لهذا الشاعر أو ذاك، فجُمعت أشعاراً لشعراء أفراد، وهي ما نعرفه باسم دواوين الشعراء، ومنهم من جمع أشعار للقبائل مثل ديوان الهذليين، ومنهم من اختار أحسن قصيدة من قصائد بعض الفحول الجاهليين، وكوّن مجموعة لا تتعدى العشر مطولات. ومنهم من انتقى لكبار الشعراء قصائد كوّن منها مجموعة اشتهرت باسم جامعها.

وكان أول هذه المختارات من عمل حماد الراوية (ت ١٥٥ هـ) وكان من أكثر الرواة حفظاً للشعر القديم، وكان أول من دوَّن شعراً، إذ جمع أشهر القصائد الجاهلية وأطلق عليها اسم (المعلقات) أو (السموط).

وهناك اختلاف في عدد القصائد التي جمعها حماد، وفي أصحابها، وهل عدد هذه المعلقات خمس أو سبع أو عشر؟ وتتفق الروايات على خمس من هذه المعلقات على أنها من جمع حماد الرواية، وهي: معلقة امرىء القيس، ومعلقة طرفة، ومعلقة لبيد، ومعلقة زهير، ومعلقة عمرو بن كلثوم، أمّا المختلف عليها فهي قصيدة أو معلقة عنترة ومعلقة الحارث بن حلزة، ومعلقة النابغة ومعلقة الأعشى، ويذكر بروكلمان في (تاريخ الأدب العربي/٦٧) أن

المفضل الطبي يرى أن المعلقة السادسة للنابغة والسابعة للأعشى.

ولذا فإن عدد المعلقات اختلف بعد ذلك فمن العلماء الشراح من جعلها سبع معلقات ومنهم من جعلها عشراً بإضافة قصيدة عبيد بن الأبرص إلى التسع السابقات. وأهم من شرحوا المعلقات، الحسين بن أحمد الزوزني (ت ٤٨٦ هـ) وأبو بكر الأنباري (ت ٣٢٧ هـ) ويحيى بن علي التبريزي (ت ٥٠٢ هـ).

وهذه المجموعات الشعرية المختلفة من حيث فكرتها وتبويبها، ذات قائدة للدارس من حيث تعدد شعرائها، وتنوع موضوعاتها، فهي تعبير عن الحياة الفنية والاجتماعية التي تلقى ضوءاً على ذوق العصر الذي قيلت فيه، وذوق مصنفيها أيضاً.

وأشهر هذه المجموعات باستثناء المعلقات:

١ ـ المفضليات ـ للمفضل الضبي

وجامع المفضليات ومصنفها هو المفضل بن محمد بن يعلى الضبي، الراوية الكوفي اللغوي الأديب الإخباري الثقة، كان مولده في العشر الأول من القرن الثاني الهجري. وتوفي سنة ١٦٨ هـ.

سمع عن سماك بن حرب، وأبي إسحاق السبيعي، وعاصم بن أبي النجود، والأعمش، وغيرهم.

وروى عنه كل من أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، وعلي بن حمزة الكسائي، وأبي كامل الجحدري، وأبي عبد الله محمد بن زياد الأعرابي، وأبي زيد الأنصاري، وخلف الأحمر، وغيرهم.

ويقال إن المفضل الضبي خرج على المنصور العباسي، فظفر به، وعفا عنه، ولزم المهدي فصنف له كتاب «المفضليات»، وسماه «الاختيارات».

وقد شرح المفضليات العالم اللغوي الأديب يحيى بن علي بن محمد بن الحسن، أبو زكريا بن الخطيب التبريزي، المولود في تبريز سنة ٤٢١ هـ، المتوفى ببغداد سنة ٥٠٢ هـ وقد ناهز الثمانين من عمره.

ومجموعة المفضليات تعتبر أقدم مجموعة شعرية صنفت في القرن الثاني الهجري. وتتكون من مائة وعشرين قصيدة قد تزيد وتنقص، صنفها الضبي لتعليم تلميذه محمد بن عبد الله المهدي ولي عهد المنصور، ويستنتج الدكتور أمجد الطرابلسي من خبر لابن

النديم عن المفضل الضبي، أنه جمع المفضليات «جرى بين سنتي ١٤٥ هـ و١٥٠ هـ على أبعد تقدير، ومثل هذه النتيجة تجعل من هذا الكتاب أقدم المختارات الشعرية التي وصلت إلينا» (نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب ـ ص ٨٦).

وعدد القصائد التي وصلت إلينا في المفضليات مائة وثلاثون قصيدة في طبعتها الأخيرة بتحقيق الأستاذين أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون.

ومما تمتاز به مجموعة المفضليات أن قصائدها من الأشعار القديمة لستة وستين شاعراً من الجاهليين ليس بينهم سوى عدد قليل من المخضرمين وأوائل الإسلاميين.

كما أن القصائد المختارة قد أثبتها الضبي كاملة دون اختيار أو مفاضلة بين أبيات القصيدة الواحدة، كما أن الوقت المبكر الذي جُمعت فيه هذه القصائد يجعلها أقرب إلى الصحة والكمال، قبل أن يزحف الزيف إلى تراثنا الشعري.

٢ ـ الأصمعيات ـ للأصمعي

وصاحبها هو أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب بن عبد الله بن علي بن أصمع، وينتهي نسبه إلى قيس عَيْلان.

كان الأصمعي من أهل البصرة، وقدم بغداد في أيام الرشيد حين استقدمه الرشيد على دواب البريد لما بلغه من علمه وفضله واتساع درايته للغة ورواية أنساب العرب وأخبارها وأيامها وأشعارها وأراجيزها، وقد روى عمرو بن شبة أنه سمع الأصمعي يقول عن نفسه: أحفظ ست عشرة ألف أرجوزة. فإذا كان هذا شأنه في حفظ الأراجيز فإن كثرة حفظه للشعر جعلت الرشيد يلقبه بشيطان الشعر، أما في اللغة والرواية فقد شهد له المبرِّد بقوله: وكان الأصمعي بحراً في اللغة، لا يُعرف مثلُه فيها وفي كثرة الرواية.

وقال أبو نواس حين أخبروه بأن أبا عبيدة والأصمعي قد أُشخصا إلى الرشيد:

أما أبو عبيدة فإنهم إنْ أمكنوه من سِفْرِه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين، وأما الأصمعي فبلبلٌ يطربهم بنغماته.

وقد اختُلف في سنة ولادة الأصمعي وسنة وفاته، فقيل إنه ولد سنة ١٢٢ أو سنة ١٢٣ هـ، وأنه توفى سنة ٢١٦ أو سنة ٢١٤ أو سنة ٢١٧ هـ. بمرو.

أما الأصمعيات فإنها مجموعة شعرية نسبت إليه كما نسبت مجموعة المفضليات إلى جامعها المفضل الضبي. وذلك تمييزاً لكل من المجموعتين عن الأخرى، وعلى الرغم من ذلك فقد حدث كثير من التداخل بين قصائد كل من المجموعتين. وقد وضح ذلك النماذج والتداخل في مقدمة الطبعة الأخيرة من المفضليات، التي حققها كل من الأستاذين أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون أنهما يشيران إلى ذلك في تقديم الطبعة الخامسة من الأصمعيات

سنة ١٩٧٩ م: «وقد بيَّنا في مقدمة «المفضليات» كيف دخلت فيها الأصمعيات وامتزجت بها. حتى ذكر بعض العلماء قصائد من المفضليات على أنها أصمعيات».

كما يشير كلا المحققيْن في مقدمة طبعة الأصمعيات أيضاً إلى أن الأصمعيات لم تطبع قبل طبعتهما إلا مرة واحدة في مدينة ليبزج بألمانيا سنة ١٩٠٢ المسيحية. ضمن الجزء الأول من (مجموع أشعار العرب) وعنى بتصحيحها المستشرق «وليم بن الورد» كما سمي نفسه في الكتاب. ومما يبدو أن طبعة هذا المستشرق كانت عن نسخة سقيمة لا يوثق بها، وزادها تصرُّفه وقلة تمرسه بلغة العرب سوءاً إلى سوء. بل أفسدها إفساداً. ويمضي محققا الأصمعيات في وصف ما أحدثه ذلك المستشرق في طبعته للأصمعيات بقولهما: فإنه ـ أي المستشرق ـ تصرف في ترتيبها وفي مجموعها تصرفاً لا يملكه، ولا يدل على حرصه على الأمانة العلمية التي اشتهر بها المستشرقون بالحق أو بالباطل.

فأولاً: غير ترتيبها، فرتب القصائد على القوافي على حروف المعجم، وهذا عمل لا تدعو إليه الحاجة بعد ظهور المطابع، فإن الفهارس على الحروف كفيلة بالفائدة التي كان يرجوها.

وثانياً: حذف منها ١٩ قصيدة، بحجة أنها مكررة في المفضليات، ثم نقض حجته هذه، فأثبت الأصمعية المرقومة برقم ١٣ في طبعتنا وذكرها في طبعته برقم ٣٠. في حين أنها هي المفضلية: ٨٥ تنقص بيتاً بين البيتين ٦، ٧.

ثم يذكر المحققان القصائد التسع عشرة التي حذفها المستشرق ويبينان وجه خطئه فيما فعل مقارنه بما قاما به في طبعتهما. على النحو التالي:

٣ ـ جمهرة أشعار العرب ـ للقرشي

ومصنفها هو أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القُرشي. وهو راوية مغمور لم ينل حظ غيره من الرواة المصنفين للمجموعات الشعرية شهرة وذيوع صيت، ولذلك فقد اختُلف في تحديد الفترة التي عاشها، وحدث خلط في أسماء بعض من روى عنهم.

فبعض الدارسين يرى تأريخ تصنيف هذه المجموعة بالفترة نفسها التي صنفت فيها مجموعة المفضليات، من ذلك أن البستاني في مقدمة الإلياذة يحدد وفاة أبي زيد القرشي صاحب الجمهرة بسنة ١٧٠ هـ، ويرى الدكتور الشكعة (مناهج التأليف عند العلماء العرب ص ٤٧١) أن هذا التحديد بعيد كل البعد عن الحقيقة، ذلك لأن الذين روى عنهم أبو زيد القرشي والمعاصرين له، عاشوا في منتصف القرن الثالث الهجري، فالأصمعي مثلاً قد توفي سنة ٢١٦ هـ. وأبو زيد القرشي لم يرو عن الأصمعي مباشرة، وإنما روى عن جيلين بعده وهما المقنّع وأبوه، فإذا افترضنا أنه بين كل جيل وسابقه خمسة وعشرين عاماً، يكون أبو زيد القرشي عاش حوالي سنة ٢٥٠ هـ أي منتصف القرن الثالث.

كما أن أبا زيد كان يروي أكثر أخباره في مقدمة كتابه عن شيخ له اسمه أبو عبد الله المفضل بن عبد الله المحبّري. وفي بعض مواضع المقدمة يعمد المؤلف إلى اختصار اسم هذا الشيخ فيقول: (أخبرنا المفضل) ويرى الدكتور أمجد الطرابلسي (نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب ـ ص ٩١) أن من المؤسف ورود اسم هذا الشيخ في موضع واحد أو موضعين على الأكثر في مقدمة الجمهرة باسم (المفضل بن محمد الضبي) وهذا بلا ريب ـ كما يقول الطرابلسي ـ خطأ من النساخ المتأخرين الذين خلطوا بين المفضل الضبي صاحب المفضليات، وبين المفضل المحبّري شيخ أبي زيد القرشي، ولعل هذا الخطأ هو الذي جعل الأستاذ أحمد أمين في

ضحى الإسلام ٢/٢٧٦، يظن أن القرشي كان تلميذ المفضل الضبي، مع أن المفضل المحبّري الذي روى عنه أبو زيد القرشي كان على ما يظهر من سلالة عمر بن الخطاب، إذ يرد اسمه أحياناً في مقدمة الجمهرة كما يلي: المفضل بن عبد الله بن المحبّر بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

ومن مرجحات تأخر تصنيف هذه المجموعة الشعرية عن سابقاتها المعلقات والمفضليات والأصمعيات، أن الدارسين والعلماء يرونها خير متمم لسابقاتها تلك، إذ تتضمن مثل السابقات نماذج جيدة وكاملة من قصائد الجاهلية وصدر الإسلام، وفيها ما لم تتضمنه سابقاتها ولا دواوين الشعراء من القصائد الشهيرة الجيدة.

هذا بالإضافة إلى طريقة أبي زيد في تصنيفها، إذ يختلف عن الضبي والأصمعي منهجاً، وترتيباً، واختياراً ونصوصاً، كما أنه يفترق عنهم في أنه كتب مقدمة لمجموعته غير قصيرة، وإن كانت هذه المقدمة تجمع بين الغث والسمين، والصواب والخطأ، إذ نسب شعراً إلى سيدنا آدم ونسب شعراً إلى إبليس وإلى العمالقة وإلى الشياطين، ولكنه مع ذلك قدم فصولاً لها أهميتها رغم قصرها، ذكر فيها شيئاً من أخبار كبار الشعراء في الجاهلية كزهير والنابغة ولبيد والأعشى وعمرو بن كلثوم، وطرفة. كما يورد أخباراً عن الأعراب وبعض ملوك بني أمية.

وقد قسم القرشي مجموعته المختارة أقساماً سبعة، كل قسم منها يتضمن بعض قصائد يحمل كل منها اسماً خاصاً.

القسم الأول سماه: (المعلقات) ويتضمن قصائد كل من امرىء القيس، وزهير والنابغة، والأعشى، ولبيد، وعنترة.

والقسم الثاني سماه: (المجمهرات)، ومعناها المحكمة السبك، نسبة إلى وصف الناقة القوية بالمجمهرة، ويشتمل هذا القسم على قصائد لعبيد بن الأبرص، وعدي بن زيد، وبشر بن أبي خازم، وأميه بن أبي الصلت، وخداش بن زهير، والنمر بن تولب.

والقسم الثالث سماه: (المنتقيات) وهي قصائد انتقاها لكل من المسيَّب بن علس، والمرقِّش الأصغر، والمتلمّس، وعروة بن الورد، والمهلهل بن ربيعة، ودُرَيْد بن الصِّمة، والمتنخل بن عويمر الهذلي.

والقسم الرابع سماه: (المُذهَّبات) وضمَّنه قصائد لكل من حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، ومالك بن العجلان، وقيس بن الخطيم، وأحيحة بن الجُلاح، وأبي قيس بن الأسْلَت، وعمرو بن امرىء القيس.

والقسم الخامس وسماه: (أصحاب المراثي). جاء فيه بسبع قصائد جيدة من المراثي المشهورة مثل عينية أبي ذؤيب الهذلي ويائية مالك بن الريب التي يرثى بها نفسه، وعينية متمم بن نويرة، وقصيدة لذي جَدَن الحميري يرثى فيها دولة حمير، وأخرى لمحمد بن كعب الغنوي يرثى فيها أخاه، ومرثية لأعشى باهلة في أخيه أيضاً، ثم مرثية لأبي زيد الطائي في أخيه الجُلاح.

والقسم السادس سماه: (أصحاب المشوبات)، وقد يقصد بها ما شابها شيء من الكفر مع الإسلام، مثل رائية النابغة الجعدي، ولامية كعب بن زهير، ولامية القطامي، ولامية للحطيئة، وقصيدة زايية للشمَّاخ، ورائية لعمرو بن أحمر، وأخرى لتميم بن مقبل العامري.

أما المجموعة السابعة والأخيرة فقد سماها (أصحاب الملحمات) وتتضمن سبع قصائد مشهورة لسبعة من الفحول هم: الفرزدق، وجرير، والأخطل، والراعي، وذو الرُّمَّة، والكميت، والطِّرِمَّاح بن حكيم.

وإذا كان لبعض هذه التسميات معنى مقنع كالمعلقات والمراثي والمشوبات، فإن بقية التسميات قد تكون مجرد تسميات يتم بها التمييز والتفريق بين كل منها وغيرها، وربما كانت هذه التسميات مألوفة قبل تصنيف هذه المجموعة وأثناءه، فاتخذها أبو زيد القرشي عناوين يندرج تحت كل منها ما يلائمه ويوافق معناه من القصائد.

٤ ــ ديوان الحماسة ـ لأبي تمام

إلى جانب المجموعات السابقة، وُجدت مجموعات شعرية أخرى منتقاة، حملت اسم ديوان الحماسة، أو الحماسة، كحماسة أبي تمام، وحماسة البحتري، وحماسة أخرى لابن الشجري، وحماسة الخالديّيْن[١]، والحماسة البصرية[٢]. والحماسة المغربية[٣].

ويختلف هذا النوع من المجموعات الشعرية عن غيره. من المجموعات التي أشرنا إليها، في أن مجموعات الحماسة لا تذكر القصائد المختارة كاملة، بل تختم بالمقطعات والأبيات القليلة المختارة من المطولات، كما أنها تعتمد في تبويبها على ذكر المعاني الشعرية المشهورة كالحماسة والرثاء، والنسيب، والهجاء، وما إلى ذلك.

أما حماسة أبي تمام، فإن جامعها ومصنفها هو شاعر العربية الكبير أبو تمام حبيب بن أوس الطائي المتوفى سنة ٢٣١ هـ.

وقسَّم أبو تمام ما جمعه وانتقاه وصنفه من شعر، تحت عناوين معينة، يدل كل منها على الغرض الذي قيلت فيه الأبيات، وبدأ أبو تمام هذه الأقسام بالحماسة، ثم المراثي، ثم الأدب[٤]، ثم النسيب، ثم الهجاء، ثم الأضياف، ثم المديح، ثم السير والنعاس، ثم الصفات، ثم المُلح، وآخرها مذمة النساء. وعندما لم يجد أبو تمام اسماً بعينه من تلك الأسماء يصلح عنواناً للمجموعة، أطلق اسم النوع الأول عليها وهو «الحماسة» وعُرفت هذه المختارات

---

(١) الخالديان هما: أبو عثمان سعيد، وأبو بكر محمد، ابنا هاشم الخالدي، وكانا شاعرين من شعراء سيف الدولة. وتعرف حماستهما أيضاً باسم (الأشباه والنظائر).

(٢) وجمعها صدر الدين بن أبي الفرج بن الحسين البصري، المتوفى سنة ٦٥٩ هـ. وكان قد قدمها إلى الملك الناصر أمير حلب سنة ٦٤٧ هـ.

(٣) وجمعها يوسف بن محمد البياسي التونسي المتوفى سنة ٦٥٢ هـ.

(٤) ويعنى بالأدب: السلوك والتربية.

بحماسة أبي تمام.

وتضم حماسة أبي تمام ثمانمائة وإحدى وثمانين قصيدة أو مقطوعة، وتسمى بالحماسة الكبرى، تمييزاً لها عن حماسة أخرى لأبي تمام، أقل حجماً من تلك المجموعة، وتسمى هذه المجموعة الصغيرة بالحماسة الكبرى، أو بالوحشيات، وهما متشابهتان تقريباً من حيث الأبواب والموضوعات.

وقد استهل أبو تمام مختاراته الحماسية بمقطوعة أو بأبيات لشاعر من بني العنبر تعتبر من أكثر الشعر العربي إثارة للحماس، لأنها تحث قوما متكاسلين عن مناصرة واحد منهم، وتحاول الأبيات إثارة النخوة فيهم وتحريك الغيرة حين يذكر الشاعر أنه لو كان من قبيلة مازن ما حدث له ما حدث من امتهان ومذلة، ولكن قومه رغم كثرة عددهم لا تحركهم غيرة، ولا يثيرهم امتهان وظلم يقع على واحد منهم.

وتتميز حماسة أبي تمام بذوق مصنفها، أبي تمام، وهو ذوق شاعر دقيق ذواق، بذل ـ جهداً في اختيار ما اختار ليجيء اختياره معبراً عن المقصود، ـ مصوراً للغرض الذي اختيرت الأبيات من أجله، لذلك لم يهتم أبو تمام بأن يختار لشعراء مشهورين، بل اعتمد في جودة الاختيار على جودة النص وقوة تعبيره عن الغرض مهما كان صاحب النص مغموراً.

وقد حظيت حماسة أبي تمام باهتمام الرواة والشراح، ربما بما يفوق اهتمامهم بشعره، فقد توفر على شرحها عدد من العلماء يجاوز العشرين، من أشهرهم أبو بكر الصولي (ت ٣٣٥هـ)، والآمدي (ت ٣٧١ هـ) صاحب كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحتري، ومن شراح حماسة أبي تمام أيضاً، أبو الفتح بن جنى (ت ٤٢١هـ)، وهو أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) وأبو علي أحمد بن محمد المرزوقي (ت ٤٢١هـ)، وأبو العلاء المعري الشاعر (ت ٤٤٩ هـ)، وأبو زكريا يحيى بن علي التبريزي (ت ٥٠٢هـ)، وأبو الفضل عليّ الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)، وأبو المحاسن

مسعود بن علي البيهقي (ت ٥٤٤هـ)، وأبو البقاء العكبري (ت٦١٦هـ).

ومن المحدثين محمد سعيد الرافعي، والشيخ سيد المرصفي وغير هؤلاء وهؤلاء. غير أن أشهر الشروح مما بين أيدينا شرحان تميزا بالدقة والإتقان، أحدهما شرح المرزوقي وقد اهتم بالجانب الأدبي فأبرز حسن التذوق الفني للنصوص، وتقريب المعاني الشاردة وتوضيحها وتبسيطها للقارىء. أما الثاني فهو شرح أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي، الذي اهتم بالجانب اللغوي، وإبراز ما في النصوص من قضايا نحوية.

وقد طبعت حماسة أبي تمام وحدها عدة مرات، وطبعت بشرح التبريزي أول مرة مصحوبة بترجمة إلى اللغة اللاتينية، في أوروبا، بعناية المستشرق الألماني فريتاج، في منتصف القرن التاسع عشر، ثم طبعت مع شرح التبريزي فقط في مطبعة بولاق بمصر في أربعة أجزاء سنة ١٢٩٦هـ، ثم أعيد الطبع مع شرح التبريزي بعناية الأستاذ محي الدين عبد الحميد بمصر، ثم طبعت الحماسة مع شرح المرزوقي عليها بمصر في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥١ بتحقيق للأستاذين أحمد أمين وعبد السلام هارون وأعيدت هذه الطبعة سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٨ م.

من كتب الثقافة الأدبية العامة

- كتاب الحيوان للجاحظ.
- كتاب الكامل للمبرِّد.
- كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة.
- كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه.



١ ـ كتاب الحيوان ـ للجاحظ

الجاحظ هو عمرو بن بحر بن محبوب، سُمي بالجاحظ لشحوظ ـ أي نتوء ـ كان في عينيه، ولد سنة ١٥٠هـ، وكانت سنة٢٥٥هـ نهاية حياة هذا العالم الذي كان وما يزال شغل الدارسين والمحققين والعلماء فيما خَلَّف من تراث أدبي، بالمعنى الواسع الشامل لكلمة أدب، ولعل الجاحظ قبل سواه هو مبتدع هذا النوع الموسوعي من الكتب الأدبية، والمصنفات الفنية الجامعة لألوان شتى من فنون المعرفة. فقد تمثَّل الجاحظ ثقافة عصره في كتبه أحسن تَمثُّل، ذلك العصر الذهبي، من حياة الأمة العربية، عصر هارون والمأمون، عصر ازدهار العلوم العربية والمعربة، وكان الجاحظ صاحب عقل واع مستوعب، وهمة لا تفتر ولا تعرف الكلل في التحصيل والجمع والنسخ والتأليف، فأثرى المكتبة العربية بقدر هائل من الكتب المتنوعة الشاملة، ساعده على ذلك فطنة فائقة، ونظر ثاقب، وأسلوب متميز حيّ أشاع في مؤلفاته نبضاً ضَمِن لها الجدة والتجدد على مر العصور.

واجتمع للجاحظ إلى علمه الغزير، ذوق أدبي فني، مكنه من النفوذ إلى قلب القارىء بما له من قدرة فائقة على انتقاء اللفظ، واختيار التعبيرات المأنوسة، والتنقل من فكرة إلى غيرها، ومن موضوع إلى آخر، في إطار من الظرف، والخفة والبراعة في الاستيفاء والتفصيل والتقصي، والنقد البليغ النفَّاذ.

واستطاع الجاحظ أن يحول أنظار الناس في وقته عن قبح صورته، إلى إشراق فنه، وحسن أدبه، وجمال عبقريته، ونستعير في هذا الصدد عبارة أستاذنا الدكتور طه الحاجري في كتابه عن الجاحظ ص١٧٦ : (لقد

توارى الجاحظ القبيح الصورة، البَذُّ الهيئة، الذي كانت الأعين تقتحمه لقبحه وبذاذته، خلف الجاحظ الذكي المُبْدِه الظريف، الرائع الحجة، الفصيح اللسان، تمتد إليه الأبصار، وتصغي له الأسماع، لقوة عارضته، وروعة لهجته».

وكانت عبقرية الجاحظ فيضاً دافقاً نافعاً من المؤلفات والمصنفات العلمية التي أذاعت صيته، وخلدت ذكره، وجعلت العلماء والدارسين حتى يومنا، ينقبون عن أصله ونسبه، يتلمسون أصل تلك العبقرية، وجذورها الوراثية.

وقد قسَّم أستاذنا الدكتور طه الحاجري في كتابه السابق ذكره، حياة الجاحظ المنتجة إلى عهدين، وقسَّمَ العهد الثاني إلى فترتين تنقسم أولاهما إلى مرحلتين، والفترة الثانية إلى ثلاث مراحل. والعهد الأول هو العهد البَصْري - أي حياته في البصرة - وهو عهد التحصيل والتزود بالعلم، والعهد الثاني العهد البغدادي الذي كان عهد النضوج والإنتاج العلمي الوفير، على أن العهد الأول لم يكن خلواً من الإنتاج، بل أنتج فيه كتب الإمامة، إذ ألَّف كتاب العثمانية، وكتاب إمامة معاوية، وكتاب إمامة بني العباس، وكتاب وجوب الإمامة، وكتاب الإمامة عند الشيعة.

وكان العهد الثاني من حياة الجاحظ، وهو العهد البغدادي، ينقسم إلى فترتين أولاهما تنقسم كما قلنا إلى مرحلتين، فكتب في المرحلة الأولى من الفترة الأولى كتاب القحطانية والعدنانية، وكتاب الموالي والعرب، وكتاب الصُّرحاء والهُجَناء، وكتاب فخر السودان، وكتاب طبقات المغنين، ورسالة القيان (في سياق الكلام عن طبقات المغنين).

وفي المرحلة الثانية من الفترة الأولى من حياته في بغداد، ألَّف رسالة الجد والهزل، ورسالة التربيع والتدوير، ورسالة مدح التجار وذم عمل السلطان، وكتاب فضل هاشم على عبد شمس، وكتاب مناقب التُّرك وعامة جند الخلافة (الجزء الثاني)، وكتاب الشعوبية.

ثم كانت المرحلة الأولى من الفترة الثانية إبان حياته في بغداد،

فألف فيها كتاب الفُتْيَا، وكتاب حجج النُّبُوَّة، وكتاب نَظْم القرآن، وكتاب آي القرآن، وكتاب مسائل القرآن، ورسالة المعاد والمعاش، وكتاب خلق القرآن، وكتاب الرد على المشَبِّهَة.

وفي المرحلة الثانية من الفترة الثانية في بغداد، أَلَّف الجاحظ كتاب الرد على النصارى، وكتاب الرد على اليهود، وكتاب مناقب التُّرك وعامة جند الخلافة (الجزء الأول) وكتاب فصل ما بين العداوة والحسد.

وفي أخريات أيامه، وهي المرحلة الثالثة من الفترة الثانية في بغداد أَلَّف الجاحظ كتاب البلدان، وكتاب الحيوان، وكتاب البيان والتبيين، وكتاب النساء، وقد مات الجاحظ عن زهاء ثلاثمائة وستين مؤلفاً في شتى ألوان المعرفة. وقد روى أبو حيان عن عليّ بن عيسى النحوي عن أبي بكر بن الأخشاد أن الجاحظ ذكر أسماء كتبه في أول كتاب الحيوان، ليكون ذلك كالفهرست[٣].

كتاب الحيوان:

وباستقراء كتاب الحيوان يتضح أن الجاحظ كتبه في أخريات أيامه، حين اشتدت عليه العلة، إذ كان قد أصابه الفالج والنقرس، فجانبه الأيمن كان منقرساً حتى لو أن ذبابة مرت عليه لَغَوَّثَ أي صاح من الألم، والجانب الأيسر كان مفلوجاً حتى لو أنه نُشر بالمناشير ما أحسّ به، ففي كتاب الحيوان يبدو الجاحظ متبرماً بالناس من أهل جيله، شاكياً منهم، سيء الظن بهم، مستصغراً همتهم[١].

وقد توخى الجاحظ في كتاب الحيوان «اليُسر وسهولة المأخذ حتى لم يذكر فيه من الأبواب الطوال شيئاً، كفَرق ما بين الجن والإنس، وفرق ما بين الملائكة والأنبياء، وفرق ما بين الأنثى والذكر، إلى آخر هذه الموضوعات، وأنه يحتال له حتى يصوره للقارىء في أحسن صورة، فيقلبه منه في الفنون المختلفة، من القرآن إلى الحديث إلى الشعر

(١) الجاحظ حياته وآثاره للدكتورطه الحاجري ص ٣٩٧ - ٣٩٨
(٢) السابق ص ٢٩٨.

الصحيح الظريف إلى المثل السائر الواقع إلى طُرَف الفلسفة والغرائب التي صححتها التجربة»[٢].

ويعتبر الجاحظ أول مَنْ ألَّف مِن العرب كتاباً جامعاً في علم الحيوان، وقد أفاد في تأليفه ممن سبقوه في هذا المضمار من غير العرب، مثل ديموقراطيس، وأرسطاطاليس اليونانيين اللذين كتبا في الحيوان، وكان ما كتباه ضمن ما تُرجم إلى العربية من كتب اليونان، وقد ذكر الجاحظ في كتابه كثيراً من آراء الذين سبقوه في الكتابة عن الحيوان، فقد سبقته محاولات غير جامعة في الكتابة عن الحيوان لطائفة من العلماء العرب، مثل كُتُب الإبل لأبي حاتم السجستاني (. . . ـ ٢٤٨هـ) ، وللأصمعي (١٢٢ ـ ٢١٦هـ)، وللنضر بن شُميل (١٢٢ ـ ٢٠٣هـ) ولأبي زياد الكلابي، ولآمد بن حاتم الباهلي (. . . ـ ٢٣١هـ).

وكُتُب الخيل لابن قتيبة (٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ)، ولابن الأعرابي (١٥٠ ـ ٢٣١هـ)، ولأبي عبيدة ولأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي (. . . ـ ٢٤٥هـ)، ولأبي محلم محمد بن هشام الشيباني (. . . ـ ٢٤٥هـ)، ولأحمد بن حاتم.

وكُتُب الغنم والشاء، لأبي الحسن الأخفش (. . . ـ ٢١٥هـ) وللنضر بن شُميل، وللأصمعي.

وكُتُب الوحوش، للأصمعي، ولأبي زيد أستاذ الجاحظ (١١٩ ـ ٢١٥هـ) ، ولأبي حاتم السجستاني.

وكُتُب الطير، لأبي حاتم السجستاني، وللنضر بن شميل، ولأحمد بن حاتم الباهلي، وكتاب البازي والحمام والحيات والعقارب، لأبي عبيدة، وكتاب الفَرَس للأصمعي، وكتاب النحل والحشرات لأبي حاتم السجستاني، وكتاب النحل والعسل للأصمعي. وهذه المحاولات التي سبقت الجاحظ «. . . لم تؤلف للقصد العلمي الخالص، وإنما أريد بها

---

(٣) انظر معجم الأدباء ٦/٧٢ ـ ٧٣.

أن تكون باحثة في اللغة أولاً، فهي بمثابة معجمات لغوية خاصة بما أُلفت له، فهي لا تبحث في طبع الحيوان وخصائصه بحثاً، ولا تعني بدقائقه وغرائزه وأحواله وعادِه، وإنما تجعل همها الأولَ والثانيَ هو اللغة، وقد يكون منها أن نبحث البحث العلمي، ولكن على سبيل الاستطراد، ومشايعة القول»[1].

أما كتاب الحيوان للجاحظ فهو كتاب علمي جامع لأنواع الحيوان، مفصل القول عن ممالك الحيوان وأجناسه، وطباعه، وخصائصه، وأسمائه، ومضاره، ومنافعه، وتكاثره، وما ورد عنه من أقوال، وأخبار، وقصص، وأساطير، وأشعار.

وإذا كان كتاب الحيوان للجاحظ ينقصه الترتيب وشيء من التهذيب، فإن ذلك شأن تناول أي موضوع جديد متشعب الأطراف، متعدد الأغراض.

وقد ذكر الأستاذ عبد السلام هارون في مقدمته المستفيضة لكتاب الحيوان للجاحظ، أهم المصادر التي استقى منها الجاحظ مادته، وأهمها القرآن الكريم والحديث النبوي، ثم الشعر العربي وبخاصة البدوي منه، وكان الجاحظ شديد الثقة في ذلك الشعر، كما أنه استفاد من كتاب الحيوان لأرسطو، غير أنه لم يأخذ عن أرسطو دون نظر وفكر وتدقيق، بل يرد على ما أورده أرسطو إذا كان غير مطابق للواقع، من ذلك مثلاً ما ذكره أرسطو عن أنه أبصر ثوراً وثب بعد أن خُصي، فنزا على بقرة فأحبلها، ويعقب الجاحظ على مقولة أرسطو بقوله: «ولم نجد هذا عن معاينة، والصدور تضيق بالرد على أصحاب النظر، وتضيق بتصديق هذا الشكل»[1].

وفي تناول الجاحظ لنصوص أرسطو في كتاب الحيوان، تتضح أمانة العالم وإنصافه، فهو في أكثر من موضوع يلتمس العذر لصاحب النص

(١) انظر مقدمة الأستاذ عبد السلام هارون محقق كتاب الحيوان للجاحظ.

(١) الحيوان للجاحظ ٥/٥٠٢.

ويرجح أن الخطأ قد يكون وقع من قِبَل المترجم الذي قد يكون أساء فهم النص الأصلي عند الترجمة، ولم يتوخ الدقة، فيقول: «ولعل المترجم قد أساء في الإخبار عنه»، فهو يرى أن فساد المعنى أحياناً يحدث من فساد الترجمة»[٢].

ومن مصادر الجاحظ أيضاً في كتاب الحيوان، علم الكلام، وما ولّده المعتزلة من كلام، فالكتاب على حد قول الأستاذ عبد السلام هارون[٣]، معرض طريف ـ وبخاصة الجزء الأول والجزء الثاني ـ لهذه المنازعات الكلامية، فكثيراً ما يمر بك قول الجاحظ: «قال صاحب الكلب»، « «قال صاحب الديك»، و«وقال صاحب الحمام»، . . إلخ. ويبدو أنه كان في عصر الجاحظ نزاع كلامي خاص في المقايسة بين الكلب والديك، يتقدم الفريق الأول أبو إسحاق إبراهيم النظّام، ويتزعَّم الفريق الآخر مَعْبد[٤]. وكان المصدر الأخير الذي استقى منه الجاحظ، واعتمد عليه في تأليف كتاب الحيوان، هو الخبرة الشخصية، وصفة العالم المتأصلة عنده، وهي النزوع الدائم إلى سؤال أهل العلم والخبرة فيما هم به عالمون، فكان يجالس ويسأل الملاحين، والحوائين، والصيادين، والعبيد الذين يوكل إليهم أمر بعض الحيوانات كالأفيال مثلاً.

هل كتاب الحيوان آخر كتاب ألفه الجاحظ؟

يرى الباحثون والمعنيون بمكتبة الجاحظ أن كتاب الحيوان، وإن كان يشير إلى أنه كتب في أواخر أيام الجاحظ من حيث أنه يذكر فيه كتبه التي ألفها، فإن لهذا الكتاب صِنواً لصيق العهد به، وهو كتاب البيان والتبيين، فهل هذا الكتاب توأم لكتاب الحيوان؟ أم هو عقبه؟

يقول الأستاذ عبد السلام هارون في مقدمته لكتاب الحيوان: «وأحب أن أشير هنا إلى أن الجاحظ ابتدأ في تأليف كتاب الحيوان، قبل أن يبدأ في صنوه الآخر في الذيوع والشهرة: البيان والتبيين، وقد عثرت

(٢) المرجع السابق ٥٢/٢، ١٩/٦.
(٣) المرجع السابق ـ المقدمة.
(٤) المرجع السابق ٣٥٦/١، ١٥٣/٢.

بنص قاطع في البيان والتبيين (حـ٣ ص ٣٠٢) يدل على ذلك. قال: «كانت العادة في كتب الحيوان أن أجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الأعراب ونوادر الأشعار، لِمَا ذكرت من عَجَبِك بذلك. فأحببتُ أن يكون حظ هذا الكتاب في ذلك أوفر، إن شاء الله تعالى».

أما الدكتور طه الحاجري ـ وهو أكثر العلماء والمحققين فهماً ودراية واستيعاباً للجاحظ وآثاره ـ فإنه يخرج بالنتيجة السابقة تقريباً، اعتماداً على أكثر من نص من نصوص البيان والتبيين، ومن كل نص يخرج باستنتاج له وجاهته وأهميته، فالنص السابق الذي جاء في الجزء الثالث والأخير من البيان والتبيين، يرى الدكتور الحاجري فيه، أنه نص قاطع الدلالة على أن كتاب الحيوان قد سبق وضعُه الوقتَ الذي كُتبت فيه العبارة التي وردت في الجزء الثالث والأخير من البيان والتبيين ص ٣٠٢، أما العبارة الأخرى التي وردت في الجزء الأول من البيان والتبيين (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٨ ـ ص ٦٠): «وفي هذا كلام يقع في كتاب الحيوان» فهي عبارة لا يشير فيها الجاحظ إلى كتاب الحيوان بصيغة الماضي، بل بصيغة المضارع، فقد يكون معنى ذلك أن موضع هذا الكلام هو كتاب الحيوان، لا أنه وقع فعلاً فيه. ويُجمل الدكتور الحاجري ما خرج به من إشارات الجاحظ بقوله[1]: «وإذن فالجاحظ يشير في كتاب البيان والتبيين إلى كتاب الحيوان إشارتين مختلفتي الدلالة، فمرة يشير إليه، أو إلى بعض فصوله، على أن وجوده إنما هو وجود ذهني لم يتحقق في الخارج. فما تأويل هذا! لقد ذكرنا من قبل أن الإشارة الأولى التي تفيد وجود كتاب الحيوان كاملاً، إنما وقعت في الجزء الأخير من البيان والتبيين، وأن الإشارة الأخرى التي تشير إلى موضوعات لم تُكتب في كتاب الحيوان بعد، إنما وقعت في الجزء الأول منه، أو في النصف الأول من ذلك الجزء. ومعنى هذا أن الجاحظ حين وصل من كتاب البيان والتبيين إلى موضع تلك الإشارة، كان كتاب الحيوان ماثلاً أمامه، له كيانه الخاص،

(١) الجاحظ حياته وآثاره ص ٤٢٤ ـ ٤٢٥.

وشخصيته الكاملة، ولم يكن كذلك حين كان يبدأ ذلك الكتاب، أعني البيان والتبيين، فكانت طائفة من فصوله لا تزال أمراً مقدوراً، لم تكتب بعد فتصبح حقيقة ماثلة فيه، ولم يفرغ منه فتخرج من دائرته.

ومن هذا نستطيع القول بأن الجاحظ وضع كتاب البيان والتبيين في أثناء وضعه لكتاب الحيوان، وأنه فرغ قبل أن ينتهي من البيان والتبيين.

مما سبق يتضح أن كلا من الكتابين العظيمين ذائعي الصيت والشهرة، كتاب الحيوان، وكتاب البيان والتبيين، تواكبا كتابة، غير أن (الحيوان) بدأ قبل صنوه، وانتهى قبل الانتهاء من الآخر، وربما اختمرت فكرة البيان والتبيين في ذهن الجاحظ في أوائل محاولات تأليف كتاب الحيوان، وذلك حين تعرض في الجزء الأول منه للقول في البيان بادئاً بالتقسيمات التقليدية الممهدة لموضع الكتاب، فيقسم العالم بما فيه إلى جماد ونامٍ، والنامي إلى نبات وحيوان، والحيوان إلى فصيح وأعجم، ثم يأخذ في الحديث عن القلم والخط والكتابة ووسائل الإفصاح وصور البيان، وإبان هذا الاستطراد عَنَّ له أن يخصص كتاباً عن البيان، ليشبع نهمه، ويرضى نزعته الكلامية المتأصلة، وحنينه إلى المناظرة والخطابة اللتين ارتوي شبابه العلمي من رحيقهما، لذلك لم يجيء كتاب البيان والتبيين كتاباً عن صناعة الكتابة بقدر ما هو كتا في صناعة الخطابة والمناظرة، فصناعة الكتابة تناولها في الجزء الأول من كتاب الحيوان، وأورد إشارات عنها في أجزاء أخر من الكتاب.

ومما يميز منهج الجاحظ أيضاً في كتاب الحيوان، أنه كان بالغ الحرص على شد القارىء، وإثارة انتباهه إلى كل ما أورده فيه، ومن ذلك التزم كل ما هو بعيد عن إملال القارىء وإرهاق ذهنه؛ خاصة وأن الكتاب طويل، متنوع الأفكار، فجعل من الآثار العربية عمدة له في صفة الحيوان ذلك أنها تجمع ضروباً مما يود أن تجتمع لكتابه، ففيها الشاهد الوثيق، والوصف الرائع الدقيق، والجمال الفني الذي يستميل القارىء ويجدد نشاطه الذهني.

ولكي يوفر الجاحظ لقارئه كل متعة وفائدة، عانى كثيراً في تأليف هذا الكتاب، وليس أبلغ في وصف ذلك من قوله:[1] «وقد صادف هذا الكتاب منّي حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه: أول ذلك: العلة الشديدة، والثانية: قلة الأعوان. والثالثة: طول الكتاب. والرابعة: أني لو تكلفت كتاباً في طوله وعدد ألفاظه ومعانيه، ثم كان من كُتُب العَرَضِ والجوهر، والطَّفْرة والتوليد والمداخلة، والغرائز والنحاس[2]، لكان أسهل وأقصر أياماً وأسرع فراغاً، لأني كنت لا أفزع فيه إلى تَلقُّط الأشعار، وتتبع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن، والحجج من الرواية، مع تفرُّق هذه الأمور في الكتب».

وقد نشر كتاب الحيوان للجاحظ فيما بين سنتي ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م و ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م.

---

(١) الحيوان ٤/ ٢٠٨، ٢٠٩.

(٢) يقصد بالنحاس: الطبيعة.

كتاب الكامل للمبرِّد

والمبرِّد هو إمام العربية ببغداد، وزعيم المذهب البصري في اللغة والنحو في عصره، الأديب الإخباري أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، الملقب بالمبرِّد، كان مولده سنة ٢١٠ هـ في البصرة، وتوفى سنة ٢٨٥ هـ في بغداد[١]. يتصف المبرِّد بسعة الثقافة، وغزارة المعرفة في اللغة، والأخبار، والشعر، والنثر، صنَّف العديد من الكتب في النحو والصرف، والعروض والقوافي، وفي النقد والبلاغة والأخبار. وكان لفرط علمه يلقب بشيخ أهل النحو، وحافظ علم العربية، اتصف بالفضل، والثقة في الرواية، وحسن المحاضرة والأخبار المليحة والنوادر الكثيرة[٢].

وقد تعاصر المبرِّد وثعلب وكلاهما رأس مدرسة نحوية، المبرِّد زعيم المدرسة البصرية، وثعلب زعيم المدرسة الكوفية في اللغة والنحو، وكان الشعراء إذا مدحوا أحدهما قارنوه بالآخر إثبتا لعلو كعبه وسعة علمه.

جاء في وفيات الأعيان ١١٤/٤، أن ثعلب كان يتفادى لقاء المبرِّد ومناظرته، فلما سُئل أبو عبد الله الدينوري صديق ثعلب عن سبب ذلك قال: لأن المبرِّد حَسَنُ العبارة، حلو الإشارة، فصيح

---

(١) يذكر ابن النديم في الفهرست ص ٨٨ ذلك التاريخ في سنة مولده ووفاته، ويذكر رواية للصولي أن المبرد ولد سنة ٢٠٧ هـ.

(٢) تاريخ بغداد ـ للخطيب البغدادي ٣/ ٣٨٠.

اللسان، ظاهر البيان، وثعلب مذهبه مذهب المعلمين، فإذا اجتمعا في محفل حُكِم للمبرِّد على الظاهر إلى أن يُعرف الباطن. وربما لهذا السبب مدح كثير من الشعراء المبرِّد وفضلوه على ثعلب، ويذكر الخطيب البغدادي[3] أن ثعلب بكى المبرِّد حين مات، وبكى نفسه معه.

يقول ابن النديم عن المبرِّد[4]: «وقال شيخنا أبو سعيد رحمه الله: انتهى النحو بعد طبقة الجَرْميّ والمازني إلى أبي العباس محمد بن يزيد الأزدي الثمالي، وهو من ثمالة قبيلة من الأزد، وأخذ النحو عن الجرمي والمازني وغيرهما، ويقال إنه ابتدأ كتاب سيبويه على الجرمي، وختمه على المازني...».

ثم يذكر ابن النديم بعد ذلك أسماء ما يقرب من أربعة وأربعين كتاباً من تأليف المبرِّد، متنوعة الأغراض، متعددة المعارف. منها: كتاب الكامل، وكتاب الاشتقاق، وكتاب القوافي، وكتاب الخط والهجاء، وكتاب المذكر والمؤنث، وكتاب المقصور والممدود، وكتاب المدخل في النحو، وكتاب العروض، وكتاب التصريف، وكتاب شرح كلام العرب وتخليص ألفاظها ومزاوجة كلامها وتقريب معانيها، وكتاب البلاغة، وكتاب ما اتفقت ألفاظه واختلفت معانيه في القرآن، وكتاب إعراب القرآن، وكتاب معاني القرآن، وكتاب صفات الله وجل وعلا، وكتاب العبارة عن أسماء الله تعالى، وكتاب الروضة، وكتاب احتجاج القراءة، وكتاب الرياض المؤنقة.

ويظهر مدى تأثره بكتاب سيبويه فيما ألَّفه عنه مثل: كتاب المدخل إلى سيبويه، وكتاب الرد على سيبويه، وكتاب الزيادة المنتزعة من سيبويه، وكتاب شرح شواهد كتاب سيبويه، وكتاب معنى كتاب سيبويه، كما أنه ألف كتاباً عن كتاب الأخفش سماه

---

(٣) المرجع السابق ٣/٣٨٧.

(٤) الفهرست ص ٨٧ - ٨٨.

كتاب معنى كتاب الأوسط للأخفش.

كما أنه كتب عن الأخلاق كتاباً سماه كتاب الحث على الأدب والصدق، وكتاباً سماه كتاب أدب الجليس، وكتاب الممادح والمقابح. وله كتاب التعازي. وله كتب أخرى متنوعة ما بين الأدب والتاريخ والأنساب والأخبار، منها كتاب قواعد الشعر، وكتاب ضرورة الشعر، وكتاب محطان وعدنان، وكتاب الأنواء والأزمنة.

ولم يسلم المبرِّد ـ على علمه هذا ـ ممن كانوا ينفسون عليه شهرته، فكانوا يهاجمونه، ويتصيدون له الهفوات، ويرصدون له بعض العثرات وشيئاً من الكبوات التي قد يتعرض لها أي عالم نابه ذائع الصيت.

وكانت شخصية المبرد قريبة الشبه في بعض معالمها العلمية من شخصية الجاحظ من حيث إشاعة روح الفكاهة، والملح اللطيفة، والنوادر الظريفة في بعض أماليه وإن لم يبلغ في هذا مبلغ الجاحظ بالتأكيد.

كتاب الكامل:

يذكر المبرِّد في مقدمة كتاب الكامل، منهجه ومحتواه بقوله: «هذا كتاب ألَّفناه يجمع ضروباً من الآداب، ما بين كلام منثور، وشعر مرصوف، ومثل سائر، وموعظة بالغة، واختيار من خطبة شريفة، ورسالة بليغة...».

وقد قسم المبرِّد كتاب الكامل إلى أبواب، ولكنه تقسيم ظاهري غير موضوعي، إذا يشتمل كل باب على أكثر من موضوع، وأكثر من معنى، ما عدا بعض الأبواب القليلة التي يعقدها المؤلف على معالجة نوع واحد من الأخبار أو المختارات، مثال ذلك الباب السابع والأربعون في بعض ما مر للعرب من التشبيه المصيب والمحدثين بعدهم، والباب التاسع والأربعون بعنوان «من أخبار الخوارج». وحتى في مثل هذه الأبواب نجد مجموعات من الأخبار

والاختيارات المتنوعة في غير ترتيب أو نسق أو نظام، مع استطرادات لا صلة لها بالفكرة الرئيسية في الباب. ورغم ذلك فإن هذه الطريقة في التأليف آنذاك كانت مألوفة يتسم بها المؤلف الأديب أكثر من غيره.

فكتاب الكامل للمبرِّد كتاب أدب بالمفهوم الواسع للأدب، أي أنه كتاب ثقافة أدبية شاملة. وهو من هذه الوجهة شبيه بكتابي الجاحظ (الحيوان) و(البيان والتبيين)، فالمبرد يتنقل في كتابه من فكرة إلى أخرى، ومن موضوع إلى غيره.

فكتاب الكامل يضم بين دفتيه قدراً وافراً من أية القرآن الكريم مفسرة تفسيراً واضحاً يستمد منه الشواهد اللغوية والنحوية، بالإضافة إلى عدد كبير من الأحاديث النبوية الصحيحة الإسناد، كما يشمل الكثير من أمثال العرب وخطبهم في عصور مختلفة، وفيه من أخبار الحكماء وأقوالهم، مثل الحسن البصري وأسماء بن خارجة، والأحنف بن قيس وغيرهم من المشاهير والمغمورين.

ويتجلى في الكتاب ذوق المبرِّد الأدبي فيما اختاره من أشعار العرب الجميلة، وأخبارهم، مولدين وغير مولدين، مع تركيز أحياناً على موضوعات معينة من الشعر كالمديح والوصف والفخر والهجاء والحكم، كما أفرد للخمر دراسة مفصلة حيناً، مجملة حيناً آخر مفرقة أحياناً في أجزاء الكتاب، ولم يغفل الرثاء فاختار منه نماذج فريدة.

وأعطى المبرِّد في كتابه للبلاغة حقها في صورها المختلفة كالتشبيه الذي أفرد له ولشواهده حيزاً غير قليل من صفحات الكتاب، كذلك عالج المجاز القرآني مع الاستشهاد بالآيات القرآنية الكثيرة.

كما اشتمل الكتاب على الأخبار التاريخية والوثائق الهامة في باب الخوارج مثلاً، وكالرسائل النفيسة التي تبودلت بين أبي جعفر

المنصور ومحمد النفس الزكية. أما اللغة والنحو وقضاياهما فإنها سمة واضحة في الكتاب، فالمبرِّد كما قلنا إمام مدرسة البصرة في اللغة والنحو.

وإذا كان كتاب الكامل للمبرِّد شبيه بكتابي الجاحظ آنفي الذكر، كما قلنا من حيث تعدد الموضوعات، والتنقل من فكرة إلى أخرى، فإن منهج المبرِّد في الروح التي صنَّف الكتاب في إطارها، شبيه بالروح الجاحظية في التأليف الأدبي الواسع، وهي روح الفكاهة، وعدم الاستقرار طويلاً على فكرة واحدة حتى لا يمل القارىء، فهو في ذلك قاصد، وإليه عامد، يتضح ذلك من قوله في الباب السادس والأربعين من كتابه: «نذكر في هذا الباب من كل شيء، لتكون فيه استراحة للقارىء، وانتقال ينفي الملل لحسن موقع الاستطراف. وتخلط ما فيه من الجد بشيء من الهزل، ليستريح إليه القلب، وتسكن إليه النفس...». فإذا انتقل من هذا الباب إلى الذي يليه استهله بقوله: «وهذا باب طريف نصل به هذا الباب الجامع الذي ذكرنا، وهو بعض ما مر للعرب من التشبيه المصيب، والمحدثين بعدهم.» ويقول في الباب الذي يلي السابقَيْن: «باب تجتمع فيه طرائف من حسن الكلام، وجيد الشعر، وسائر الأمثال، ومأثور الأخبار إن شاء الله...».

غير أن كتاب الكامل للمبرِّد يفترق عن كتابَيْ الجاحظ السابق ذكرهما في أنه أضيق أفقاً منهما، إذ يفتقر إلى ما غَنِي به كتابا الجاحظ من ثقافات أجنبية كالثقافة اليونانية والفارسية والهندية، كما أن كتابا الجاحظ أكثر غوصافى الحياة الاجتماعية آنذاك، وأشد اهتماماً بمذاهب الحياة الفكرية السائدة في عصر الجاحظ، منها مثلاً المذاهب الفلسفية والمذاهب العلمية.

كما أن كتاب الكامل بحكم اهتمامات صاحبه، تتجلى فيه بوضوح الصبغة اللغوية النحوية، وهذا ما لا نقع فيه على أثر في كتابَيْ الجاحظ، من هنا يعتبر كتاب الكامل للمبرِّد مصدراً له أهميته

من حيث اللغة والنحو بالإضافة إلى الأدب والتاريخ والأخبار المتنوعة.

وقد طبع كتاب الكامل أكثر من مرة. كما طبع مع شرح المرصفي عليه المسمى (رغبة الأمل من كتاب الكامل) في ٨ أجزاء بين سنتي ١٩٢٨ و١٩٣٠ م

كتاب عيون الأخبار ـ لابن قتيبة

وابن قتيبة هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ولد ببغداد سنة ٢١٣ هـ، وعاش في الكوفة بعض الوقت، ومات ببغداد سنة ٢٧٦ هـ[1]. ولم يعمر طويلاً كما عمَّر الجاحظ، وسمى بالدينوري لأنه كان قاضي الدينور مدةً، وهي جنوب غربي إيران، وقيل إن أباه مروزي، ولذا يلقب أحياناً بالمروزي.

وابن قتيبة كما شهد له ابن تيمية من أهل السنة، ذكر له ذلك في أكثر من موضع من كتاب تفسير سورة الإخلاص، وأنه كان يميل إلى مذهب أحمد وإسحاق. وقال فيه صاحب كتاب التحديث بمناقب أهل السنة والحديث: وهو أحد أعلام الأئمة والعلماء والفضلاء، أجودهم تصنيفاً، وأحسنهم ترصيفاً، له زهاء ثلاثمائة مصنف... وكان أهل المغرب يعظمونه ويقولون: من استجاز الوقيعة في ابن قتيبة يُتهم بالزندقة، ويقولون: كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه، لا خير فيه، قلت: ويقال: هو لأهل السُّنة مثل الجاحظ للمعتزلة،

---

(١) تعددت الروايات في سنة وفاة ابن قتيبة، فابن النديم يذكر أنها كانت سنة ٢٧٠ هـ الفهرست ص ١١٥. والخطيب البغدادي يورد روايتين إحداهما تقول ان وفاته كانت في ذي القعدة سنة ٢٧٠ هـ والأخرى تقول إنها كانت في أول ليلة من رجب سنة ٢٧٦ هـ. (تاريخ بغداد ١٠/١٧٠ ـ ١٧١).
ويستعرض الأستاذ أحمد محمد شاكر في مقدمة تحقيقه لكتاب الشعر والشعراء أن أرجح الروايات هي التي تذكر أن وفاة ابن قتيبة حدثت سنة ٢٧٦ هـ. لأنها رواية تلميذه أبي القاسم بن أيوب الصائغ.

فإنه خطيب السُّنَّة، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة[٢]. وإذا شابه الجاحظ من حيث ثقافته ومكانته الدينية فهو يشبهه أيضاً من حيث ثقافته العربية الصرف، ومن حيث غزارة انتاجه في التأليف المتنوع، فقد ألف قتيبة في القرآن، والحديث، وعلم الكلام، والفقه، والأخلاق والتاريخ والنحو واللغة والأدب، وقد تفوق ابن قتيبة على الجاحظ من حيث عنايته بالعلوم الإسلامية واللغوية، بينما كان الجاحظ أكثر اهتماماً بالدراسات الأدبية والاجتماعية.

وابن قتيبة كالجاحظ موسوعي المعارف والتأليف، فكلاهما كتب عن القرآن والقراءات، وعن الحديث النبوي، وإن اختلف مفهوم كل منهما عن الآخر باختلاف الانتماء المذهبي، وكلاهما كتب عن الأدب والنقد والحيوان، وإن كان ابن قتيبة لم يكتب عن الحيوان بصفة العموم والشمول، بل كتب عن الخيل وحدها دون سائر أنواع الحيوان، والجاحظ كتب عن النبات كتاب النخل والزرع، وابن قتيبة أيضاً له كتاب النبات، بل إن لابن قتيبة كتباً في موضوعات لم يطرقها الجاحظ كالميسر والقداح، والأطعمة والأشربة.

وقد ذكر ابن النديم لابن قتيبة عدداً كبيراً من الكتب منها[٣]: كتاب معاني الشعر الكبير ويحتوي على اثني عشر كتاباً، وكتاب عيون الشعر ويحتوي على عشرة كتب، وكتاب عيون الأخبار ويحتوي على عشرة كتب، وكتاب التفقيه، وكتاب الحكاية والمحكى، وكتاب أدب الكاتب، وكتاب الشعر والشعراء، وكتاب الخيل، وكتاب جامع النحو وكتاب مختلف الحديث، وكتاب إعراب القرآن، وكتاب ديوان الكتّاب، وكتاب فرائد الدُّر، وكتاب خلق الإنسان، وكتاب القراءات، وكتاب المراتب والمناقب من عيون الشعر، وكتاب التسوية بين العرب والعجم، وكتاب الأنواء، وكتاب المشكل، وكتاب دلائل

(٢) انظر مقدمة أحمد محمد شاكر لكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة.

(٣) انظر الفهرست ص ١١٥ - ١١٦.

النبـوة، وكتاب اختـلاف تأويـل الحديث، وكتـاب المعارف، وكتـاب جـامع الفقـه، وكتاب إصـلاح غلط أبي عبيدة في غـريب الحـديث، وكتاب المسائل والجوابات، وكتاب العلم، وكتـاب الميسر والقـداح، وكتاب حكم الأمثال، وكتاب الأشربة، وكتاب جـامع النحـو الصغير، وكتـاب الـرد على المشبهـة، وكتـاب آداب العشـرة وكتـاب غـريب الحديث.

كمـا أن لابن قتيبة كتـاب الرد على الشعـوبيـة، وكتـاب فضـل العـرب على العجم يدافـع في كل منهمـا عن العـرب، وينص على فضلهم على العجم بـالرغم من أن أصـل ابن قتيبة أعجمي، إذ هـو فارسي المنحدر، ولكنـه مسلم قوي الإيمـان، فـولاؤه الأول والأخيـر للإسلام ومَنْ بَلَّغ رسالته.

كمـا أن ابن قتيبـة في بعض كتبـه وبخـاصـة تلك التي تتسم بطابع التنوع في الموضوعات وكثرتها يعمل حساب اجتـذاب القارىء وعدم إملاله، فيشيع الفكاهة أحياناً ولكن بحسـاب، وليس كالجـاحظ الساخر بـطبعه، المـرح الفكه بـالسليقة، وربمـا كان مـزاح ابن قتيبة المقدور راجعاً تأثره بوظيفة القضاء التي قضى فيها روحـاً من الزمن، فطبعته بطابع الجد والوقار كما أشار إلى ذلك الأستاذ أحمد أمين[1].

كتاب عيون الأخبار:

وهـو أشهر كتب ابن قتيبـة رغم قيمـة بقيـة كتبـه ومنهـا الشعـر والشعـراء، وأدب، الكاتب، والمعـارف، والمعاني، وتـأويـل مختلف الحديث وغيرها.

وابن قتيبـة في كتابـه (عيون الأخبـار)، وسابقـه (أدب الكاتب) إنما ينهج نهـج المعلم والأستاذ الـذي يأخـذ بيد مَنْ يـريد الاشتغـال بصنـاعة الكتـابة، أو من كـان نـاقص الثقـافـة الأدبيـة من المشتغلين بالكتابة، فيقدم للمبتدىء آلات الكتابة وكيفية استعمـالها، وذلـك في

(١) ضحى الإسلام ١/٤٠٢.

(أدب الكاتب) الذي ضمَّنه مسائل لغويـة وإملائيـة، لا غنى للناشيء عن الإلمـام بها حتى يستطيع شق طـريقه بنجـاح، ثم يقـدم لـه في (عيون الأخبار) ما يحتاجه من ثقافة واسعة، ومعارف متنوعـة، توسـع أفقه، وتفتق مداركه، وتطلق لسانه وقلمه، فيقدم للقـاريء ما يـرضيه ويغنيه، ويوفـر له مـا يتطلع إلى معـرفته من شؤون الكـون والمجتمع والحياة.

لـذلك كـان طبيعياً أن يؤلف (أدب الكـاتب) ثم يُعقبـه بكتـاب (عيـون الأخبار) الـذي خلا من المبـاحث اللغويـة الخالصـة التي تم عرضها في (أدب الكاتب).

يتضح ذلك المنهج من حديث ابن قتيبة نفسه في خطبة كتـاب (عيون الأخبار) مبيناً ما كان يهدف إليه من تأليف كتابيه آنِفَيْ الذكر، فيقول:

«إني كنت تكلفت لمغَفَّـل التـأديب من الكُتَّـاب كتـابـاً في المعـرفة، وفي تقـويم اللسان واليـد[1]... وشـرطتُ عليـه مـع تَعَلُّم ذلك، تحفُّظ عيون الحديث، ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلاً إذا كـاتَبَ، ويستعين بمـا فيهـا من معنى لـطيف ولفظ خفيف حسن إذا حاور. ولمَّا تقلدْتُ له القيام ببعض آلته، ودعتني الهمة إلى كفـايته، وخشيتُ إنْ وَكَلْتُـه فيما بقي إلى نفســه، وعَوَّلتُ لـه على اختيـاره أن تستمر مريرته على التهاون... فأكملت له ما ابتدأت[2]...».

وابن قتيبـة في تقديم مـادة كتابـه (عيون الأخبـار) كـالجـاحظ، عـالم ومُعَلِّم، فهـو يُعَلِّم النـاشيء خُلق العلمـاء ودأبهم في تحصيـل علمهم، إذ يـطلب مـادة علمـه من الكبيـر والصغيـر، من العـالم والجاهل، من الخاصة والعـامة، من الكتب ومن الحيـاة، من خبرتـه

---

(١) يقصد بذلك كتابه (أدب الكاتب).

(٢) أي ألَّف كتاب (عيون الأخبار) مكملاً لسابقه (أدب الكاتب).

وتجاربه، ومن خبرة غيره وتجاربهم، فإن كان الجاحظ قد جمع مادة كتابيه (البيان والتبيين) و(الحيوان) من كل تلك المصادر، ومن أهل الخبرة، فإن ابن قتيبة ينهج النهج نفسه، ليس ذلك تقليداً للجاحظ، بل هذا دأب العلماء ونهجهم.

يقول ابن قتيبة في مقدمة كتابه (عيون الأخبار): «. . . واعلم أنا لم نزل نتلقط الأحاديث في الحداثة والاكتهال عمن هو فوقنا في السن والمعرفة، وعن جلسائنا وإخواننا، ومن كتب الأعاجم وسيرهم، وبلاغات الكتّاب في فصول من كتبهم، وعمن هو دوننا، غير مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سنا لحداثته، ولا عن الصغير قدراً لخساسته، ولا عن الأَمَة الوكعاء لجهلها، فضلاً عن غيرها فإن العلم ضالة المؤمن، من حيث أخذه نفعه».

ويعتبر ابن قتيبة سابق عصره من حيث منهج التأليف، أولى علامات هذا السبق، تلك المقدمات الخطب الضافية التي يبدأ بها مؤلفاته شارحاً فيها منهجه في تأليف كتابه، مبيناً غرضه منه، موضحاً مضمونه وما احتواه، كاشفاً طريقة تقسيمه وتبويبه. هذا فضلاً عن تجنب الاستطراد الذي قد يُنسي القارىء ما هو به مشغول، ويقطع عليه متعة استرسال الموضوع، وهو بذلك معلم أيضاً للغافلين من أهل الصنعة، يشير إلى ذلك في مقدمة (عيون الأخبار) قائلاً: «وهذه عيون الأخبار. نظمتها لمغفل التأدب تبصرةً، ولأهل العلم تذكرةً. . . وعلمها، وعلى الدارس حفظها، وعلى الناشد طلبها. . .».

ولا يغفل ابن قتيبة ـ كما قلنا آنفاً ـ مراعاة نفسية القارىء الملول فيقول: «ولم أخله من نادرة طريقة، وفطنة لطيفة، وكلمة معجبة، وأخرى مضحكة» ولا يرى في ذلك عيباً: «والمزح إذا كان حقاً أو مقارباً، ولأحايينه وأوقاته وأسباب أوجبته مشاكلاً، ليس من القبيح ولا من المنكر».

وكما قلنا من قبل، أن من منهج ابن قتيبة أن ينوِّه في مقدمة

كتبه عن محتواها، ويذكر تقسيمها وتبويبها. فهو في مقدمة (عيون الأخبار) يقول: «وإني حين قسَّمت هذه الأخبار والأشعار وصنفتها، وجدتها على اختلاف فنونها، وكثرة عدد أبوابها تجتمع في عشرة كتب، بعد الذي رأيت إفراده عنها، وهو أربعة كتب متميزة، كل كتاب منها مفرد على حِدَتِه: كتاب الشراب، وكتاب المعارف، وكتاب الشعر، وكتاب تأويل الرؤيا. . .»[1].

أما الأقسام أو الأبواب أو الكتب العشرة ـ كما يسميها ابن قتيبة ـ التي يتألف منها كتاب (عيون الأخبار) فهي على الترتيب:

كتاب السلطان، وكتاب الحرب، وكتاب السؤدد، وكتاب الطبائع والأخلاق، وكتاب العلم، وكتاب الزهد، وكتاب الإخوان، وكتاب الحوائج، وكتاب الطعام، وكتاب النساء.

وإذا كان ابن قتيبة قد ألَّف (أدب الكاتب) لفئة الكُتَّاب، فإنه ألف عيون الأخبار للخاصة والعامة على السواء، ولكي ينتفع به ويستمتع كافة الناس، لم يخص به فئة على أخرى، ولا طبقة من الناس دون طبقة. وقد نصَّ على ذلك في مقدمته حين يقول:

«ولم أر صواباً أن يكون كتابي هذا وقفاً على طالب الدنيا دون طالب الآخرة، ولا على خواص الناس دون عوامهم، ولا على ملوكهم دون سوقتهم، فوفيت كل فريق منه قسمة، ووفرت عليه سهمه، وأودعته طرفاً من محاسن كلام الزهاد في الدنيا. . .».

ثم يصنف كتابه بالمائدة العامرة بأطايب الطعام، وشتى الطعوم فيقول: «. . . وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين. . .».

---

(١) وربما كان ذلك الذي أدى ببروكلمان إلى اعتبار كل من كتاب المعارف وكتاب الأشربة لابن قتيبة مكملين لكتاب (عيون الأخبار). وقد رد عليه الدكتور الشكعة في كتابه (مناهج التأليف عند العلماء العرب. ص ٢٨٥).

فكتاب ابن قتيبة هذا من حيث مادتـه، مثله مثل مـا ذكرنـا من كتب الجـاحظ والمبرّد، من المنـابع الأدبيـة الثرة، غـزير المعـارف، متنوع المعلومات، حافل بـالأخبار، نـافع لكـل قارىء، ممتـع للعالم وغيـر العالم، يعين على ذلـك منهج متـطور بالنسبـة لعصـره، يمتـاز بحسن التبـويب الذي يقـود القـارىء إلى مبتغـاه في سهـولـة ويسـر. لذلك استحق ما نال من شهـرة في عصره ومـا تلاه من عصور حتى يومنا هذا، لم يقتصر ذيوع صيته على المشرق وحسب، بل وجد في المغـرب ما وجـده في المشرق من حفـاوة لقيمته في ذاتـه، ولقيمتـه بكونه من نتاج ابن قتيبة الذي كان أهل الأندلس لا يـرون خيراً فيمن خلا بيته من كتب هذا الشيخ العالم الثقة ابن قتيبة الدينوري.

كتاب العِقْد الفريد ـ لابن عبد ربه

قد لا يكون من اللائق إغفال ابن عبد ربه وكتابه(العقد الفريد) عند الحديث عن حركة التأليف، والتأليف الموسوعي بالذات، في تلك الفترة الذهبية من فترات العقل العربي النشط في القرنين الثالث والرابع الهجريين. ذلك العصر الذي أفرز الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وغيرهم من أعلام العلماء في ذلك الميدان.

وترجع أهمية الحديث عن ابن عبد ربه وكتابه إلى جانبين، جانب توضيح صورة التأليف الموسوعي آنذاك ومادته وموضوعاته ومنهجه، وجانب آخر وهو إلقاء الضوء على الفكر العربي المغربي في الأندلس، وبيان مدى ارتباطه بالفكر العربي المشرقي، والحضارة العربية الأم التي غذت فرعها الأندلسي بلبانها فلم ينفصل عنها مشرباً، ولم يتنكر لها جنساً ولا مذهباً، بل كان ذلك الابن البار الذي سار على نهجها أميناً محباً في إطار من التطوير الذي أوجبته ظروف البيئة والحياة.

وابن عبد ربه هو أحمد بن محمد بن عبد ربه العالم القرطبي الأندلسي، إذ ولد في قرطبة بالأندلس سنة ٢٤٦ هـ، ومات بها سنة ٣٢٨ هـ، في خلافة عبد الرحمن الناصر أشهر ملوك الأندلس وأطولهم حكماً.

قد شهد كل من أرّخ لابن عبد ربه بالعلم والأدب والرياسة والأخلاق الفاضلة والتدين. وكان موضع حب وتقدير الحكام الذين

عـاش في ظـل حكمهم لبـلاد الأنـدلس وهم ثـلاثـة من أشهـر ملوك الأندلس في شجاعتهم وحزمهم وعزمهم: المنـذر بن محمد بن عبـد الرحمن الأوسط، وعبدالله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وعبد الرحمن الناصـر. وقد مـدحهم ابن عبد ربـه جميعاً وأشـاد في عِقْدِه بفضلهم وانتصاراتهم واحترامهم للعلم والعلماء.

وابن عبد ربه إلى جـانب اشتهاره بكتـابه (العقـد الفريـد) كان شـاعراً مجيـداً، شهـد لـه أكثـر من مؤرخ عـربي كـابن خلدون وابن بسام[1] بأنـه أحد رواد الإبـداع والتجديـد في الشعر الأنـدلسي، وأنه أول من أنشأ فن الموشح، كما أن ابن سعيد مورخ بلاد الأندلس قد وصفه بأنه إمام المائة الرابعة وفرسان شعرائها في المغرب كله.

وقـد ترك ابن عبـد ربه في الشعـر بصماتـه على أشهر شعـراء المشرق كالمتنبي. وممـا أورده ياقـوت الحموي في معجمـه للشعراء ٢١٦/٤ أبيات لابن عبد ربـه، منها بيتـان تركـا بصماتهمـا على ابن زيـدون في بكائـه حبه ولادة بنت المستكفي وهـو مغترب سـائـح في ربوع الأندلس[1]، يقول ابن عبد ربه في بيتيه:

الجسمُ في بـلدٍ، والـروح في بـلد∴يا وَحْشَةَ الروحِ، بل يا غربة الجَسَدِ
إن تبـكِ عيناكَ لي يـا من كَلِفْتُ به∴من رحمةٍ، فهما سهمـان في كَبِدي

وكـان المتنبي يسمي ابن عبـد ربـه «مليـح الأنــدلس» ويحب سمـاع شعره وتـرديده، وقـد تأثـر بـه المتنبي إلى درجـة دعت بعض الباحثين يقول إن المتنبي وكثيراً من معانيه عيال على معاني ابن عبد ربه، وبخاصة في الحربيات، وإن ابن عبد ربه كان يستعمـل الصيغ النحوية في شعره، ولكن لا يفسد بها شعره، كمـا فعل المتنبي بعـد ذلك تقليداً له فلم يحسن التقليد[1].

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١١٣٨. والذخيرة ١ ٢/١ ص١.
(٢) انظر مناهج التأليف عند العرب ـ للدكتور مصطفى الشكعة ص ٢٩٢.
(١) هذا رأي الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه السابق ذكره ص ٢٩٤، ٢٩٧.

كتاب العِقْدِ الفريد ومنهج ابن عبد ربه فيه:

لقد اتخذ ابن عبد ربه في تأليف كتابه منهج من سبقه في هذا اللون من التأليف، وبخاصة ابن قتيبة، في (عيون الأخبار) ومن قبله الجاحظ في (الحيوان) وفي (البيان والتبيين). يتضح ذلك بمقارنة مقدمة ابن قتيبة لكتابه، ومقدمة ابن عبد ربه لكتابه هذا.

يقول ابن عبد ربه في مقدمة (العقد الفريد):

«وقد ألَّفت هذا الكتاب، وتخيرت جواهره من مُتَخَيَّر جواهر الآداب، ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجوهر، ولباب اللباب، وإنما لي فيه تأليف الاختيار وحسن الاختصار، وفرش لدور كل كتاب...».

فابن عبد ربه إذن يشير إلى أن كتابه هذا خلاصة ما اختاره من غيره، وأن نصيبه فيه هو حسن الاختيار، وهو المعول عليه، وله أيضاً فرش لكل كتاب أي مقدمة من عنده يبدأ بها كل كتاب أو كل باب من أبواب موسوعته ممهداً بها لما سيذكره في كل باب من أبواب كتابه من مادة علمية مختارة. أما سوى ذلك فهو كما يقول ابن عبد ربه: «وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور عن الحكماء والأدباء...».

وتكاد مقدمة ابن عبد ربه لكتابه، تنطق بمنهج ابن قتيبة الذي نصَّ عليه في خطبة كتابه (عيون الأخبار) من حيث أنه يتطلب نظائر الكلام وأشكال المعاني، وأنه يقرن كل جنس بجنسه، ويخصص لكل نوع باباً مستقلاً تيسيراً على القارىء، وتسهيلاً للطالب، فيقول ابن عبد ربه:

«... فتطلبت نظائر الكلام، وأشكال المعاني، وجواهر الحِكَم، وضروب الأدب، ونوادر الأمثال، ثم قرنت كل جنس منها إلى جنسه، فجعلته باباً على حدته، ليستدل الطالب للخير على موضعه من الكتاب، ونظيره من كل باب...».

ثم يقول ابن عبد ربه فيما يدل به على تأثره، بما كُتِبَ قبله من كُتُب في هذا النوع من التأليف، وأنه إنما أراد بكتابه هذا أن يسد ما في كتب سابقيه من ثغرات، ويكمل ما كان فيها من نقص، ويصلح بعض ما يراه محتاجاً إلى الإصلاح، فيقول: « . . وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفرقة في فنون الأخبار، ولا جامعة لمجمل الآثار، فجعلت هذا الكتاب كافياً . . ».

ثم يشير ابن عبد ربه في مقدمة كتابه إلى ما رأيناه عند سابقيه مثل الجاحظ وابن قتيبة، نوعاً من تعليم الناشئة أخلاق العلماء في جدهم ودأبهم، وتواضعهم تواضع العلماء الذي يعينهم على اكتساب المعارف، ويتوج أعمالهم بالصدق والثقة، فيما يقدمون عليه ويقدمونه للقراء وطالبي العلم، فهم لا يستنكفون من الجلوس إلى من هم أدنى منهم، وأقل علماً وعمراً، إذا ما وجدوا عندهم ضالتهم فهم يلجئون إلى أهل الخبرة فيما هم بصدد الكتابة عنه، حتى ولو كان أهل الخبرة سوقة عامة، بسطاء جهلاء بالعلم. فإن هؤلاء العامة والسوقة يعتبرون أهل خبرة فيما يعملون من حرف، أو أعمال، فالعلم ضالة المؤمن، يجب على العالم طلبه من مصادره، أيا كانت صفة المصدر، وهذا الخُلق العلمي اعتمده ابن قتيبة ومن قبله الجاحظ، وغيرهما في تأليف مثل هذه الموسوعات المتضمنة خليطاً من المعارف والعلوم التي تعكس أفكار الخاصة والعامة.

يقول ابن عبد ربه عارضاً منهجه في تألِيف كتابه:

« . . . فجعلت هذا الكتاب كافياً، جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة».

ثم يكمل حديثه بما يظهر مدى اهتمامه باستخدام الشعر الذي اختاره شاهداً يعضد به ما أورده من أخبار، متفقاً مع ما ساقه من معان، سواء أكان هذا الشعر من أشعار السابقين، أم من شعره هو،

ولا يخفى في كلام ابن عبد ربه أنه يعتز بشعره كما يعتز ويفخر بموطنه بلاد الأندلس، فيقول: «... وحلّيت كل كتاب ـ أي كل باب من أبواب كتابه ـ منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها، وتوافقها في مذاهبها، وقرنت بها ـ أي بشواهد الشعر التي اختارها ـ غرائب شعري، ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته، وبلدنا على انقطاعه، حظاً من المنظوم والمنثور...».

ومن اللافت في منهج ابن عبد ربه في تأليف كتابه (العقد) أنه نحا نحواً جريئاً لم يكن شائعاً بكثرة في مناهج التأليف آنذاك، ذلك أنه تخفف من ذكر الأسانيد فيما أورده في كتابه من روايات وأخبار، وكأنما استشعر ما قد يوجه إليه من لوم على ما أقدم عليه، فشرع في مقدمة كتابه، مدافعاً عن منهجه هذا، محتجاً بما يعضده أو ينفي عنه تهمة الابتداع فيما فعل، مشيراً إلى أنه ثقة فيما يروي، وأن حسن الاختيار هو المعوَّل عليه، في الكتابة والتصنيف، يقول:

«... واختيار الكلام أصعب من تأليفه، وقد قالوا: اختيار الرجل وافدُ عقله». ثم يستشهد على ذلك بقول العرب وغير العرب من الحكماء، فيورد قول الشاعر:

قد عرفناك باختيارك إذْ كا ... نَ دليلاً على اللبيب اختياره

ثم يسوق قول أفلاطون: عقول الناس مُدَوَّنَة في أطراف أقلامهم، وظاهرة في حسن اختيارهم».

ويسوق قول يحيى بن خالد: «الناس يكتبون أحسن ما يسمعون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون.»

ويقول ابن سيرين: العلم أكثر من أن يُحاط به، فخذوا من كل شيء أحسنه. ثم يعتذر مسبقاً عما قد يقع فيه من هفوات، ويرد على من يروق لهم أن يتصيدوا أخطاءه، ويرصدوا هفواته فيقول:

«وفيما بين ذلك سَقَطُ الرأي، وزَلَلُ القول، ولكل عالمٍ هَفْوة،

ولكل جواد كبوة، ولكل صارم نبْوة».

وفي بعض الكتب: انفرد الله تعالى بالكمال، ولم يبرأ أحد من النقصان، وقيل للعتَّابي: هل تعلم أحداً لا عيب فيه؟ قال: إن الذي لا عيب فيه لا يموت أبداً، ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة.

وقال العتابي: من قرأ شعراً أو وضع كتاباً فقد استهدف للخصوم، واستشرف للألسن، إلا عند من نظر فيه بعين العدل، وحكم بغير الهوى، وقليلٌ ما هم.

أما عن خطوته المتطورة التي سبق بها عصره، في منهج الكتابة، وهي حذف الأسانيد أو التخفف منها، خشية الإطالة وإملال القارىء، فهي خطوة لم تكن معتمدة كثيراً في مناهج التأليف القديمة، لذلك نَصَّ عليها في مقدمته مبيناً سبب إقدامه عليها، محتجاً فيها بأقوال وأفعال بعض العلماء، ومنهم علماء في الحديث كانوا يتخففون من السند في الرواية إذا كان النص في سُنَّةٍ مُتَّبعةٍ، وشريعة مفروضة، فكيف والحال هكذا في شأن الحديث النبوي، لا يجوز له حذف السند فيما هو دون الحديث من أمثال سائرة، أو نوادر شاردة.

«. . . وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار، طلباً للاستخفاف والإيجاز، وهرباً من التثقيل والتطويل، لأنها أخبار ممتعة، وحِكَمٌ ونوادر، لا ينفعها الإسناد باتصاله، ولا يضرها ما حُذف منها.

وقد كان بعضهم يحذف أسانيد الحديث من سنة مُتَّبعة، وشريعة مفروضة، فكيف لا نحذفه من نادرة شاردة، ومثل سائر، وخبر مستطرفٍ، وحديث يذهب نوره إذا طال وكثر.

سأل حفصُ بنُ غياث الأعمشَ عن إسناد حديث، فأخذ بحلقه وأسنده إلى حائط وقال: هذا إسناده.

وحَدَّثَ ابنُ السَّمَّاك بحديث، قيل له: ما إسناده؟ قال: هو من المرْسَلاتِ عُرْفاً.

وروى الأصمعي خبراً، فسُئل عن إسناده، فقال: هو من الآيات المحكمات التي لا تحتاج إلى دليل وحُجة.

وحَدَّثَ الحسنُ البصري بحديث، فقيل له: يا أبا سعيد عَمَّنْ؟ قال: وما تصنع بعَمَّنْ يابن أخي؟ أمَّا أنت فنالتك موعظته وقامت عليك حجته.

تسمية الكتاب وتبويبه:

جرياً على عادة بعض القدماء في تسمية كتبهم بأسماء أشياء قيمة كالدر والجواهر واللآلىء والمعادن الثمينة، والروائح الطيبة، والنجوم الزاهرة، أو ما يدل من الأسماء على القوة والعظمة، أو ما يشير إلى تفرد ذلك العمل وما إلى ذلك حتى عند بعض اللاحقين، من ذلك مثلاً، درة الغواص في أوهام الخواص، وقلائد العقيان واللآلىء، وشذورالذهب، وشذا العَرْف، ويتيمة الدهر، والنجوم الزاهرة، وأسْد الغابة، والذخيرة، وصبح الأعشى، وما أشبه ذلك من أسماء فاختار ابن عبد ربه عنواناً لكتابه يشير إلى ما احتواه من نفائس كالأحجار الكريمة التي تتنوع في قيمتها، وكلها ينتظمها خيط واحد تتوسطه أغلاها، وهي واسطة العقد الذي تتحلى به الحسناء فيزيدها جمالاً وروعة وبهاء يتفق وينسجم مع الذوق الأندلسي المتطلع إلى كل زخرف وزينة.

يقول ابن عبد ربه في مقدمة كتابه التي تنم عن نظرة متطورة في الكتابة والتأليف آنذاك، إذ جعل من المقدمة مرآة صافية تعكس منهج كتابه، لم يترك شيئاً فيه إلا أشار إليه معللاً سبب وجوده، معتذراً عما خالف فيه أعراف الكتاب محتجاً بالشواهد والأدلة، حتى اسم الكتاب وتبويبه لم يغفله فقال:

«..وسميته العِقد لما فيه من مختلف جواهر الكلام، مع دقة

السِّلْك وحسن النظام، وجَزَّأته على خمسة وعشرين كتاباً، كل منها جزآن، فتلك خمسون جُزءاً في خمسة وعشرين كتاباً، وقد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد، فأولها:

كتاب اللؤلؤة في السلطان.

ثم كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها.

ثم كتاب الزَّبَرْجَدَة في الأجواد والأصفاد.

ثم كتاب الجُمَانَة في الوفود.

ثم كتاب المَرْجانة في مخاطبة الملوك.

ثم كتاب الياقوتة في العلم والأدب.

ثم كتاب الجوهرة في الأمثال.

ثم كتاب الزُّمُرُّدَة في المواعظ والزهد.

ثم كتاب الدُّرَّة في التعازي والمراثي.

ثم كتاب اليتيمة في النَّسَب وفضائل العرب.

ثم كتاب العَسْجَدَة في كلام الأعراب.

ثم كتاب المُجَنَّبَة في الأجوبة.

ثم كتاب الواسطة في الخُطَب.

ثم كتاب المُجَنَّبة الثانية في التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكَتَبَة.

ثم كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتاريخهم وأيامهم.

ثم كتاب اليتيمة الثانية في أخبار زياد والحجاج والطالبين والبرامكة.

ثم كتاب الدُّرَّة الثانية في أيام العرب ووقائعهم.

ثم كتاب الزُّمُرُّدَة الثانية في فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه.

ثم كتاب الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر وعلل القوافي.

ثم كتاب الياقوتة الثانية في علم الألحان واختلاف الناس فيه.

ثم كتاب المَرْجانة الثانية في النساء وصفاتهن.

ثم كتاب الجُمَانة الثانية في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين.

ثم كتاب الزَّبَرْجَدَة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان.

ثم كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب.

ثم كتاب اللؤلؤة الثانية في النُّتَف والهدايا والفكاهات والمُلَح».

من خلال ما ذكره ابن عبد ربه في تبويب كتابه وما تضمنته هذه الأبواب من موضوعات، نتبين أنه قد تأثر تأثراً كبيراً بابن قتيبة في كتاب (عيون الأخبار) فقد طرق معظم الموضوعات التي تضمنها (عيون الأخبار) بأسمائها، غير أن ابن عبد ربه سبق اسم الموضوع في كل باب أو كتاب باسم حجر من الأحجار الكريمة، فكتاب السلطان في عيون الأخبار هو كتاب اللؤلؤة في السلطان في العقد الفريد، وكتاب الحرب في عيون الأخبار هو كتاب الفريد في الحروب في العقد الفريد، وهكذا في سائر أسماء الكتب التي أوردها ابن قتيبة في عيون الأخبار كالسؤدد مثلاً الذي تناوله ابن عبد ربه تحت عنوان يتساوى تقريباً في مضمونه مع عنوان السؤدد، وهكذا في الطبائع والأخلاق، وفي العلم، وفي الزهد، وفي المطعام، وفي النساء، ولم يترك ابن عبد ربه من أسماء أبواب (عيون الأخبار) إلا كتاب الإخوان وكتاب الحوائج لم يضع أبواباً في كتابه (العقد الفريد) بهذين الاسمين، ولكنه تناول موضوعاتهما متفرقة في ثنايا كتابه (العقد)، ولذا وصفه بعض الباحثين بعدم الأمانة العلمية لأنه لم يشر في مقدمته أنه أخذ عن ابن قتيبة أو أنه استنار بمنهجه واقتبس منه، بل كان ينال منه في ثنايا كتابه ويخطّئه كلما سنحت الفرصة بذلك.

ولكنا لا نرى اتهام ابن عبد ربه بعدم الأمانة العلمية لأكثر من سبب، أولاً لأنه أشار في مقدمته إلى أنه قرأ لمن سبقه في هذه الموضوعات، وإنما أراد أن يستوفي ما قد لم يكن سابقوه استوفوه، كما أنه أقر في مقدمته أنه ليس له فيما كتب إلا فضل الاختيار، أضف إلى ذلك أنه من خلال منهجه الذي ارتضاه من حيث عدم

ذكر الأسانيد إذا كان النص مشهوراً مفروضاً وابن عبد ربـه يعلم علم اليقين أن كتاب ابن قتيبة بتقسيمـاته وأسمـاء أبوابـه ومحتواهـا جميعاً أشهر من نار على علم، سواء في المشرق أو في المغـرب، فحسب منهجه لم ير ما يدعو إلى التنبيه على أنه حذا حذوه في كتابـه، كما أنه من المعروف الشائع أن الأندلسيين كانوا مغرمين بتقليـد المشارقـة في كـل شيء، في شعـرهم ونثـرهم وعلومهم وتصـانيفهم، نتيجـة الإحسـاس بـالانتمـاء وعـدم الانفصـال عن أصـولهم، والحنين إلى الجـذور. لـذلـك كله كـان كتـاب ابن عبـد ربـه مشـرقي الـطابـع والمحتوى، يكاد يخلو من ذكـر شيء عن الأندلس اللهم إلا مـا ورد فيه من شعر لصـاحبه، ومـدح لملوك الأندلس الـذين عاصـرهم وذكر شيء من أخبارهم، ولذا كـان موقف الصاحب بن عباد من الكتـاب حين قـرأه، وكان ابن عبـاد معروفـاً بالغلو في أحكـامـه، فـاشتـد في حكمه على كتاب العقد الفريد حين قرأه لأنه لم يخصصه صـاحبه أو معـظمه في ذكـر أخبار الأنـدلس والأندلسيين، فقـد روى ياقـوت في معجم الأدبـاء (٤/٢١٤ ـ ٢١٥) «أن الصاحب بن عبـاد سمع بكتـاب العقـد، فحرص حتى حصـل عنده. فلمـا تأمله قـال: هذه بضـاعتنـا رُدَّت إلينا، ظننت أن الكتاب يشتمـل على شيء من أخبار بـلادهم، وإنما هو مشتمل على أخبار بلادنا. لا حاجة لنا فيه. فردَّه».

وأيا ما كان رأي ابن عباد فإن كتاب (العقد الفريـد) من الكتب التي تفخـر بها المكتبـة العربيـة، وقـد حـظي بـالإعجـاب والتقـديـر العظيمين، لذا فإن بعض الباحثين يـرى أن اسم الكتاب في الأصـل هو (العقد) وأن وصفـه بالفـريد إنمـا هو وصف متـأخر، أطلقـه عليه المعجبون به، وقد ذكر جبرائيل جبور في كتابه (ابن عبد ربه وعقده) ص ٢٩ ـ ٣١، أن هـذاالـرأي في الأصـل هـو رأي بـروكلمـان المستشرق الألماني صاحب كتاب تاريخ الأدب العربي.

فالعقد الفـريد هـو حقاً عقـد في جيد المكتبـة العربيـة وإن لم يكن فريداً، فهو مع أمثاله مصدر ذاخر من مصـادر التراث في الأدب

العربي، بما حواه من معارف وتاريخ وأخبار وأنساب ووقائع وخطب ومنظوم ومنثور ونوادر ومُلح وأمثال، وأخلاق واجتماع وسلوك وطبائع للإنسان والحيوان، وما فيه من نظرات ثاقبة، ودراسة نقدية فنية للشعر وعروضه كتلك التي وردت في كتاب الزمردة الثانية من فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه، وكتاب الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر وعلله وقوافيه، وبذلك لم يقصر المؤلف همه على مجرد الاستشهاد بالشعر على الأخبار والأيام وحسب، بل عقد له تلك الدراسة الفنية في بابين من أبواب كتابه.

كذلك لم يغفل الدراسة النثرية، فتناول في المجنبة الثانية التوقيعات والفصول وأخبار الكُتّاب وصفاتهم، والكتابة وأصولها، وأدواتها من أقلام وحبر وصحائف.

أما الخطابة فقد خصص لها واسطة العقد، وجعل من الواسطة معرضاً لأنواع الخطابة العربية، في تسلسلها الزمني، مبتدئاً بخطبة الوداع للنبي عليه الصلاة والسلام، ثم عدد من خطب الصِّدِّيق أبي بكر، ومثلها من خطب عمر بن الخطاب، وخطبة للخليفة عثمان بن عفان، وعدداً وافراً من الخطب للإمام عليّ بن أبي طالب، ثم أورد كثيراً من خطب ملوك بني أمية وقادتهم، ثم لملوك بني العباس، ثم خطب فصحاء العرب والمسلمين، وخصص فصلاً من الواسطة لخطب الخوارج، وآخر لخطب الزواج... وهكذا..

فجاء الكتاب خلاصة علم السنين الطوال، وتجارب الأيام، وحنكة الشيوخ، إذ من الملاحظ في هذا النوع الموسوعي أن أصحابها لم يكتبوها في شبابهم، بل ختموا بها أعمالهم، فجاءت حافلة بخبرة العمر، وتجارب السنين وقمة النضوج. وهكذا كان كتاب (الحيوان) وكتاب (البيان والتبيين) للجاحظ، و(عيون الأخبار) لابن قتيبة، وكتاب (الكامل) للمبرد، و(العقد الفريد) لابن عبد ربه.

وقد طبع كتاب (العقد الفريد) مرة في عام ١٩٤٠ في مطبعة الاستقامة

بمصر في ثمانية أجزاء بتحقيق محمد سعيد العريان، ومرة أخرى سنة ١٩٥٠ أيضاً في سبعة أجزاء بتحقيق أحمد أمين وزملائه في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر.

من كتب الأمالي:

- كتاب الأمالي لأبي عليّ القالي
- كتاب أمالي ابن الشّجري.
- كتاب مجالس ثعلب

من مناهج التأليف التي ظهرت وشاعت في العصر العباسي، منهج الأمالي، وهو منهج تعليمي المنحى، إذ كان العالِم أو الشيخ يجلس للتدريس والرواية، يتحلقه تلاميذه ومريدوه، يمسكون أقلامهم ودفاترهم، يدونون فيها ما يمليه عليهم شيخهم مما اختزنته ذاكرته، ووعاه عقله.

وقد سبق الحديث عن هذا النوع من التعليم والإملاء والرواية، في معرض الحديث عن أنواع الرواية. وقد بدأت هذه المجالس العلمية عند علماء الحديث الثقات الذين يروون ما حفظوه وجمعوه من أحاديث نبوية. ثم تنوعت هذه المجالس العلمية التعليمية، ما بين حديث وتفسير ولغة وأدب.

وكان إذا ما انتهى الشيخ من مجالسه، جمع تلاميذُه أقواله ورواياته وأخباره فيَصدر كل ذلك في كتاب يُعرض على الشيخ نفسه فيقره، ويجيز روايته، أو يوكل مهمة المراجعة إلى بعض تلاميذه النابهين الذين يقومون بدورهم بمهمة رواية ما جمعوه منسوباً إلى شيخهم صاحب الأمالي.

ومما يهمنا في هذا المقام أن نتناول الأمالي الأدبية، بمفهوم كلمة أدب في عصر تلك الأمالي، وهو كما عرفنا مفهوم يتسع كثيراً عن مفهومه الضيق المحدود الآن بالقول الفني الجميل.

وربما كان كتاب (مجالس ثعلب) هو أسبق كتب الأمالي الأدبية على كثرتها، ثم تلته مصنفات أخرى من الأمالي أُطلق على معظمها

اسم (الأمالي) وهو الاسم المأخوذ من طبيعة تصنيفها، وطريقة تدوينها.

فمن هذا النوع مثلاً: أمالي اليزيدي، وهو أبو عبدالله محمد بن العباس (ت ٣١٠ هـ)، ثم أمالي الزَّجَّاج، وهو العالم النحوي الأديب أبو إسحاق إبراهيم بن السري بن سهل (ت ٣١١هـ)، ثم الأمالي التي أملاها الوزير البرمكي المعروف أحمد بن جعفر بن موسى بن يحيى (ت٣٢٤ هـ) وهو المعروف بجحظة لجحوظ كان في عينيه مما جعل عبدالله بن المعتز يطلق عليه هذا الإسم الذي عرف واشتهر به بعد ذلك، ثم أمالي ابن الأنباري أبي بكر (ت٣٢٨هـ).

ومن الأمالي العامة التي لم تحمل اسم الأمالي كما هو الحال في مجالس ثعلب، كتاب (جمهرة اللغة) لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد المولود في البصرة سنة ٣٢٣ هـ، وكانت وفاته سنة ٣٢١هـ. ومن أشهر الأمالي التي أطلق عليها اسم الأمالي بعد تصنيفها في كتاب، هي أمالي القالي، ومُمْليها هو أبو عليّ اسماعيل بن القاسم القالي، المتوفي سنة ٣٥٦ هـ. أما كتاب (الإمتاع والمؤانسة) فهو من كتب الأمالي ذات الشهرة والأهمية، وصاحب هذه الأمالي هو أبو حيان التوحيدي العالم اللغوي البلاغي الأديب المتوفي سنة ٤٠٠ هـ.

ومن أصحاب الأمالي المشهورين، إمام الطالبين، الشريف المرتضى، الذي عاش ببغداد، وامتدت حياته من ٣٥٥ هـ حتى ٤٣٦هـ، وتعرف أماليه باسم أمالي المرتضى.

أما هبة الله ابن الشجرى، الذي وُلد في منتصف القرن الخامس الهجري، وامتد به العمر حتى قارب التسعين (٤٥٠ ـ ٥٤٤ هـ) فله أماليه المشهورة أيضاً، المعروفة باسم أمالي الشجرى.

تلك كانت أشهر كتب الأمالي التي صنفت في اللغة والأدب

والعلم، وإن لم تكن كلها، فقد قلنا إن هذا النوع من التصنيف، بدأ بعلوم الحديث رواية وتعليماً، ثم شاع في صورة مجالس ومحاضرات، في كثير من ألوان المعارف والعلوم.

ونخص بالحديث الموجز فيما يلي بعض هذه الأمالي المشهورة، للتعريف بها لا للتفصيل والاستقصاء، دون التقيد بالترتيب الزمني.

الأمالي لأبي عليّ القالي

صاحب هذه الأمالي هو العالم اللغوي الأديب أبو عليّ إسماعيل بن القاسم القالي، وقد أطلق عليه لقب القالي نسبة إلى البلدة التي منها أصله، وهي (قالي قلا) من أعمال أرمينية، كما كان يلقب أيضاً بالبغدادي لطول المدة التي قضاها مقيماً في بغداد حيث تلقى العلم على كبار علماء عصره، في اللغة والنحو والحديث والأدب، وظل في بغداد بعد أن رحل إليها من أرمينية التي كان بها مولده سنة ٢٨٨هـ، يطلب العلم جاداً على شيوخ بغداد حتى صلب عوده، وثبتت قدماه في مجالس العلم والتعليم، حتى ذاع صيته، وامتدت شهرته إلى بلاد المغرب، فأرسل إليه الخليفة الأموي الناصر عبد الرحمن بن محمد، يستدعيه من بغداد إلى الأندلس ليكون معلماً ومؤدباً لابنه وولي عهده، ولينشر في الأندلس علم المشارقة الذي كان موضع إعجاب وشوق الأندلسيين دائماً، فلما استوثق القاليّ من دعوة الخليفة الأموي بالأندلس، ترك بغداد بعد أن قضى فيها ربع قرن من الزمان، قاصداً الأندلس سنة ٣٣٠ هـ، في رحلة يصفها بعبارات أدبية جيدة إذ يقول في مقدمة كتابه: «. . . حتى تواترت الأنباء المتفقة، وتتابعت الصفات الملتئمة، التي لا تخالجها الشكوك، ولا تمزجها الظنون، بأن مشرّفه في عصره، أفضل من مَلَكَ الورى. . . أمير المؤمنين، و حافظ المسلمين، وقامع المشركين، ودافع المارقين. . عبد الرحمن بن محمد. . فخرجت جائداً بنفسي، باذلاً لحشاشتي، أجوب متون القفار، وأخوض لجج

البحار، وأركب الفلوات، وأتقحَّمُ الغمرات.... فمَنَّ الله جل وعزَّ بالسلامة، وحَبَا تعالى ذكره بالعافية، حتى حَلَلْتُ بعُصْرَة[1] الخُوَّاف، وعصمة المضاف، والمحلِّ الممرع، والربيع المخصب، فِناء أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد....» ثم يمتدح هذا الخليفة العظيم بقوله: «فرأيته ـ أيَّده الله ـ أجلَّ الناس بعد أبيه خَطَراً، وأرفعهم قدراً،.. فتَابَعَا لديَّ النعمة، وواترا عليَّ الإحساس حتى أبديتُ ما كنت له كاتماً..».

وظل القالي في كنف عبد الرحمن الناصر محاطاً بكل رعاية وتبجيل، حتى إذا مات الناصر، وتولى بعده ابنه الحَكَمُ المستنصر تلميذ القالي، وَصَلَ ما كان من أبيه نحو القالي من رعاية وكرم وزاد عليه بأن جعله مستشاراً له، ومشرفاً على شؤون أعظم مكتبة وأغناها في عصره بالكتب القيمة التي لم يبخل عليها بالمال الوفير الذي وضعه تحت إمرة أبي عليٍّ القالي الذي كان موضع ثقة وإعجاب الحكام والعلماء وعامة الناس.

وظل القالي ينشر علمه، ويغني مجالسه وقاصديه بما أفاء الله عليه من معارف، فجُمِعَتْ أماليه في كتاب أهداه للخليفة: ومات القالي في قرطبة سنة ٣٥٦ هـ في خلافة الحَكَم المستنصر بالله بن الخليفة عبد الرحمن الناصر.

كتاب الأمالي للقالي:

كان كتاب الأمالي نتاج مجالس أبي عليٍّ القالي التي كان يعقدها كل خميس في قرطبة وفي المجلس الجامع بالزهراء مما وعته ذاكرته، واختزنته حافظته: «... فأمللتُ هذا الكتابَ من حفظي في الأخمسة بقرطبة، وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة...».

ثم يذكر محتوى كتابه، وما اشتملت عليه أماليه في مجلس

(١) عُصْرة الخُوَّاف: أي ملجأ الخائفين.

الخميس هذا، مشيراً إلى منهجه فيه، وهو منهج لا يختلف كثيراً عن مناهج معاصريه وسابقيه من المشارقة في مثل هذه الكتب الموسوعية، ذلك المنهج القائم على تنوع المعارف وحسن الاختيار، وجودة الانتقاء الدال على ذوق صاحبه، وسعة باعه فيما يروى ويختار، يقول عن محتوى كتابه ومنهجه:

«. . . . وأودعته فنوناً من الأخبار، وضروباً من الأشعار، وغرائب من اللغات، على أني لم أذكر فيه باباً من اللغة إلا أشبعته، ولا ضرباً من الشعر إلا اخترته، ولا فناً من الخبر إلا انتخلته، ولا نوعاً من المعاني والمثل إلا استجدته، ثم لم أُخْلِهِ من غريب القرآن، وحديث الرسول ﷺ». ثم يذكر ما تَفَرَّدَ فيه عن غيره من بحوث لغوية ونحوية فيقول: «على أنني أوردت فيه من الإبدال ما لم يورده أحد، وفسَّرتُ فيه من الإتباع ما لم يُفَسِّره بَشَر، ليكون الكتاب الذي استنبطه إحسان الخليفة جامعاً، والديوان الذي يُذكر فيه اسم الإمام كاملاً».

وبذلك يتميز كتاب القالي عن غيره وإن كان قريباً من منهج المبرِّد في الكامل، غير أن الكامل يتميز بالبحوث النحوية إلى جانب الأدب، وأمالي القالي يتميز إلى جانب الأدب بالبحوث اللغوية، أما من حيث المنهج فهو أشبه بالكامل للمبرِّد والبيان والتبيين للجاحظ منه بعيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربه، إذ يتميز الأخيران بحسن التصنيف ودقة التبويب، وربما كان كتاب القالي مفتقراً لهاتين الصفتين، لأنه أمالٍ متفرقة متتالية، في مجالس متعاقبة للتعليم، إذ كان يعمد القالي إلى طرح ما صَعُبَ من النصوص ليقوم بشرحها وبيان مستغلقات معانيها.

ويشتمل كتاب الأمالي للقالي مع البحوث اللغوية، والمختارات الشعرية، كثيراً من الخطب، سواء منها خطب العرب في الجاهلية أم الخطب الإسلامية، كما أنه يتضمن قدراً من الثقافة للعامة

والخاصة على السواء، فقد احتوى عدداً من الأخبار التاريخية الهامة ومنها أخبار بني أمية حكاماً ومحكومين، وأخبار شعرائهم وعلمائهم، وأخبار خصومهم وحلفائهم. وقد يتطرق إلى أخبار هندية أو فارسية فضلاً عن الأحداث الهامة في تاريخ العرب.

من الملاحظ أيضاً أن الكتاب يخلو تقريباً من ذكر أخبار الأندلسيين وعلمائهم وشعرائهم وكتابهم وعلمائهم وحكامهم، اللهم إلا ما مدح به القالي الخليفة الناصر وابنه المستنصر، فالكتاب في مجمله شرقي المحتوي والمنهج، وربما لم يخشَ القالي بهذا غضب الخليفة الأندلسي، لعلمه بعشق الأندلسيين للمشرق وكل ما صدر عنه.

كذلك من معالم منهج القالي في كتابه أنه لم يتخل أو يتخفف من الإسناد في رواياته، وهو في ذلك على خلاف ما انتهجه ابن عبد ربه في منهج العقد الفريد، ولكن السمة المشتركة بين مؤلفي الموسوعات الأدبية الثقافية التي تحدثنا عن بعض منها، هي تلك الروح المرحة التي يشيعونها في ثنايا كتبهم على تفاوت بينهم من نوع وقدر وقيمة، وطريقة إشاعة هذه الروح. وكلهم يطلبها لإمتاع القارىء وتجنيبه الملل، وتخفيف الإجهاد العقلي، لطول هذه الكتب وتنوع محتواها، وبخاصة إذا ما اشتملت هذه الكتب على بحوث علمية تتطلب التركيز وشحذ الذهن، كما هو الحال في الكامل للمبرد، وفيما طرحه القالي من موضوعات لغوية صعبة. من أجل ذلك آثر القالي منهج السابقين في هذا الصدد، فكان يورد بين الفينة والفينة شيئاً من المُلح والنوادر، إبعاداً للملل عن القارىء، وتجديداً لنشاطه الذهني، وفي الوقت نفسه تزويداً للقارىء من ذلك النوع من الثقافة الاجتماعية التي كان لها مكانها آنذاك في محافلهم العامة والخاصة.

ولم يكن كتاب الأمالي للقالي، هو الأثر العلمي الوحيد له،

بل كانت له كتب هامة لها خطرها، وقيمتها العلمية المتنوعة، ومنها: كتاب «الممدود والمقصور والمهموز»، و«كتاب الإبل»، و«كتاب حلى الإنسان والخيل وشياتها»، و«كتاب مقاتل الفرسان»، و«كتاب تفسير السبع الطوال»، و«كتاب البارع»، وهو كتاب مؤلف في اللغة جمع فيه كتب اللغة، وجعله على حروف المعجم، قال عنه الزبيدي: لا نعلم أحداً من المتقدمين أَلَّفَ مثله.

كما أن القالي له من الأمالي التي أملاها بعد أن انتهى من كتابه الأمالي، ما كَوَّن مادة جديدة، فجمعها وأطلق عليها «ذيل الأمالي» ثم تجمعت له مادة أخرى من أماليه فسماها «النوادر» وكل من الذيل والنوادر جاءا على وتيرة سابقهما منهجاً، وموضوعات، وتنوعاً.

وقد طبع كتاب الأمالي للقالي في جزأين بالقاهرة سنة ١٩٢٦ بمطبعة دار الكتب المصرية، ثم أُلحق به جزء ثالث يتضمن الذيل والنوادر للمؤلف نفسه، ثم انضم إليه جزء رابع يتضمن كتاب «التنبيه على أوهام أبي علي القالي في أماليه» لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي المتوفي سنة ٤٨٧ هـ.

كتاب الأمالي لابن الشجرى

وابن الشجرى هو الشريف أبو السعادات هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني. وهو ينسب من ناحية أمه إلى بيت الشجرى. وهو نسبة إلى قرية من أعمال المدينة المنورة. وابن الشجرى سليل البيت الطالبي، إذ يصل نسبه إلى الحسن بن علي ابن أبي طالب. لذا فهو من الأشراف، وهو في علمه وخلقه ومنهجه أقرب إلى الشريف المرتضى منه إلى أبي عليّ القالي. وكان إماماً لغوياً أديباً مفسراً، يقصد بيته طلاب العلم وطلاب الحاجات، موضع الاحترام والثقة والتبجيل لدى السلطان والعلماء والناس عامة. ولقد عمَّر ابن الشجرى حتى أشرف على التسعين(٤٥٠ ـ ٥٤٤هـ)، وقضى جُلَّ عمره في الدرس والعلم والتحصيل، متميز المكانة بالجد بين علماء عصره.

كتابه الأمالي:

لم يختلف منهج ابن الشجرى كثيراً في أماليه عن نظرائه في المنهج، إذ كان يجلس إلى تلامذته وقصَّاده، يروي لهم من فيء علمه وغزير معرفته في موضوعات شتى بين اللغة والنحو والحديث والتفسير، والشعر والنثر، في إطار من الدقة والضبط والجدية التي فرضها عليه نسبه وعلمه.

وربما تميز ابن الشجرى عن غيره من نظرائه في هذاالميدان، أنه في معظم مجالسه الأربعة والثمانين التي أنتجت كتابه في الأمالي، كان ينص في أول المجلس قبل البدء في تسجيله، على يوم المجلس وتاريخه الذي ألقى فيه مادته على تلاميذه، كما أن

صفة المعلم الجاد الذي يحترم علمه وتلاميذه جعلته يعد نفسه علمياً للمجلس قبل البدء فيه، ليكون لمجلسه سمة التركيز والتعمق والجدية، خاصة وأن كثيراً من مجالسه كانت مخصصة لمناقشة قضايا لغوية، وقضايا دينية جادة.

وكان من منهجه التعليمي في مجالسه أنه يطرح قضية معينة فإذا لم يفرغ من إملائها خصص لها مجلساً آخر.

وقد بلغ استقصاء ابن الشجرى لجوانب القضية التي يناقشها في أماليه إلى درجة أن يخصص مجلساً كاملاً من مجالسه في مناقشة بيت واحد من الشعر، إذ خصص مثلاً المجلس السادس من مجالس أماليه في مناقشة بيت المتنبي الذي يقول فيه:

وتراه أَصْغَرَ ما تراه ناطقاً ∴ ويكون أكذبَ ما يكون ويُقْسِمُ

وقد يكون سر إطالة الشرح والمناقشة كما حدث في هذا البيت الذي شغل قرابة سبع صفحات من كتابه (١/٣٥ ـ ٤٢) راجعاً إلى أكثر من سبب، أولها يرجع إلى طريقته في اختيار النصوص، إذ يختار النص الذي يشعر أنه بحاجة إلى جلاء لغموض، أو كشف عن معنى خاص، له تصور معين عنده، فكان يغلب على اختياراته مثل هذه النصوص الصعبة أو الغامضة، أو القابلة للجدل، يطرحها في أماليه ثم يُتبعها بطائفة من الأسئلة والاستفهامات إعداداً للأذهان لتقبُّل الإجابات والحلول التي يلقيها، مستشهداً في ذلك بأقوال العلماء وآرائهم.

ومن أسباب الإطالة أيضاً أمام النص، أنه بحكم اهتماماته اللغوية، كان يُقَلِّب النص في إطار من النحو والصرف، والتأويل المعنوي، متمثلاً بأقوال الثقات من العلماء كالأصمعي، وابن الأعرابي، والكسائي، وبشواهد من شعر القدماء كطرفة وامرىء القيس وغيرهما.

هذا فضلاً عن تأثره بمناهج سابقيه ومعاصريه، من حيث

الاستطراد، والتنقل من معنى إلى آخر.

وليس معنى جنوح ابن الشجرى إلى اختيار النصوص الغامضة موضوعاً لأماليه، أن كل مختاراته في أماليه تتسم بالجفاف ومخاطبة العقل، بل يورد أحياناً من النصوص الشعرية ما ينم عن ذوق فني وحس أدبي في الاختيار والشرح، حيث نشعر أنه يعمد إلى ذلك دَرْءًا للإملال والسأم فلا يغرق في مناقشة القضايا اللغوية في النص بقدر ما يكشف عن جماله بحس أدبي وذوق فني مثل ما فعل في مجلسه الثالث والستين حين تناول قصيدة لابن نباته السعدي في الفخر يقول في مطلعها (الأمالي ٢/١٨٣ - ١٩٠):

رضينا وما تَرْضَى السيوفُ القواضب .·. نجاذبها عن هامِكُمْ وتُجاذبُ

ولم تَخْلُ أماليه الشعرية من نظرات نقدية على طريقة القدماء في النقد، فهو في المجلس الرابع والستين (٢/١٩٢) حين يتناول قصيدة يصف صاحبها لقاء الأسد، يعلق ابن الشجرى على هذا الوصف بأنه أجود شعر قيل في هذا الموقف.

أما أماليه في تفسير القرآن الكريم فإن منهجه فيها تغلب عليه الصبغة الجدلية المعتزلية، مستعيناً في تفسيره بشواهد اللغة من شعر ونثر، مستعرضاً أحياناً مذاهب النحاة واللغويين. مؤكداً ما يذهب إليه في تفسيره بآيات أخرى كثيرة من القرآن الكريم. وقد احتل تفسير القرآن عدداً غير قليل من مجالسه في أماليه.

أما نصيب اللغة والنحو في تلك الأمالي الشجرية فقد كان له القدح المُعلَّى، فهو لغوي نحوي أكثر منه أديب، كثير الميل إلى مناقشة القضايا اللغوية وعرض مذاهب النحويين، شديد التركيز على هذا الجانب، حتى أنه افتتح كتاب أماليه بمجالس النحو ومناقشة العديد من مسائله، كذلك جعل مجلسيه الثلاثين والحادي والثلاثين للنحو وقضاياه، ذاكراً مذاهب بعض النحويين كالخليل وسيبويه والأخفش.

ولابن الشجري كتب أخرى غير الأمالي، لها أهميتها، كالمختارات التي عُرفت بالحماسة، على طريقة أبي تمام في حماسته، وله أيضاً «مختار الشعراء» و«شرح التصريف الملوكي»، و«شرح اللَّمَع لابن جني، و«كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه». ولكن الذي شاع منها وعُرف هما الأمالي والحماسة.

وقد طُبع كتاب الأمالي في جزأين بالقاهرة سنة ١٩٢٦ م. بمطبعة دار الكتب المصرية. ثم ألحق به جزء ثالث يتضمن (ذيل الأمالي) و(النوادر) لابن الشجري أيضاً، ثم جزء رابع يتضمن كتاب (التنبيه على أوصام أبي عليّ القالي في أماليه) لأبي عُبَيْد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت ٤٨٧ هـ).

كتاب مجالس ثعلب

وثعلب هو أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء، ونستطيع من رواية لابن النديم[1] عن عبدالله بن مقلة عن ثعلب، أن نستنج أن مولد ثعلب كان سنة ٢٠٠ هـ. ووفاته كانت سنة ٢٩١هـ حيث دفن إلى جوار داره بقرب باب الشام[2].

ويروي أبو العباس ثعلب أنه بدأ حياته العلمية وعمره ست عشرة سنة، يقول[3]: «ابتدأت بالنظر في العربية والشعر واللغة في سنة ست عشرة، وحذقت العربية، وحفظت كتب الفراء حتى لم يشذ عني حرف منها ولي خمس وعشرون سنة».

وقد تتلمذ أبو العباس ثعلب على جلة من العلماء وسمع وأخذ عن كثير من الأعلام، منهم ابن الأعرابي وابن سلام الجمحي، وابن المغيرة الأثرم، وعبيد الله بن عمر القواريري، وسلمة بن عاصم، والزبير بن بكار. كما كان له من التلاميذ الذين نهلوا من علمه فصاروا بدورهم علماء أعلاماً، منهم عليّ بن سليمان الأخفش، وأبو بكر الأنباري، وأبو عمر الزاهد، وعبد الرحمن بن محمد الزهري وغيرهم[4].

وكان ثعلب عالماً لغوياً على رأس مدرسة الكوفة في النحو

---

(١) الفهرست ص ١١٠.
(٢) السابق ص ١١١.
(٣) السابق ص ١١٠
(٤) تاريخ بغداد ٢٠٤/٥.

واللغة، أشاد به الشعراء، وامتدحه الناس، وصادقه الوزراء والحكام، وشهد له العلماء، قال عنه أبو بكر بن محمد التاريخي[٥]: «أحمد بن يحيى بن ثعلب، أصدق أهل العربية لساناً، وأعظمهم شأناً، وأبعدهم ذِكراً، وأرفعهم قدراً، وأوضحهم علماً، وأرفعهم حِلماً، وأثبتهم حفظاً، وأوفرهم حظاً في الدين والدنيا».

وكان ثعلب لنبوغه محل تقدير العلماء مقدماً عندهم منذ حداثته، من ذلك فيما يُروى أن ابن الأعرابي على جلال قدره واتساع باعه في اللغة كان إذا شك في شيء قال لثعلب: ما تقول يا أبا العباس في هذا؟ وذلك ثقة بعلمه واطمئناناً لغزارة حفظه[١].

وقد حذق ثعلب علوم الدنيا، وأتقن علوم الدين، غير أنه تفرغ أكثر لعلوم اللغة، وكان أديباً مرهف الحس، حكيماً أكسبته السنون الطوال التي عاشها تجارب فاضت على لسانه حكماً ومواعظ بليغة.

كان هو والمبرّد دائماً في ميزان الشعراء والعلماء، خاصة وأن المبرّد كان زعيم مدرسة البصرة في علوم اللغة والنحو، وثعلب على رأس مدرسة الكوفة في آن واحد، وكان ثعلب أكثر تواضعاً من المبرّد، لا يخجل من قول لا أدري إن غم عليه شيء في العلم.

يُروي أن سائلاً سأل ثعلب ذات مرة عن مسألة لا يعرفها فقال ثعلب: لا أدري، فقال له السائل: أتقول لا أدري وإليك تُضْرَبُ أكباد الإبل، وإليك الرحلةُ من كل بلد؟ فقال له أبو العباس ثعلب: لو كان لأمِّك بعدد ما لا أدري لاستغنت. تلك في حقيقتها أخلاق العلماء، فإن العالم الذي يحيط بكل شيء علماً لم يُخلق بعد إلا أن يُوحَى إليه في زمان توقف فيه الوحي وطويت الصحف[٢].

ولأبي العباس ثعلب مجموعة من المؤلفات ذكرها ابن

---

(٥) نزهة الألبا ص ٢٢٩.

(١) وفيات الأعيان ١/١٠٢.

(٢) السابق ١/١٠٣.

النديم[٣]، منها: كتاب المصون في النحو، وكتاب اختلاف النحويين، وكتاب معاني القرآن، وكتاب القراءات، وكتاب معاني الشعر، وكتاب التصغير، وكتاب ما ينصرف وما لا ينصرف، وكتاب الشواذ، وكتاب الأمثال، وكتاب الأيمان والدواهي، وكتاب الوقف والابتداء، وكتاب استخراج الألفاظ من الأخبار، وكتاب الهجاء، وكتاب الأوسط، وكتاب غريب القرآن، وكتاب المسائل، وكتاب حد النحو، وكتاب تفسير كلام ابنة الخسّي، وكتاب الفصيح. كما أن له شرح ديوان زهير، وشرح ديوان الأعشى.

كتاب المجالس أو الأمالي:

يقول ابن النديم[٤]: «ولأبي العباس مجالسات أملاها على أصحابه في مجالسه، تحتوي على قطعة من النحو، واللغة، والأخبار، ومعاني القرآن والشعر مما سمع وتكلم عليه، وروى ذلك عنه جماعة منهم أبو بكر بن الأنباري، وأبو عبدالله اليزيدي، وأبو عمر الزاهد، وابن درستويه، وابن مقسم، وعمل قطعة من أشعار الفحول وغيرهم، منها الأعشى، والنابغتان، وطفيل، والطِّرِمَّاح، وغير ذلك من أصحابه».

فمن كلام ابن النديم يتضح أن مجالس ثعلب هو من هذا النوع المعروف بالأمالي التي أملاها الشيخ على تلامذته وسامعيه، فجمعوها ودونوها وأخرجوا بها كتاباً يراجعه ممليه بنفسه أو يكل المهمة إلى بعض النجباء من تلامذته.

ومنهج كتاب مجالس ثعلب لا يختلف كثيراً عن منهج كتب الأمالي التي جاءت بعده، فله فضل السبق والريادة في ذلك النوع الأدبي الموسوعي من الأمالي، إذ يحوي مجموعة من المعارف، والأخبار، والتاريخ والشعر والنثر واللغة والمأثور من أقوال البلغاء

---

(٣) الفهرست ص ١١١.
(٤) السابق ص ١١١.

والحكماء، كما يشتمل على شرح وتفسير كثير من الآيات القرآنية وتخريج مفرداتها، ورواية الحديث الشريف وشرحه.

ويقوم منهج ثعلب في مجالساته على حسن الاختيار والدقة فيما ينتقي من أخبار وأشعار ومعارف مختلفة.

ويقوم بناء الأمالي في مجالس ثعلب على سبعة مجالس، كل مجلس منها يذخر بالمعلومات المتنوعة بين أخبار وأحداث تتصل بأعلام العرب من خلفاء ووجهاء وشعراء وعلماء، متضمناً كذلك ألواناً من النثر كالخطب والنصائح والوصايا والمحاورات.

ويتألف الكتاب من اثني عشر جزءاً تتداخل في التقسيم مع المجالس السبعة كما هو مثبت في نسخة الكتاب الذي طبع في جزءين.

وبالرغم من شخصية ثعلب الجادة، فإنه لا يغفل في مجالسه ما يريح قارىء الكتاب، ويزيح عنه السأم والملل، وكدّ العقل بالمسائل العلمية الجادة، فينثر في كتابه شيئاً من الطرائف والمُلح والنوادر.

أما اللغة والنحو وقضاياهما فهما الأساس في مجالس أبي العباس ثعلب زعيم المدرسة الكوفية في علوم النحو واللغة، ومن هنا كانت تلك المجالس صورة واضحة تعكس آراء هذه المدرسة النحوية، ولم يمنع ذلك من أن تظهر بين دفتي الكتاب بعض آراء البصريين ووجهات نظرهم فيما يناقش من قضايا اللغة والنحو، من قبيل الرد عليها أو معارضتها.

ويشتمل الكتاب على عرض للهجات القبائل العربية في مواضع متفرقة منه، مع عقد مقارنات أو موازنات بين تلك اللهجات، كقوله: ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس، وعجرفية ضبّة، وتلتلة

بهراء. ثم يشرح أبو العباس كل نوع من هـذه اللهجات مـع التمثيل لها بشواهد من الشعر والرجز، من ذلك رجز لرجل من ربيعـة تظهـر في أرجوزته لهجة الكشكشة، أي أن ينطق الكاف شيناً في قوله:

عـليَّ فـيـمـا أبتـغي أبـغيش ∴ بيضـاء تُـرضيـني ولا تـرضيش

حتى تُنَقِّي كنقيق الديش

فإذا ما أبدلنا بالشينَ كافاً في الأرجوزة السابقة عادت اللهجة من الكشكشة إلى اللهجة المألوفة.

والكتاب في النهاية من المصادر العـربية ذات الأهميـة في نقل كثير من جوانب التراث العربي شعراً ونثراً ولغة وأخباراً ووقائع وأيـاماً وتاريخاً وحكمة وأمثالاً ونوادر.

وقـد صـدر كتـاب (مجـالس ثعلب) في جــزءين بتحقيق عبـد السلام هارون في القاهرة وطبع بدار المعارف.

من كتب الطبقات

- طبقات فحول الشعراء لابن سلام
- طبقات النحويين للزبيدي (الطرابلسي)
- كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز
- كتاب يتيمة الدهر للثعالبي.
- كتاب الذخيرة لابن بسام



الأصل في مفهوم كلمة (طبقات) هو التفاوت، والاختلاف، والترتيب صعوداً أو نزولاً من حيث الزمن أو من حيث المكانة والقيمة والدرجة، أو من حيث الجنس والنوع. وهذا ينطبق على كل شيء وعلى كل إنسان.

والذي يعنينا في هذا المجال هو الإنسان، لا من حيث طبقته الاجتماعية علوّاً أو هبوطاً أو تَوَسُّطاً، بل من حيث علمه في مجال اختصاصه، وفي إطار اهتماماته. أي تقسيم الرجال إلى طبقات أو درجات. كلٌّ في دائرة علمه أو فنه وصنعته، أو مذهبه أو زمنه. وقد ظهر هذا النوع من التأليف أول ما ظهر في أحضان العلوم الدينية، مثل طبقات المفسرين، وطبقات القُرَّاء، وطبقات المحدِّثين والرواة، ولعلم الحديث بالذات ريادة في هذا الاتجاه إلى تصنيف رواة الحديث على طبقات لمعرفة أزمانهم وأجيالهم، تمهيداً لدراسة الأسانيد ونقدها، واستظهار ما قد يكون فيها من خلل.

ثم امتدت ظاهرة التأليف في الطبقات من دائرة علم الحديث إلى غيره من علوم الدين والدنيا، فظهر تصنيف لطبقات القُرَّاء وطبقات المفسرين، وطبقات الفقهاء، وطبقات الصحابة، وطبقات أصحاب المذاهب الدينية كطبقات الشافعية مثلاً، ومن علوم الدين إلى غيرها من علوم، فتناول التصنيف طبقات الحكماء والأطباء، والنحاة والشعراء وغيرهم.

ولم يقف مدلول التصنيف في الطبقات عند التقسيم الزمني لكل طبقة أو جيل، بل ظهر التقسيم القيمي، أي التقسيم من حيث

قيمـة وأهمية ودرجـة كل طبقـة في بابهـا، وأكثـر من ذلـك أن بعض التصنيف في هـذا المجال اتخـذ طابـع المعجمية، من حيث تـرتيب الأفراد على حروف الهجاء، كما فعل السيوطي في (بغيـة الوعـاة في طبقات اللغويين والنحاة).

وكانت أول محاولـة لتصنيف الشعراء إلى طبقـات هي محاولـة ابن سلام الجمحي في كتابه (طبقات فحول الشعراء).

كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجُمَحِي

وابن سلام هو محمد بن سلام بن عبدالله الجمحي، العالم اللغوي المحدِّث الناقد الإخباري المشهور، توفي سنة ٢٣١هـ أو ٢٣٢هـ. وقد عاش قرابة اثنين وتسعين عاماً ولذا فإن ولادته كانت حوالي سنة ١٤٠ هـ حسب أرجح الاستنتاجات قياساً على سنة وفاته ومدة حياته(١).

ولابن سلام (غير كتابه طبقات الشعراء) كتاب(غريب القرآن). وكان راوياً للشعر والحديث، غير أنه عُرف برواية الشعر أكثر منه مُحدِّثاً. وكان لغوياً نحوياً من مدرسة البصرة، وهو أول من كتب في الشعر والشعراء وأخبارهم وطبقاتهم.وكتابة الطبقات لا بد أن تستند إلى أدلة في سبب التقسيم والترتيب وبالتالي فهي كتأبة نقدية إلى حد ما.

وكان ابن سلام يتمتع بحس نقدي كما يبدو في مقدمة كتابه.

كتاب طبقات الشعراء ومنهجه

تناول ابن سلام في طبقاته مجموعة من الشعراء عدتهم مائة وأربعة عشر شاعراً، ما بين جاهلي وإسلامي.

ويتفاوت منهج ابن سلام الجمحي من حيث التقسيم، ما بين تقسيم قيميّ، وتقسيم زمني، وتقسيم ديني، وتقسيم موضوعي. وهو في كل ذلك لا يخلو من الاضطراب والافتقار إلى الدقة.

---

(١) انظر مناهج التأليف عند العلماء العرب للدكتور مصطفى الشكعة ص ٤٠١

فمن حيث الترتيب الزمني جعل كتابه قسمين، أولهما يتناول فيه طبقات الشعراء الجاهليين، وثانيهما خصصه لطبقات الشعراء الإسلاميين[1]، وساوى بين عدد طبقات كل منهما إذ جعل طبقات الشعراء الجاهليين عشر طبقات، وطبقات الشعراء الإسلاميين عشر طبقات أيضاً، تحتوي كل طبقة من هؤلاء وهؤلاء أربعة شعراء، ولم يخصص طبقة للمخضرمين، ولكنه جعل منهم جزءاً مع طبقات الجاهليين، وجزءاً آخر ضمن طبقات الشعراء الإسلاميين. والاضطراب في هذا هو أن من الشعراء المخضرمين الذين ضمهم إلى طبقات الجاهليين شعراء قضوا في الإسلام فترة طويلة من حياتهم، مثل النابغة الجعدي الذي أدرك موقعة صِفّين مع علي بن أبي طالب، ومنهم أبو ذؤيب الهذلي واسمه خويلد بن محرث (ت٢٧هـ) وشهد فتح إفريقية، ومنهم الشمَّاخ بن ضرار الذي مات بعد الحطيئة، وبايعه الحطيئة قبل موته حين قال الحطيئة وهو يحتضر: أبلغوا الشماخ عني أنه أشعر غطفان، بل الأكثر من ذلك أنه جعل الشاعر سُحَيْماً عبد بني الحَسْحَاس، ضمن طبقات الجاهليين، مع أن سحيماً وُلد في أوائل عصر النُّبوة وعاش حتى سنة ٤٠ هـ حين قتله سادته بنو الحسحاس. ومنهم الكميت بن معروف الأسدي ـ وهو غير الكميت بن زيد ـ وقد ألحق ابن سلام ذلك الشاعر ـ وكان يسميه الكميت الأوسط ـ بطبقات الشعراء الجاهليين، مع أنه عاش معظم حياته في العصر الإسلامي ومات سنة ٦٠ هـ.

وفي المقابل، وضع ابن سلام بعض الشعراء الجاهليين ضمن طبقات الشعراء الإسلاميين، مثل الشاعر بشامة بن الغدير، والشاعر قُراد بن حنش.

أما من حيث الاضطراب في التقسيم من حيث القيمة والمنزلة، فإن ابن سلام مثلاً يضع كلا من الشعراء طرفة بن العبد،

---

(١) الشعراء الإسلاميون الذين عاشوا في عصر بني أمية.

وعبيد بن الأبرص، وعلقمة بن عبدة في الطبقة الرابعة من الجاهليين، رغم أنهم في ذروة الشعراء، كذلك يضع عمرو بن كلثوم، وعنترة بن شداد، والحارث بن حلزة في الطبقة السادسة من الجاهليين رغم أنهم جميعاً من أصحاب المعلقات المشهورين، وفي الطبقة التاسعة كان موضع سحيم عبد بني الحسحاس الذي كان النبي ﷺ يُعجب بشعره.

ولا يخفى أن ابن سلام جعل ترتيب طبقات الشعراء وفق معايير ذكرها في مقدمته، وقد يكون ضمن معاييره في الترتيب معيار لم يذكره صراحة، وهو عدم رضاه عن الرُّجّاز والغزلين في الغالب، بدليل أنه وضع سحيماً في الطبقة قبل الأخيرة، من طبقات الجاهليين، وكان سحيم يشبِّب بنساء سادته بني الحسحاس ولذلك قتلوه. وابن سلام يشير إلى ذلك في طبقاته ص٤٣، ويذكر ردَّ عثمان بن عفان على عبدالله بن أبي ربيعة الذي اشترى سحيماً وكتب إلى عثمان بذلك فردّ عليه عثمان بقوله: لا حاجة لي به، إن الشاعر لا حريم له. وربما من أجل ذلك المعيار الشخصي عند ابن سلام، أنه لم يجعل للشاعر المعروف عمر بن أبي ربيعة مكاناً في طبقاتها كلها، وأهمل ذكره تماماً.

كما أنه أغفل شعراء قريش المعروفين غير عمر بن أبي ربيعة، مثل العرجيّ، والحارث المخزومي، وأبي دهبل وعبدالله بن قيس الرقيّات.

كذلك أهمل ابن سلام الجمحي الشاعرين المعروفين الطِّرمَّاح بن حكيم شاعر الخوارج والكميت بن زيد صاحب الهاشميات.

أما القسم الثاني من الكتاب وهو القسم الذي خصصه للشعراء الإسلاميين فقد قسمه أيضاً إلى عشر طبقات، خصص الطبقة الأولى منها لشعراء أربعة ممن عاشوا العصر الأموي وهم جرير، والفرزدق، والراعي، والأخطل. وقد وفى هذه الطبقة حقها من حيث كثرة

الاستشهاد بشعرهم، ويتناول قدراً لا بأس به من شعر النقائض بين جرير والفرزدق.

ويضع في المرتبة الثانية أو الطبقة الثانية من الشعراء الإسلاميين، كلاً من البعيث، والقطامي، وكُثيِّر عزة، وذي الرُّمة.

وهكذا يمضي في تقسيم الشعراء الإسلاميين حتى يكمل طبقاتهم عَشْراً، في كل طبقة أربعة شعراء.

وكما فعل في طبقات الجاهليين عندما ضم إليهم بعض المخضرمين، فعل كذلك في طبقات الإسلاميين حين ضم إليهم بعضاً آخر من الشعراء المخضرمين. وإلى جانب ما أُخِذَ على ابن سلام من حيث الاضطراب الزمني في التقسيم بأنه ضم إلى طبقات الإسلاميين بعض الشعراء الجاهليين مثل بشامة بن الغدير، وقراد بن حنش، أُخذ عليه أيضاً أنه لم يُنْزِل بعض الشعراء الإسلاميين منزلهم من الطبقات، ذلك حين جعل كلاًّ من جميل بن معمر، والأحوص في الطبقة السادسة، وعَدِيَّ بن الرِّقاع وزياداً الأعجم في الطبقة السابعة، وحين يضع المبرزين في فن الرجز مثل أبي النجم العجلي والعجاج وابنه رؤبة في الطبقة التاسعة[1].

ثم نرى نوعاً آخر من التقسيم، في منهج ابن سلام، إلى جانب التقسيم العَشْري، السابق الذي جعل عدة شعراء كل طبقة من طبقاته أربعة شعراء في الطبقات العشر الجاهلية، ونظيرتها الإسلامية.

وذلك التقسيم المختلف عن السابق، هو تقسيم من حيث الموضوع أو الفن الشعري تارة، ومن حيث المكان أو البيئة تارة أخرى، أو من حيث الملَّة أو الدين. وجعل من كل نوع من هذه الأقسام طبقة بعينها لم يلتزم في هذه الطبقات بعدد معين من

---

(١) المرجع السابق ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨.

الشعراء يطرد في كل منها كما فعل في طبقات الجاهليين وطبقات الإسلاميين.

أما التقسيم الموضوعي، فقد خصص طبقة بذاتها للشعراء الذين عُرفوا أو اشتهروا بفن الرثاء، وأطلق على هذه الطبقة اسم أصحاب المراثي، وتتألف هذه الطبقة من ثلاثة شعراء وشاعرة واحدة، والثلاثة هم متمم بن نويرة، وأعشى باهلة (عامر بن الحارث)، وكعب بن سعد الغنوي، والشاعرة هي الخنساء (تماضر بنت عمرو بن الحارث). ولم تحظ هذه الطبقة من الشعراء بما حظيت به طبقات أخرى من وفرة الاستشهاد بشعرهم وأقوال العلماء فيهم.

ثم يخصص ابن سلام في كتابه طبقة أخرى اعتبر فيها المكان أو البيئة أطلق عليها اسم طبقة شعراء القُرى العربية، ويقصد بهم شعراء الحَضَر، وعدة هذه الطبقة ثلاثون شاعراً، تم تصنيفهم بحسب القرى التي نشأوا فيها. وهذه القرى هي المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين. ويجعل الشاعر حسان بن ثابت على رأس شعراء المدينة الذين ذكرهم معه، وهم كعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، وقيس بن الخطيم، وأبو قيس بن الأسلت. ومن شعراء مكة يذكر عبدالله بن الزبعري، ومسافر بن أبي عمرو وغيرهما. ويذكر من شعراء الطائف أربعة على رأسهم الشاعر المتحنف أمية بن أبي الصلت. أما شعراء البحرين فهم ثلاثة من بينهم المثَقِّب العبدي. وعندما يذكر شعراء اليمامة يقول: «ولا أعرف باليمامة شاعراً مشهوراً».

أما التقسيم من حيث الملَّة أو الدين، فهو ذلك القسم أو تلك الطبقة التي خصصها للشعراء اليهود الذين كانوا يعيشون في بلاد العرب، وذكر منهم عشرة شعراء، منهم السَّمَوءل بن عادياء، وسعية بن غريض، وكعب بن الأشرف، والربيع بن أبي الحُقيق وغيرهم.

وقد التزم ابن سلام في كتابه، الرواية غير مجردة من أسانيدها، وذلك توثيقاً للنصوص التي يذكرها ويستشهد بها.

أما مقدمة كتاب ابن سلام فهي لا تقل أهمية عن المحتوى بل ربما فاقته أهمية، إذ نستشف من المقدمة ريادة صاحبها لفن النقد الأدبي فضلاً عن تأريخه لنشأة علم العربية، وأولوية الشعر العربي وما صاحَبَ رواية الشعر من بعض الشوائب، كالانتحال والسُّرقة وعدم الأمانة من قِبَل بعض الرواة، كخلف الأحمر، وحماد الراوية وغيرهما.

وفي المقدمة يضع ابن سلام معايير خاصة في نقد الشعر، وتمييز جيده من رديئه، وصحيحه من منحوله، وأن هذه المعايير لها أصحابها القادرون عليها، وليس لكل إنسان لا يملك مقومات هذه المعايير أن يتصدى للحكم على الشعر، تماماً كالصيرفي الذي يستطيع وحده نقد الدراهم، وتمييز الجيد منها والزائف. يقول ابن سلام في مقدمة كتابه:

«... وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والثقافات، منها ما تَثْقَفُه العين، ومنها ما تثقفه الأذن، ومنها ما تثقفه اليد، ومنها ما يثقفه اللسان. من ذلك اللؤلؤ والياقوت، لا يُعْرَفُ بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يُبْصره، ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم، لا يَعْرِفُ جودتهما بلون، ولا مَسٍّ، ولا طراز، ولا جِسٍّ، ولا صفة، ويعرفها الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها وزائفها، وسَتُّوقَها ومُفَرَّغَها،

ومنه البصر بغريب النخل، والبصر بأنواع المتاع وضروبه، واختلاف بلاده، وتشابه لونه ومَسِّه وذَرْعِه، حتى يُضاف كل صنف منها إلى بلده الذي خرج منه، وكذلك بصر الرقيق، فتوصف الجارية فيقال: ناصعة اللون، جيدة الشَّطْب، نقية الثغر، حسنة العين والأنف، جيدة النهود، طريفة اللسان، واردة الشعر، فتكون هذه الصفة بمائة دينار، وبمائتين دينار، وتكون أخرى بألف دينار وأكثر،

لا يجد واصفها مزيداً على هذه الصفة».

ثم يذكر ابن سلام مقومات النقد الجيد التي يجب توافرها فيمن يتصدى لمهمة النقد فيقول:

«وإن كثرة المُدارسة تعين على العلم، قال محمد: قال خلاد بن يزيد الباهلي لخلف بن حيان أبي محرز ـ وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله ـ «بأي شي، تَرُدُّ هذه الأشعار التي تُسْرَوَى؟ قال له: هل تعلم أنت منها ما إنه مصنوع لا خير فيه؟ قال نعم، قال: أفتعلم في الناس من هو أعلم منك بالشعر؟ قال: نعم، قال: فلا تُنكر أن يعرفوا من ذلك ما تعرفه أنت. قال ابن سلام: وقال قائل لخلف: إذا سمعت أنا بالشعر واستحسنته فما أبالي ما قلتَ فيه أنت وأصحابُك، فقال له: إذا أخذت أنت درهماً فاستحسنته فقال لك الصَّرَّاف إنه رديء هل ينفعك استحسانك له».

ويعيب ابن سلام على محمد بن إسحاق مولى آل مخرمة وكان عالماً بالسِّير فنقل عنه الشعر، يعيبه ويتهمه بأنه ممن هجَّنوا الشعر وأفسدوه، ويرد عليه ابن سلام ناقداً، لأن ابن إسحاق ينسب شعراً لمن لم يقولوا الشعر قط، بل جاوز ذلك فيروى شعراً للأمم البائدة كعاد وثمود فيقول: «. . أفلا يرجع إلى نفسه فيقول مَنْ حَمَلَ هذا الشعر، ومَنْ أدَّاه منذ ألوف من السنين، والله يقول: «وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أَبْقَى» وقال في عاد: «فهل ترى لهم من باقية» وقال: «وعاداً وثمودَ والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله».

وأخيراً فإنه مهما قيل في ابن سلام وكتابه، ومهما كانت المآخذ التي تؤخذ عليه، فيكفيه فضل ريادة التأليف في الشعراء وتصنيفهم، وفضل ريادة النقد ووضع المعايير الأولى فيه، وتمهيد السبيل لمن جاء بعده.

وقد طبع الكتاب طبعة جيدة بعنوان (طبقات فحول الشعراء) بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر، ونشرته دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٣.

كتاب طبقات النحويين واللغويين للزبيدي

ومؤلف الكتاب هو أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي الإشبيلي، من رجال القرن الرابع الهجري، توفي سنة ٣٧٩ هـ. وهو من علماء عصره المشهورين في ميدان اللغة والنحو، وهو صاحب اختصار كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥ هـ). تتلمذ على أبيه، وعلى جماعة من علماء عصره، منهم أبو عليّ القالي (ت ٣٥٦ هـ) حين رحل القالي إلى الأندلس سنة ٣٣٠ هـ تلبية لدعوة الخليفة عبد الرحمن الناصر.

كتاب طبقات النحويين واللغويين:

كما قلنا من قبل بأن تأليف كتب الطبقات بدأ في علم الحديث ثم انتقل إلى العلوم الأخرى، وكان للغويين والنحويين نصيب من هذا النوع من التأليف، فصنفت كتب في طبقاتهم وأخبارهم ومذاهبهم ومواطنهم، واتخذ مؤلفو هذا النوع من اللغويين والنحاة، منهج نظرائهم الذين ألفوا في طبقات الشعراء والأدباء، فمنهم من اتخذ المنهج الزمني، ومنهم من جعل التقسيم على أساس مكاني بيئي باعتبار مواطن من ترجم لهم، ومنهم من جعل منهجه معجميّ الطابع إذا زاد عدد من يكتب عنهم.

وأقدم ما وصل إلينا علمه في فن تأليف كتب الطبقات التي تتناول النحويين واللغويين، كتاب المبرِّد عن طبقات النحويين البصريين وأخبارهم، وكتاب أخبار النحويين لابن درستويه، وطبقات

النحويين البصريين للسيرافي، ومراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي، والمقتبس في أخبار النحويين واللغويين للمرزباني، وظل هذا النوع من التأليف يتوالى حتى نهاية القرن التاسع الهجري حين ألف السيوطي (ت ٩٩١ هـ) كتابه المعجمي الشامل بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة.

أما كتاب الزبيدي (طبقات النحويين واللغويين) فهو من أقدم الكتب التي وصلت إلينا في هذا اللون من التأليف.

والكتاب أندلسي النشأة تبعاً لحياة صاحبه، غير أنه شأن سائر علماء الأندلس، مشرقي المنهج. وقد تناول فيه صاحبه أجيال ثلاثة قرون تقريباً من علماء اللغة والنحو، أي منذ نشأة هذين العلمين حتى عصر المؤلف وقد صنف الزبيدي علماء اللغة والنحو في كتابه تصنيفاً مكانياً بحسب بيئاتهم ومواطنهم، إلى جانب التصنيف الزمني، حيث تناول كما قلنا رجال ثلاثة قرون من رجالات اللغة والنحو.

وكان التصنيف المكاني ضرورياً في هذا الموضوع، لتعدد مواطن المدارس أو المذاهب النحوية واللغوية. فقسم الزبيدي كتابه خمسة أقسام بحسب الأقطار أو الأقاليم الخمسة التالية: البصرة، والكوفة، ومصر، وإفريقية، والأندلس.

ولم يلتزم الزبيدي في منهج تقسيمه بعدد معين من اللغويين والنحاة في كل طبقة من هذه الطبقات. كما أنه لم يلتزم الفصل بين علماء اللغة وعلماء النحو في كل قسم من أقسام كتابه الخمسة، ما عدا علماء البصرة وعلماء الكوفة، أما بقية الأمصار فلم يفصل بين علمائها النحويين وعلمائها اللغويين وربما كان ذلك لوضوح وشهرة علماء البصرة والكوفة، كما أنه من الصعب بمكان الفصل بين عالِم اللغة وعالِم النحو، لأن الأغلب الأعم في رجال هذين العِلمين هو الجمع بينهما، وقد لا نجد عالم لغة دون علم في النحو، أو العكس ولكن يأتي التفريق أحياناً بتغلب جانب على آخر، أو اشتهار

عالم باللغة أكثر من اشتهاره نحوياً، أو اشتهاره نحوياً أكثر منه لغوياً، وهكذا.

ولم يغفل الزبيدي في كتابه، أخبار هؤلاء العلماء مع تفاوت في ذكر هذه الأخبار مما أوجد تفاوتاً في قيمة من ترجم لهم، لأن منهجه في إيراد أخبار هؤلاء العلماء يقوم على الاختيار والانتقاء بحيث يتوخى من الأخبار غالباً ما يعطي أهمية أو قيمة للموضوع، فأحياناً يطيل ويكثر من هذه الروايات والأخبار وأحياناً يقفر ويقصر.

ومن خلال حديث الزبيدي في مقدمة كتابه نستشف أن الذي أوحى له بتأليف الكتاب، وحدد له خطته هو الخليفة الأندلسي الأموي الحريص على العلم والعلماء الحكم المستنصر بالله، يقول الزبيدي: «وإن أمير المؤمنين الحكم المستنصر ـ رضي الله عنه ـ لما اختصه الله به ومنحه الفضيلة فيه من العناية بضروب العلوم، والإحاطة بصنوف الفنون، أمرني بتأليف كتاب يشتمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين في صدر الإسلام، ثم من تلاهم من بعد... إلى زماننا هذا، وأن أطبقهم على أزمانهم وبلادهم بحسب مذاهبهم في العلم ومراتبهم، وأذكر مع ذلك موالدهم وأسنانهم ومُدد أعمارهم وتاريخ وفاتهم على قدر الإمكان في ذلك، وبحسب الإدراك له، .. فألفت هذا الكتاب على الوجه الذي أمرني به أمير المؤمنين....» وأيا ما كان رأي الدارسين في الكتاب، فإنه دون شك، قيمة علمية أضافها الزبيدي إلى كنوز المكتبة العربية.

وكانت أول طبعة كاملة للكتاب سنة ١٩٥٤ بمطبعة السعادة بمصر، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. وقبل ذلك كان المستشرق كرنكو قد نشر مختصراً للكتاب سنة ١٩١٩ م.

كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز

ومؤلف الكتاب رجل من رجال القرن الثالث الهجري هو العالم الأديب الشاعر عبد الله بن المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد بن المهدي بن أبي جعفر المنصور.

وابن المعتز كما هو واضح من سلسلة نسبة سليل عظماء خلفاء الدولة العباسية، وقد تولى هو نفسه الخلافة ولم يدم فيها أكثر من يوم واحد وقُتِلَ، كما أن أباه المعتز بالله قُتل ولما يمضى على توليه الخلافة أكثر من أربعين يوماً نشأ ابن المعتز نشأة عالية اجتماعياً وثقافياً، إذ كان الخلفاء يستقدمون لتربية أبنائهم خيرة علماء عصرهم في الدين والأدب واللغة وشتى فروع العلم. فكان من أساتذة عبد الله بن المعتز العالم اللغوي الأديب محمد بن يزيد المبرِّد، وأبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، وقد سبق الحديث عن هذين العالمين الجليلين، كذلك كان من أساتذته محمد بن هبيرة الأسدي، وأحمد بن صالح المعروف بابن فَنَن، فنشأ ابن المعتز نشأة علمية طيبة، جعلت منه أديباً جيداً، وشاعراً رقيقاً، وعالماً مجتهداً، ويكفيه أنه أول من مهد الطريق لعلم البديع، وأول من قننه واكتشف كثيراً من أنواعه وأول من ألَّف فيه كتاباً سار على هديه بعد ذلك من جاء بعده، وهو كتاب (البديع).

وقد تنوعت معارف ابن المعتز، فألف طائفة من الكتب في الشعر والغناء والبديع والسرقات والصيد.. مثل:

١ - كتاب البديع.
٢ - كتاب طبقات الشعراء.
٣ - كتاب الزهر والرياض.
٤ - كتاب الجوارح والصيد.
٥ - كتاب أشعار الملوك.
٦ - مكاتبات الإخوان بالشعر.
٧ - كتاب حُلَى الأخبار.
٨ - كتاب الجامع في الغناء.
٩ - كتاب فيه أرجوزة في ذم الصَّبوح.
١٠ - كتاب الآداب.
١١ - كتاب السرقات.
١٢ - كتاب فيه أرجوزة في تاريخ بني العباس.
١٣ - كتاب فصول التماثيل.
١٤ - ديوان شعر ضخم له.

ومما يدل على عبقرية ابنِ المعتز أنه ألف كل هذه المؤلفات في فترة وجيزة إذ لم يعش طويلاً، بل قتل ولما يبلغ الخمسين بعدُ من عمره (٢٤٧ هـ - ٢٩٦ هـ).

كتاب طبقات الشعراء: -

يمثل كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز نوعاً جديداً من كتب طبقات الشعراء وهو النوع المتخصص في شعراء عصر بعينه، وهم شعراء عصره. وربما كان هذا النوع أكثر دقة ودراية ومعرفة بالشاعر وشعره لأن المؤلف يعايشهم أو يعاصرهم، واسم الكتاب كاملاً كما ذكره ابن المعتز ص ١٨ «طبقات الشعراء المتكلمين من الأدباء والمتقدمين» ولكن الكتاب اشتهر بطبقات الشعراء أو طبقات الشعراء المحدثين.

ويشير ابن المعتز في مقدمة الكتاب إلى محتواه فيقول (ص ١٨):

«وخطر عليَّ الخاطر في بعض الأفكار أن أذكر في نسخةٍ، ما وَضَعَتْه الشعراء من الأشعار في مدح الخلفاء والوزراء والأمراء من بني العباس، ليكون مذكوراً عن الناس، متابعاً لما ألفه ابن نجيم قَبْلي بكتابه المسمى (بسطبقات الشعر الثقات) مستعيناً بالله المُسَهِّل الحاجات، وسميته طبقات الشعراء المتكلمين من الأدباء الأقدمين.

إذن فمادة الكتاب محدودة بفئة معينة من الشعراء في زمن معين، أما الزمن فهو العصر العباسي، أو على الأصح جزء من العصر العباسي وهو منذ بداية الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ حتى الوقت الذي ألّف فيه عبد الله ابن المعتز كتابه، فإذا كان ابن المعتز قد مات سنة ٢٩٦ هـ فإن الفترة التي اختار شعراءها لا تتجاوز القرن والنصف إلا قليلاً. هذا فضلاً عن أنه لم يختر كل شعراء هذه الفترة بل مَنْ مَدَح منهم بني العباس فقط. وهذا يدل على أن طبقات الشعراء لابن المعتز قد أغفل كثيراً من شعراء تلك الفترة، ممن ليس لهم شعر في مدح بني العباس حتى ولو كانوا من كبار الشعراء آنذاك، وأثبت مَنْ مدحوا بني العباس حتى ولو لم يكن بعضهم من المشهورين العظماء، فقد بدأ ابن المعتز كتابه بأكثر الشعْراء مدحاً لبني العباس وأكثرهم دلالا على الخليفة العباسي، وهو الشاعر ابن هَرْمَة، وكان سِكِّيراً، ولكنه مقرب لدى الخليفة إلى درجة أن الخليفة أرسل إلى عامله بالمدينة ألا يقيم حدَّ الخمر على ابن هرمة إذا ما ضُبط وهو سكران.

وأهمل ابن المعتز بعض الشعراء المعروفين إما لعدم مدح بني العباس وبذلك لا يدخلون في نطاق الخطة التي ارتضاها لكتابه، أو لعداوة شخصية كابن الرومي الذي أساء إلى ابن المعتز وألحق به الأذى. فضلاً عن هجاء ابن الرومي للمعتز بالله والد عبد الله بن المعتز. أو أن يكون الشاعر الذي أهمله ابن المعتز متهماً في دينه مثل يحيى بن زياد الحارثي الذي اشتهر بالزندقة، أو يكون الشاعر الذي أهمله ابن المعتز شعوبياً كارهاً للعرب مثل الشاعر المعروف

بديك الجن واسمه عبد السلام بن رغبان.

وإذا كان مسلك ابن المعتز هذا في إهمال شعراء كبار معروفين ليس من المنهج العلمي، أو يصمه بالبعد عن الموضوعية، فإن كتابه بالرغم من ذلك له قيمته من حيث منهجه، فهو لون جديد من كتب الطبقات المتخصصة ومع أنه لم يكن وحده السابق في هذا اللون، فإن من كتب فيه لم تصل إليا كتبهم، فالجاحظ مثلاً سبق ابن المعتز في كتاب ألفه بعنوان «من اسمه عمرو من الشعراء» ولكنه لم يصل إلينا، كذلك كان هارون بن عليٍّ بن يحيى بن المنجم، معاصر ابن المعتز، قد ألَّف كتاباً سماه (البارع) في أخبار الشعراء المولَّدين، ترجم فيه لطائفة المولَّدين من الشعراء، ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا، وقد أثنى المؤرخون عليه كثيراً، ويصفه ابن خلكان بأنه يغني عن دواوين الجماعة الذين ذكرهم من الشعراء (وفيات الأعيان ٥/١٢٧).

كما أن كتاب ابن المعتز يعطي صورة من ذوق صاحبه الأديب الشاعر الرقيق، فيأتي أسلوبه جميلاً معبراً شائقاً.

ويتضمن الكتاب كثيراً من الأحداث التاريخية المرتبطة بالنصوص المختارة ولها أهمية عند مؤرخ الأدب خاصة. وربما كانت بعض الأحداث لاتهم المؤرخ العام كثيراً ولكنها عند مؤرخ الأدب لها أهميتها.

ومنهجه في كتابه قريب من مناهج مؤلفي كتب الثقافة الأدبية، فهو رغم أنه كتاب طبقات للشعراء، غير أنه يورد أخباراً وقصصاً بأسلوب جيد سلس، كما أنه بعرض ألواناً من الحياة الاجتماعية حين يذكر أخبار الشعراء الذين تناولهم، ويتدخل ذوق المؤلف الشاعر الأديب فيما يختار من أشعار، وما يعرض من مساجلات شعرية كانت تدور بين الشعراء.

ومما يزيد من أهمية الكتاب، ما أودعه صاحبه من نظرات

نقدية جيدة حين يبدي رأيه في شعر شاعر ممن اختارهم.

ولا يغفل ابن المعتز حظ القارىء من طلب المتعة، فيذكر بين الفينة والفينة بعض المُلح والنوادر والطرائف والنكات، مما يريح نفس القارىء ويشده إليه، ولا يمله.

كتاب يتيمة الدهر للثعالبي

ومؤلفه هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري، ولد في منتصف القرن الرابع الهجري، وتوفي سنة ٤٢٩ هـ، وهو من أكثر أدباء عصره شهرة وذيوع صيت، لُقِّبَ بالثعالبي لأنه كان في أول حياته بمدينته نيسابور يعمل في صناعة الفراء ويخيط جلود الثعالب. لذلك فهو ينسب تارة إلى مدينته، وتارة إلى مهنته، ثم اتجه إلى العلم والتحصيل فبرع ونبغ، وصار من كبار المؤلفين في أكثر من اتجاه، فحاز إعجاب العلماء، ولفت أنظار الصفوة، وسار على دربه من كان ذا شهرة مثل ابن بسام الذي وصفه بأنه:[1]

«كان في وقته راعي تلعات العِلْم، وجامع أشتات النثر والنظم، رأس المؤلفين في زمانه، وإمام المصنفين بحكم قرانه، سار ذكره سَيْر المثَل، وضُرِبتْ إليه آباط الإبل، وطلعتْ دواوينه في المشارق والمغارب، طلوع النجم في الغياهب، تواليفه أشهر مواضع، وأبهر مطالع، وأكثر راوٍ لها وجامع، من أن يستوفيها حدٌّ أو وصف، أو يوافيها حقوقها نظم أو رصف».

وكان الثعالبي على صلة وثيقة بكثير من العلماء والعظماء، مثل العالم الجليل أبي الفضل الميكالي رأس بني ميكال، وقد أفاد الثعالبي من مكتبة بني ميكال، كما أنه كان على اتصال بالأمير أبي

(١) وفيات الأعيان ١٧٨/٣.

نصر سهل بن المرزبان، والأمير مأمون بن مأمون خوارزم شاه، وصادَقَ كثيراً من أعلام الأدب، ومنهم بديع الزمان الهمذاني.

وله كتب ألفها في الأدب غير يتيمة الدهر، منها كتاب «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» وهو كتاب أدبي جيد أهداه إلى الأمير الأديب أبي الفضل الميكالي بنيسابور. و«كتاب خاص الخاص» وهو مجموعة مختارات من روائع الشعر وبدائع النثر. يحتوى على أمثال العرب والعجم، ولطائف الظرفاء، وأخبار وتعبيرات لأصحاب المهن والصناعات والحرف. كما يشتمل على مجموعة من توقيعات الملوك والوزراء والأمراء والكبراء. كما أنه يشتمل على نخبة منتقاة من قصائد شعراء يربو عددهم على المائة والثمانين شاعراً. منذ الجاهلية حتى عصر المؤلف نفسه. هذا فضلاً عن مجموعة من شعره الخاص. ويبدأ الكتاب بباب فيما يقارب الإعجاز من إيجاز البلغاء وسحرة الكُتاب.

كتاب يتيمة الدهر:

اخترنا كتاب اليتيمة وسلكناه ضمن كتب الطبقات بسبب منهج صاحبه في تقسيمه رغم أن عنوانه لا ينص على أنه كتاب في الطبقات كما هو الحال في طبقات ابن سلام وطبقات ابن المعتز، وإذا كان كتاب الطبقات لابن المعتز قد اقتصر على طبقة المحدثين ممن امتدحوا بني العباس، فإن الثعالبي وإن كان اقتصر في اليتيمة على المحدثين من الشعراء في عصره (القرن الرابع الهجري)، فإنه كان أكثر اتساعاً من اختيارات ابن المعتز الذي قَصَرَ الحديث على ما دحى العباسيين منهم وحسب.

وإذا كان الثعالبي قد تناول شعراء القرن الرابع الهجري المعاصرين له، فإنه قَسَّمهم في اليتيمة تقسيماً مكانياً أو بيئياً حسب أقسام الممالك أو الأقطار الإسلامية والعربية آنذاك، فقسَّم شعراء عصره أربعة أقسام هي أقسام كتابه اليتيمة. فجعل القسم الأول منه

لشعراء الشام ومصر والمغرب والأندلس، والقسم الثاني لشعراء العراق، وخص القسم الثالث بشعراء فارس، وجعل القسم الرابع والأخير خاصاً بشعراء خراسان وما وراء النهر.

ومما يجعل كتاب اليتيمة أدْخَلَ في كتب الطبقات منه في كتب التراجم[1]، هو أن الثعالبي في تقسيماته الأربعة للشعراء لم يقصد مجرد الترقيم، بل يقصد المفاضلة، وبذلك لا يكون تقسيمه تقسيماً مكانياً بيئياً وحسب، ولكنه إلى جانب ذلك تقسيم ترتيبي أيضاً، فالقسم الأول يقصد به الأولوية من حيث الأهمية والقيمة والمفاضلة، يتضح ذلك في حديثه عن سبب تبريز وتفوق شعراء القسم الأول فيقول:

«والسبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً على سواهم في الشعر، قربهم من خطط العرب، ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق، لمجاورة الفُرس والنَّبط ومداخلتهم إياهم. ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة، ورُزِقوا ملوكاً وأمراء من آل حمدان وبني ورقاء هم بقية العرب، والمشغوفون بالأدب، والمشهورون بالمجد والكرم، والجمع بين أدوات السيف والقلم، وما منهم إلا جواد يحب الشعر وينتقده، ويثيب على الجيد منه فيجزل ويُفْضِل، انبعثت قرائحهم في الإجادة، فقادوا محاسن الكلام بألين زمام، وأبدعوا ما شاءوا».

وكتاب يتيمة الدهر يجمع في تأليفه بين مرحلتين من مراحل صاحبه، مرحلة الشباب بقوته واندفاعه وسرعته، ومرحلة الشيخوخة بتأملها وتأنيها وحكمتها واستقصائها وخبرتها. نفهم ذلك من قول الثعالبي في مقدمة كتابه:

---

(١) تعتبر كتب الطبقات كلها نوعاً من كتب التراجم بطبيعة الحال، غير أن كتب الطبقات تتميز بالتقسيم حسب القيمة والمنزلة أو حسب الزمان، أو حسب المكان والبيئة، أو حسب الموضوع، أو حسب المفاضلة وما إلى ذلك.

«. . . وقد كنت تصديت لعمل ذلك في سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، والعمر في إقباله، والشباب في نمائه، . . . فارتفع كعُجالة الراكب، وقبسة العجلان، وقضيت به حاجةً في نفسي. وأنا لا أحسب المستعيرين يتعاورونه، والمنتسخين يتداولونه، حتى يصير من أنْفَس الأدباء والإخوان، وتسير به الرُّكبان إلى أقاصي البلدان. . . فقلت: إن كان لهذا الكتاب محلٌّ من نفوس الأدباء، وموقع من قلوب الفضلاء، فيما لم يقرع من قَبْلُ آذانهم، ولم يصافح أذهانهم، فلِم لا أبلغ به المبلغ الذي يستحق حسنِ الإحماد. . .؟ ولم لا أبسط فيه عنان الكلام. . .؟ إلى أن أدركتُ عصر السِّنّ والحنكةُ وشارفتُ أوانِ الثبات والمسكة، فاختلستُ لمُعةً من ظُلم الدهر. وانتهزتُ رقدةً من عين الزمان. . . واستمررت في تقرير هذه النسخة الأخيرةِ وتحريرها من بين النسخ الكثيرة، بعد أن غيرتُ ترتيبها وجدَّدتُ تبويبها. . . فهذه النسخة الآن تجمع من بدائع أعيان الفضل، ونجوم الأرض من أهل العصر، ومن تقدمهم قليلاً وسبقهم يسيراً، ما لم تأخذ الكتب العتيقة غُرَرَه».

ويتميز منهج كتاب اليتيمة عن غيره من نظرائه، بأنه جعل اهتمامه باستعراض إنتاج الشعراء الذين اختارهم أكثر من اهتمامه بعرض أخبارهم وأنسابهم وحياتهم. وهذه ميزة تبعده ولو قليلاً عن كتب التراجم. على أنه لم يغفل التراجم، بل اهتم بعرض تراجم لبعض المشهورين من الشعراء والأدباء في ذلك العصر، مثل أبي فراس الحمداني، والسَّرى الرفَّاء، وأبي الفرج الببغاء، وبديع الزمان الهمذاني، والصاحب بن عَبَّاد، والخوارزمي، وابن العميد، وابن الحجاج، وأبي إسحاق الصابي، وأبي الفتح البُسْتى، وأبي الفضل الميكالي. وأطال في تراجم بعضهم كالمتنبي مثلاً.

وترجع أهمية الكتاب أيضاً إلى استيعابه لكثير من الشعراء المغمورين الذين أَهْمَلَ ذكرَهم غيرُه، فانتقل ذكرهم وشعرهم إلينا عبر يتيمة الدهر دون سواها، فكانت اليتيمة بذلك ديواناً لشعراء

القرن الرابع الهجري، ومرآة تعكس صورة واضحة للحياة الأدبية في تلك الفترة، لم يتحقق مثلها للفترات السابقة عليها في كتب الآخرين الذين كان جل اهتمامهم بالقدماء من الشعراء والأدباء وأهملوا ذكر معاصريهم ومن كانوا يعايشونهم، وربما كان إعجاب الناس وكثرة تداولهم ليتيمة الدهر في حياة الثعالبي، يرجع إلى تحرر الثعالبي من قيود القدماء، وتجديد منهجه بالاقتصار على شعر المحدثين من معاصريه في القرن الرابع الهجري، خاصة وأن التجديد آنذاك كان له سحر خاص، واهتمام زائد في الأوساط الأدبية وفي بيئة شعراء العباسيين. وقد سبق ابن المعتز بكتابه كتابَ الثعالبي في الاقتصار على ذكر المحدثين، غير أن كتاب ابن المعتز لم يكن له شمول كتاب الثعالبي واستقصائه وتفصيله. وكانت تلك الأسباب مجتمعة من أهم الدوافع التي أدت بالثعالبي إلى وضع كتابه (يتيمة الدهر) دالاً بعنوانه على محتواه، يقول عن ذلك في مقدمته: «... وقد سبق مؤلفو الكتب إلى ترتيب المتقدمين من الشعراء والمتأخرين، وذكر طبقاتهم ودرجاتهم، وتدوين كلماتهم، والانتخاب من قصائدهم ومقطوعاتهم. وبقيت محاسن أهل العصر التي معها رُواء الحداثة، ولذة الجِدَّة، وحلاوة قُرْب العهد، وازدياد الجودة على كثرة النقد، غير محصورة بكتاب يضم نشرها...».

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ـ لابن بَسَّام

ابن بسام هو أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، أديب مشهور من أدباء الأندلس في القرن السادس الهجري، توفي سنة ٥٤٢ هـ.

كتاب الذخيرة:

هو كتاب من كتب التراجم العربية، يترجم لطائفة من شعراء المغرب العربي في بلاد الأندلس، في فترة معينة. كتبه أديب أندلسي معروف هو ابن بسام الشنتريني. وليس ابن بسام وحده من مفكري الأندلس الذي كتب في هذا الباب، ولكن هناك كتب أخرى ترجمت لشعراء وأدباء أندلسيين، من أشهر هذه الكتب كتاب «قلائد العِقْيان» وكتاب «مطمح الأنفس» والثاني مكمل للأول في تراجم أعيان الأندلس في القرن الخامس الهجري، والكتابان من تأليف الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان الأندلسي (ت ٥٢٩ هـ). وبعد ابن خاقان جاء أحمد بن محمد المقَّري (ت ١٠٤١ هـ) بموسوعته الضخمة (نفح الطيب) لتشمل تاريخ بلاد الأندلس وتراجم لشعرائها وأدبائها وأعيانها منذ فتح الأندلس حتى خروج العرب منها.

وكتاب الذخيرة كسائر المؤلفات الأندلسية، امتداد للمنهج المشرقيّ في أبوابه وتقسيماته ومقدمة مؤلفه، حتى العنوان الذي اختاره ابن بسام له، عنوان شرقي السمة، يدخل في نطاق عناوين مجموعة كبيرة من الكتب المشرقية التي ظهرت في هذا المجال.

لم يختلف كتاب الذخيرة عن غيره من كتب التراجم في المشرق العربي إلا في نوع الطائفة المختارة من الشعراء، إذ هي طائفة من شعراء الأندلس، أراد ابن بسام بترجمته لها. أن يجعل لشعراء الأندلس أو فئة منهم على الأقل نصيباً من الذكر والتعريف

بهم كغيرهم من شعراء المشرق، إذ يبدو أنّ ابن بسام قد هاله انجراف الأندلسيين الشامل في التيار المشرقي، وتقليدهم الكامل لكل فكر وتأليف مشرقي، وعشقهم الدائم المتزايد لكل ما يصدر عن المشرق من شعر أو نثر أو تصنيف علمي أو أدبي. وقد عَبَّر ابن بسام عن ذلك في أول مقدمة كتاب الذخيرة فيقول:

«... حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طَنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنماً، وتلوا ذلك كتاباً محكماً».

وقد رأى ابن بسام أن مَنْ يصنِّف من علماء الأندلس تراجم وأخبارا للشعراء والأدباء يغفل في كتابه ذكر شعراء الأندلس وأدبائها كما فعل ابن عبد ربه في (العقد الفريد)، فثارت نفس ابن بسام لهذا الإهمال والإغفال الكامل لشعراء الأندلس وأدبائها، وكأن الأندلس أجدبت من الشعراء، وأقفرت من الأدباء، على وفرتهم وتفوقهم. فأراد أن يضطلع هو نفسه بأداء ذلك الواجب نحوهم، فيؤلف كتاباً ينصفهم فيه، ويدون أخبارهم وأشعارهم، ليحتلوا مكانهم ومكانتهم في مسيرة التأريخ للشعراء العرب، فعل ابن بسام هذا كما يقول: «غيرةً لهذا الأفق الغريب أن تعود بدُوره أهِلَّةً، وتصبح بْحاره ثِماداً مضمحلة، مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه» ويقول: «... وليت شعري من قَصَرَ العلمَ على بعض الزمان، وخَصَّ أهلَ المشرق بالإحسان؟».

وإذا كان ابن بسام يعيب على مواطنيه ترسُّم خطا المشارقة في كل شيء، فإننا نراه هو نفسه لا يستطيع الفكاك من هذا القيد، وإذا كان ابن عبد ربه من قبله في (العقد الفريد) قد ترسم خطا ابن قتيبة في (عيون الأخبار)، فإن ابن بسام، نَهَجَ في (كتاب الذخيرة) نَهْجَ أبي منصور الثعالبي في كتابه (يتيمة الدهر).

وأهم أوجه تقليد ابن بسام للثعالبي، وترسُّم خطاه في كتابه، أن ابن بسام جعل كتابه مقصوراً على الترجمة لفئة الشعراء

المعاصرين له، فلا يذكر منهم إلا مَنْ أدركه بنفسه أو أدركه بعض معاصريه. يقول في مقدمة كتابه:

«... وقد كتبت لأرباب هذا الشأن من أهل الوقت والزمان، محاسن تبهر الألباب، وتسحر الشعراء والكتّاب. ولم أعرض بشيء من أشعار الدولة المروانية، والمدائح العامرية، ولا تعديت أهل عصري ممن شاهدته بعمري، أو لحقه أهل دهري».

وكما قسم الثعالبي الشعراء المعاصرين له، تقسيماً مكانياً، على أربعة أقسام بحسب أقاليم الدولة الإسلامية أنذاك، نجد ابن بسام يتبع التقسيم نفسه حين يجعل ترجمته للشعراء الأندلسيين المعاصرين له، تنقسم أربعة أقسام. ثلاثة منها خاصة بشعراء الأقاليم الأندلسية الثلاثة: غربي الأندلس، ووسط الأندلس، وشرقي الأندلس. والقسم الرابع خصصه للوافدين على بلاد الأندلس من شعراء إفريقية والمشرق. وبذلك يدخل الكتاب في دائرة كتب الطبقات.

ويعرض ابن بسام في مقدمة كتابه إلى ذلك التقسيم، ذاكراً أسماء الشعراء الذين سيترجم لهم في كل قسم من هذه الأقسام الأربعة.

وفي نهاية مقدمة كتاب الذخيرة، لا يرى ابن بسام بُدًّا من أن ينص على أنه اقتفى أثر أبي منصور الثعالبي في خطة كتابه ومنهجه فيقول:

«... وإنما ذكرتُ هؤلاء ائتساءً بأبي منصور في تأليفه المشهور المترجم بيتيمة الدهر في محاسن أهل العصر».

فابن بسام تأثر بالثعالبي في الخطة والمنهج، حتى في عنوان كتابه «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» وكتاب الثعالبي «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر». والحق أن كتاب الذخيرة من أهم المراجع في معرفة شعراء الأندلس وأدبائه في أواخر القرن الرابع الهجري

وأوائل الخامس، بما اشتمل عليه من تراجم وافية لهم، ونماذج غنية من مختاراتهم.



من كتب التراجم

- الشعر والشعراء لابن قتيبة
- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.
- كتاب الفهرست لابن النديم
- كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي



يرجع الفضل في نشأة تأليف كتب التراجم إلى حركة تدوين الحديث النبوي الشريف، حين هب علماء الدين لجمعه، يتلمسون مصادره، طالبين حُفاظه في أي موطن من المواطن، فاحتملوا صادقين مشاق الرحلة والسفر، والجلوس إلى الرواة والحافظين، وكان الحديث الواحد أحياناً تختلف سلسلة سنده أو بعض منها باختلاف مصادر رواته ومواطنهم، حتى اجتمع قدر هائل من الأحاديث، وكان لزاماً على جامعيه أن يدققوا في سلاسل السند توخياً للحقيقة، ودرءاً للشبهات في صحة الحديث، فاستلزم ذلك الإلمامَ بسيرة كل شخص في سلسلة السند، والتأكد من حقيقته وعلمه وحفظه وأمانته وسمعته في عصره وما إلى ذلك. فنشأ تبعاً لذلك تصنيف لهؤلاء الرواة، وترتيب زمني وقيمي ومكاني لكل طائفة منهم.

هذا التصنيف والترتيب والتقسيم الذي استدعاه تدوين الحديث، ما لبث أن انتقل إلى سائر ألوان العلوم، وأصبح منهجاً من مناهج المؤلفين في فروع العلوم والأدب كما أشرنا من قبل.

وكتب التراجم على تنوعها يحكمها خط واحد، هو ذكر الشخصيات وبيان زمن كل منها وتاريخ مولده وتاريخ وفاته، ونَسَبه، وأخباره وما تعرض له من حوادث أو نوادر تتصل بحياته العلمية أو الاجتماعية، وتبين قدره الاجتماعي والعلمي، وثقافته وشيوخه وتلاميذه وتعرض أقوال الناس فيه من علماء أو حكام أو غيرهم، وما صدر في شأنه وشأن علمه وإنتاجه من استحسان أو استهجان من معاصريه أو الذين جاءوا بعده، وشهادات شيوخه وتلاميذه والتالين له

من دارسي إنتاجه. كما تعرض الترجمة شيئاً من آثاره تمثيلاً أو استشهاداً على ما قيل فيه، له أو عليه.

ومن هنا كانت كتب التراجم أشبه ما تكون بسجل أو ديوان، وإن شئت فقل مكتبة تذخر بالمعلومات التاريخية والنصوص المختلفة، والمعارف التي يجد فيها كل باحث رغبته في مجاله، فتصبح بذلك ذات أهمية للأديب، والمؤرخ للأحداث والمؤرخ للأدب، ويستعين بها عالم الحضارات، ودارسو المجتمعات، إذ تعكس بما حوته من معلومات عن كل شخصية، صورة تتكامل في مجموع التراجم عما في عصورهم من ألوان الثقافات والمذاهب والسلوك، ومستوى العيش لكل فئة وطبقة من أفراد المجتمع.

وتزداد أهمية كتب التراجم في ميدان النقد، وفي ميدان التاريخ الأدبي بالذات، إذ لولا كتب التراجم لضاع الكثير من النصوص الأدبية التي تضمنتها، ولضاع ذكر كثير من الشعراء والأدباء المغمورين أو متوسطي الشهرة.

كما أن لهذه المؤلفات وبخاصة القديمة منها أهمية خاصة في تعريفنا بالكثير من مؤلفات العلماء التي ضاعت ولم يصل إلينا منها إلا ذكر أسمائها أو شذرات منها تناثرت بين دفتي كتب التراجم والسِّيَر. تلك النتف أو البقايا أو الشذرات التي يعرف قيمتها ويستشعر أهميتها محققو المخطوطات القديمة وبخاصة إذا كانت المخطوطة مجهولة المؤلف.

وقد تباينت مناهج كتب الترجمة، واختلفت مناحيها من حيث التقسيم والتبويب والعرض والمادة التي تحويها، فمنها التقسيم الزمني، ومنها التقسيم البيئي المكاني، ومنها التقسيم القيمي بحسب المنازل والأقدار، ومنها التقسيم المعجمي بحسب حروف الهجاء، ومنها كثير المادة غزيرها، ومنها المفصل المستقصي، ومنها ما جمع بين أكثر من لون من هذه التقسيمات.

وفيما يلي نعرض في إيجاز، تعريفاً ببعض نماذج من هذه الكتب في مجال الأدب واللغة، نبدأها بكتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة الذي يعطينا في أول خطبة كتابه صورة عن منهج تأليف التراجم الأدبية إذ يقول:

«هذا كتابٌ أَلَّفْتُهُ في الشعراء. أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم، وأحوالهم في أشعارهم وقبائلهم، وأسماء آبائهم، ومن كان يُعرف باللقب أو الكُنْيَة منهم، وعما يُسْتَحْسَنُ من أخبار الرجل ويُسْتَجَادُ من شعره، وما أخذته العلماءُ عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم. وما سَبَقَ إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون...».

كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة

وابن قتيبة هو عبدالله بن مسلم بن قتيبة المتوفي سنة ٢٧٦هـ وقد سبق التعريف به عند الحديث عن كتابه (عيون الأخبار).

كتاب الشعر والشعراء:

وينحو ابن قتيبة في كتابه مَنْحىً خاصاً من حيث اختيار الشعراء الذين ترجم لهم، فهو يقتصر في اختياره على الشعراء المشهورين دون المغموين، ويذكر سبب ذلك الاختيار في مقدمة الكتاب فيقول:

«. . .وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء، الذين يعرفهم جُلُّ أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفي النحو، وفي كتاب الله عزَّ وجلَّ، وحديث رسول الله ﷺ، فأما من خَفِيَ اسمه وقل ذكره وكَسَدَ شعره، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص، فما أقلَّ من ذكرتُ من هذه الطبقة. .».

وعلى الرغم من أن ابن قتيبة يبرر سبب اقتصاره على المشهورين من الشعراء، فإنه لو ذكر غير المشهورين أيضاً لكان أوقع وأنفع، كما فعل، الثعالبي بعده في يتيمة الدهر بالنسبة لشعراء القرن الرابع الهجري.

وإذا كان ابن قتيبة لم يتحدث إلا عن مشاهير الشعراء وحسب في كتابه، غير أنه يُحْمَدُ له أنه لم يقتصر على المشاهير من القدماء فقط من الجاهليين والإسلاميين كما فعل ابن سلام في طبقاته، بل

امتد اختياره إلى المشهورين أيضاً إلى المحدثين في وقته من شعراء القرن الثاني وأوائل القرن الثالث. وقد دفعه إلى ذلك المنهج رغبته في أن يجعل الفريقين في ميزان نقده سواء، لا يزن للقدماء بمعيار خاص لتقدمهم، ويزن للمحدثين، بمعيار أقل لتأخرهم، بل جعل للفريقين معياراً واحداً في حسابه النقدي، وهذه خطوة متطورة، وسّع بها ابن قتيبة دائرة النقد، ووضع بها أساساً جديداً في سبيل تطور النقد الذي كان ما يزال وقتذاك محدود القيمة، ضيق الأفق، خاضعاً في كثير من الأحوال لنظرات فردية شخصية، تُعلي قدر شاعر من أجل بيت أو بيتين، وتحط من قدر آخر للسبب نفسه، أو تقدّم القديم وتهتم به لِقِدَمِهِ، وتهمل المتأخر وتغفله لحداثته، دون النظر إلى العمل نفسه وقيمته. فابن قتيبة وضع معياراً واحداً لكل من القدماء والمحْدَثين، لأنه لا يرى فضلاً للمتقدم على المتأخر، فكل متقدم كان مُحْدثاً في زمانه.

يوضح لنا ابن قتيبة منهجه النقدي هذا في مقدمة كتابه حين يقول: «ولعلك تظن ـ رحمك الله ـ أنه يجب على من أَلَّفَ مثل كتابنا هذا ألا يَدَعَ شاعراً قديماً ولا حديثاً إلا ذكره، ودلَّ عليه، وتقدِّرُ أن يكون الشعراء بمنزلة رواة الحديث، والأخبار، والملوك والأشراف، الذين يبلغهم الإحصاء، ويجمعهم العدُّ».

ثم يوضح سبب نظره بعين المساواة بين القديم والحديث بقوله: «... ولم يَقْصِر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خَصَّ به قوْماً دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره، وكل شرفٍ خارجيَّةً[1] في أوله، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالُهم

(١) يقول محقق الكتاب الأستاذ أحمد محمد شاكر إن كلمة خارجية وردت في مخطوطة باريس (... خارجيًا) والخارجي هو الذي يَخرُج ويَشْرُف بنفسه من غير أن يكون له قديم.
ومنه الخارجية، وهي خيل لا عرق لها في الجودة، فتخرج سوابق، وهي مع ذلك جياد.

يُعدون مُحْدَثين، وكان عمرو بن العلاء يقول: لقد كثر هذا المحدث وحَسُنَ حتى لقد هَمَمْتُ بروايته.

ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون مَنْ بعدهم لمن يَعْدَنا، كالخزيمي والعتّابي والحسن بن هانىء وأشباههم. فكل من أتى بحسنٍ من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا عليه، ولم يضعه عندنا تأخُّرُ قائله أو فاعله، ولا حداثةُ سنّه. كما أن الرديء إذا وَرَدَ علينا للمتقدم أو الشريف، لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تَقَدُّمه».

ومن معايير ابن قتيبة في نقده قوله:

«ولم أسلك، فيما ذكرتُه من شعر كل شاعر مختاراً له، سبيلَ مَنْ قلَّد، أو اسْتحسن باستحسان غيره، ولا نظرتُ إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كُلًّا حظه، ووفَّرْتُ عليه حقه.

فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتَقَدُّم قائله، ويضعه في مُتَخَيَّره، ويُرْذِلُ الشعرَ الرصينَ، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى صاحبه».

ويبدأ ابن قتيبة كتابه بالحديث عن الشعر بعامة، حديث الناقد الفاحص المتذوق، فيضع بين يدي القارىء خلاصة ما وصل إليه في دراسته الطويلة الدقيقة المتأنية الفاحصة الواعية للشعر العربي قديمه وحديثه، ويخرج من ذلك بمعيار يطبقه على الشعر عامة فيقول: «تَدَبَّرتُ الشعر فوجدته أربعة أَضْرُب: ضرب منه حَسُنَ لفظه وجاد معناه...»[1] وضرب منه حَسُنَ لفظه وحَلاَ، فإذا أنت فَتَّشْتَه لم تجد هناك فائدة في المعنى...»[2]. وضرب منه جاد معناه وقَصُرَتْ

(١) الشعر والشعراء ١/٦٤.
(٢) السابق ص ٦٦.

ألفاظه عنه...»[3]. وضربٌ منه تأخر معناه وتأخر لفظه...»[4].

وهو عقب كل تعريف أو قسم من أقسام الشعر الأربعة التي ذكرها يأتي عليها بشواهد من شعر القدماء والمحدثين، ويناقش هذه الشواهد ويرد على أقوال العلماء فيها إذا كان لأحدهم رأيي يخالف معايير ابن قتيبة في الحكم. من ذلك مثلاً قوله عقب مناقشة بعض شعر للمرقش:

والعجب عندي من الأصمعي، إذ أدخله في مُتَخَيَّره، وهو شعر ليس بصحيح الوزن، ولا حَسَن الرويّ، ولا مُتَخَيَّر اللفظ، ولا لطيف المعنى[5] ثم يقدِّم لنا معايير للشاعر نفسه فيقول: «ومن الشعراء المتكلف والمطبوع» ويشرح معنى كل نوع من النوعين متمثلاً بالشواهد من القدماء والمحدثين[6]. ويقول كذلك «وليس كل الشعر يُختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى، ولكنه قد يُختار ويُحفظ لأسباب»[7] ثم يفصل هذا لأسباب. ثم يتناول عيوب الشعر كالإقواء والسِّناد والإيطاء ومخالفة قواعد النحو.

وهكذا يقوم ابن قتيبة في أول كتابه بدراسة قيِّمة هامة فيما يجب أن يكون عليه الشعر والشاعر من أصول وقواعد.

ويعتبر هذا المدخل الرائع ومن قبله خطبة الكتاب، دليلاً على تطور منهج التأليف عند ابن قتيبة.

وقد اعتبرنا كتاب الشعر والشعراء هذا لابن قتبة كتاباً في التراجم أكثر منه كتاب طبقات، لأن ابن قتيبة ينظر فيه إلى كل شاعر على حدة فيذكر زمنه وأخباره ونوادره وأشعاره وما قيل عنه وعن

(٣) السابق ص ٦٨.
(٤) السابق ص ٦٩.
(٥) السابق ص ٧٢.
(٦) السابق ص ٧٧ وما بعدها.
(٧) السابق ص ٨٤.

شعره، فإذا ما انتهى منه انتقل إلى غيره. ذلك رغم أنّ ابن قتيبة قد اتخذ في تناول الشعراء منهجاً زمنياً وإن كان غير دقيق، فبدأ بالأقدمين من مشاهير الشعراء الجاهليين والمخضرمين فالإسلاميين، ثم المحدثين من أمثال أبي العتاهية ومسلم بن الوليد، ودِعْبِل، وغيرهم. لكن كما قلنا لم يرتبهم طبقات.

وقد طبع كتاب (الشعر والشعراء) طبعة جيدة بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر في جزأين سنة ١٩٥٠ بدار إحياء الكتب بالقاهرة. ثم طبعة أخرى في جزأين أيضاً للمحقق نفسه سنة ١٩٦٦ بدار المعارف بالقاهرة.

كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني

وأبو الفرج هو علي بن الحسين بن محمد القُرَشيّ، يرجع نسبه إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية(1). وُلد أبو الفرج سنة ٢٨٤ هـ في أصفهان التي اشتهر بنسبه إليها، وتوفي سنة ٣٥٦ هـ.

وأبو الفرج إلى جانب كونه إماماً من أئمة الأدب في القرن الرابع الهجري، فهو شاعر، مؤرخ، نسَّابة، على معرفة واسعة بالسِّير والمغازي والأعلام، وباللغة، وبالغناء والقيان. وهذه المعارف الواسعة تتجلى فيما ألف من كتب غير كتاب الأغاني، مما بلغت عدتها عند من ترجموا له، خمسة وعشرين كتاباً، يذكر ابن النديم منها(2):

١ ــ كتاب مجرد الأغاني.
٢ ــ كتاب مَقَاتل آل أبي طالب، أو (مقاتل الطالبيين).
٣ ــ كتاب تفضيل ذي الحجة.
٤ ــ كتاب الأخبار والنوادر.
٥ ــ كتاب أدب السماع.
٦ ــ كتاب أخبار الطفيليين.
٧ ــ كتاب أدب الغرباء من أهل الفضل والأدب.
٨ ــ كتاب مجموع الآثار والأخبار.

(1) ويرجع ابن النديم نسبه إلى هشام بن عبد الملك. الفهرست ص ١٦٦.
(2) السابق ص ١٦٧.

٩ ــ كتاب أشعار الإماء والمماليك.
١٠ ــ كتاب الخمارين والخمارات.
١١ ــ كتاب الديارات.
١٢ ــ كتاب صفة هارون.
١٣ ــ كتاب الفرق والمعيار بين الأوغاد والأحرار، وهو رسالة في هارون بن المنجم.

وله مما لم يذكره ابن النديم كتب أخرى ذكرها صاحب معجم الأدباء وغيره. وكان أبو الفرج لعلمه وظرفه مقرباً من الحكام، أمراء ووزراء، فكان مقرباً من الوزير أبي محمد المهلبي، وله حظوةٌ عند ركن الدولة البويهي الذي جعله واحداً من كُتّابه، ويقال إن الصاحب بن عبّاد في الأندلس انتقد سيف الدولة لأنه لم يعط مكافأة لأبي الفرج على تأليفه كتاب الأغاني سوى ألف دينار فقط، وأن الصاحب بن عباد كان يقول: لقد اشتملت خزائني على مائتي ألف وستة آلاف كتاب، ما منها ما هو سميري غيره، ولا راقني منها سواه[1].

كتاب الأغاني:

مهما قلنا في كتاب الأغاني وقيمته وأهميته فلن نبلغ ما قاله فيه العلماء والدارسون من القدماء والمحدثين، وهو كتاب غنيٌّ عن التعريف لشهرته وانتشار صيته، ويكفي أن أي دارس للأدب وتاريخه لا يستغني عن الرجوع إليه. فهو كنز يغني صاحبه عن استصحاب كثير من الكتب كما يُروى عن الصاحب بن عَبَّاد أنه كان يستصحب في سفره ثلاثين جَمَلاً محملة بالكتب، فلما وصل إليه كتاب الأغاني استغنى عنها. وأن عضد الدولة بن بويه لم يكن كتاب الأغاني يفارقه في سفره ولا في حَضَره، وأنه كان جليسه الأنيس الذي يرتاح إليه.

وكان هدف أبي الفرج من تأليف كتاب الأغاني هو أن يجمع

(١) معجم الأدباء ١٣/٩٧.

أشهر أغاني عصره بكلماتها وألحانها، إذ كان الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ هـ - ١٩٣ هـ) قد أمر بعض مُغَنِّي عصره أن يختاروا له مائة صوت من بين الأغاني المشهورة، فلما تولى الخلافة حفيده الواثق (٢٢٧ هـ - ٢٣٢ هـ) طلب من إسحاق الموصلي أشهر المغنين آنذاك، أن يعيد النظر في هذه الأصوات المائة التي اختارها المغنون للرشيد وينقحها. وكان الرشيد قد أمر المغنين الذين اختاروا له المائة الصوت، قد طلب منهم أن يختاروا له عشرة منها، ثم طلب إليهم أن ينتخبوا من العشرة أفضل ثلاثة. فاستفتح أبو الفرج كتابه بهذه الأصوات أو الألحان الثلاثة، ومنها انطلق إلى بقية الأصوات المائة. أو التسعة والتسعين التي أوردها في كتابه.

وينفرد كتاب الأغاني بين جميع كتب التراث الأدبي العربي بكونه أغنى مصدر في الغناء وتاريخه وآلاته وقواعده وأسماء المغنين والمغنيات في عصره وعصر من سبقوه. كما أنه مرجع للمصطلحات الموسيقية المعروفة آنذاك.

ولكن الكتاب مع أنه كتاب في الموسيقى والغناء، فإنه من أغنى كتب التراث العربي بالشعراء والأدباء، وأخبارهم، وتراثهم، وأنسابهم ونوادرهم، وكل مظاهر حياتهم وحياة مجتمعاتهم.

فمن منهج الأصفهاني في كتابه، أنه كان يذكر الصوت الموسيقي، وسرعان ما ينتقل إلى المغني أو المغنية وصاحب النص الذي يُغنَى، فيذكر لهم تراجم وافية.

ومما يميز منهج أبي الفرج في (الأغاني) كثرة الاستطرادات، فمثلاً إذا كان شاعر أو مغن ممن يترجم له على صلة بخليفة أو أمير أو وزير، ينتقل إلى تلك الشخصية ليترجم لها ويذكر كل ما يعرفه عنها، ثم يعود مرة أخرى إلى شخصية الشاعر أو المغني. لذلك تضخم كتاب الأغاني، وتجاوز عددُ أجزائه العشرين جزءاً.

ومما زاد من ضخامة الكتاب، أن أبا الفرج كان يدعم رواياته

في الكتاب بالإسناد، وإذا تعددت الروايات في الخبر الواحد ذكر كل رواية بإسنادها.

وعلى امتداد الأجزاء العديدة للكتاب، تتناثر أخبار العرب وأنسابهم وأيامهم ومجتمعاتهم ومواطنهم وعلى الأخص مواطن الغناء كالمدينة ومكة وبغداد. والكتاب أيضاً معرض يذخر بالعديد من النصوص الأدبية شعراً ونثراً، ولذلك يصفه الصاحب بن عبّاد بأنه للزاهد فكاهة، وللعالِم مادة وزيادة، وللكاتب والمتأدب صناعة وتجارة، وللبطل رُجلة وشجاعة، وللمتطرف رياضة وصناعة، ولِلْمَلِك طيبة ولذاذة[1].

ولا يفوت أبا الفرج ما قد يصيب القارىء من ملل لو أنه استوفى شعر شاعر يترجم له، ثم يتركه ليستوفى غيره، لذلك كان ينتقل من موضوع إلى آخر ثم يعود بعد ذلك مرة أو مرات عدة للموضوع كي يستوفي جوانبه كلما سنحت الفرصة، دون أن يشعر القارىء بانقطاع مفاجىء أو عَوْد مفاجىء، محققا ذلك في براعة أعانه عليها علمه ووفرة معلوماته، وتعدد معارفه، وامتلاك ناصية موضوع كتابه الذي قضى في إعداده خمسين عاماً بين جمع وحفظ ودراسة وكتابة، وهو يبرر كثرة تنقله بين موضوعات الكتاب، وعدم استيفاء كل موضوع دفعة واحدة متصلة، فيقول في مقدمة كتابه التي يشرح فيها منهجه:

«. . . فلو أتينا بما غُنِّي به من شعر شاعر ولم نتجاوزه حتى نفرغ منه، لجرى هذا المجرى، وكان للنفس عنه نَبْوَة، وللقلب منه مَلَّة. وفي طباع البَشَر محبة الانتقال من شيء إلى شيء، والاستراحة من معهود إلى مستجد، وكل مُنْتَقَلٍ إليه أشهى إلى النفس من المنْتَقَل عنه، والمُنْتَظَرُ أغلب على القلبِ من الموجود، وإذا كان هذا هكذا، فما رتبناه أحلى وأحسن، ليكون القارىء له بانتقاله من خبر

(١) أبو الفرج في أغانيه ص ١٨٦ عن تجريد الأغاني لابن واصل الحموي.

إلى غيره، ومن قصة إلى سواها، ومن أخبار قديمة إلى مُحْدَثَةٍ، ومليك إلى سوقة، وجِدٍّ إلى هزل، أنشط لقراءته، وأشهى لِتَصَفُّحِ فنونه، ولا سيما والذي ضَمَّنّاه إياه أحسنُ جنسه، وصَفْوُ ما أُلِّفَ في بابه، ولُبَابُ ما جُمِعَ في معناه».

وقد شَغَل كتاب الأغاني كثيراً من الدارسين والعلماء، فتوفرت بعض الهمم على اختصاره شأن كثير من الكتب الهامة الطويلة، وكان للمخْتَصَرات منهج وهدف أيضاً، فمنها ما عمل على تجريد الكتاب من صفته الموسيقية، وحذف التكرار والتخفيف من العنعنات، كما فعل ابن واصل الحموي (ت ٦٩٧ هـ). الذي سَمَّى مُخْتَصَرَه (تجريد الأغاني من ذكر المثالث والمثاني).

وهناك محاولة أخرى لابن منظور (ت ٧١١هـ) صاحب معجم (لسان العرب)، وسمى مختصره (مختار الأغاني في الأخبار والتهاني).

أما ثالث المحاولات الشهيرة فهي محاولة الشيخ محمد الخُضَري (ت ١٩٢٧ م) إذ قام بتهذيب الكتاب وسماه (تهذيب الأغاني) وجعله في سبعة أجزاء فقط دون الفهارس.

وقبل هذه المحاولات في اختصار (الأغاني) كانت هناك محاولات، لعل أولها ما قام به الوزير حسين بن علي بن حسين أبو القاسم المعروف بالمغربي (ت ٤١٨ هـ).

وقد طُبع كتاب الأغاني لأول مرة بالقاهرة في عشرين جزءاً بمطبعة بولاق سنة ١٢٨٥ هـ/١٨٦٨ م ثم أكمله المستشرق (رُودُولف بْرُونُو) حين قام بطبع الجزء الحادي والعشرين منه سنة ١٣٠٦ هـ/١٨٨٨ م في لَيْدِنْ بهولاندة، ثم قام المستشرق الإيطالي (جويدي) وبعض مساعديه بعمل فهارس هجائية لهذه الطبعة، باللغة الفرنسية في مجلد كبير ١٣١٨ هـ/١٩٠٠ م في مدينة (لَيْدِنْ) أيضاً، ثم قام بطبعه الحاج محمد ساسي سنة ١٣٢٣ هـ على نفقته الخاصة

في القـاهرة في واحـد وعشرين جـزءاً، وأضيفت إليها الفهـارس التي وضعهـا (جويـدي)، ثم بدأت، دار الكتب بمصـر في طبـع الكتـاب طبعة جيدة سنة ١٩٢٧ م.

كتاب الفهرست: لابن النديم.

ابن النديم هو أبو الفرج محمد بن إسحاق البغدادي، مجهول تاريخ الولادة والوفاة، وهذا ما حَيَّر الدارسين، ويحيرهم حتى الآن. إذ أغفلت كتب التراجم بعده ذكر هذا الرجل وذكر تاريخ ميلاده أو تاريخ وفاته، مع أن كل من جاء بعده أفاد من ريادته في فن تأليف التراجم والسِّيَر، ورغم ذلك أهملوا ترجمته ولم يهملوا من هم دونه في القدر والمنزلة العلمية، فكم حفلت ترجماتهم بمن لو أغفلوا ذكرهم ما ضَرَّ ذلك في شيء. فابن خلكان أغفل ذكر ابن النديم في كتابه (وفيات الأعيان) وأفسح المجال لترجمة كثيرين ممن لو أغفل ذكرهم ما ضر ذلك في شيء، حتى محمد بن شاكر الكتبي الذي استدرك على ابن خلكان ما فاته من وفيات، خلا كتابه (فوات الوفيات) من ذكر ابن النديم.

وقد حاول الدارسون التماس شيء عن أخبار ابن النديم وعن مولده وحياته ووفاته، فلم يجدوا إلا شذرات أو إشارات عابرة لا تفي بالغرض، فمن ذلك مثلاً ما ذكره ياقوت في كتابه (معجم الأدباء) عن ابن النديم بقوله: «محمد بن إسحاق النديم، كنيته أبو الفرج، وكنية أبيه أبو يعقوب. مصنف كتاب الفهرست الذي جوَّد فيه واستوعب استيعاباً يدل على اطلاعه على فنون من العلم، وتحقُّقِه بجميع الكتب، ولا أبعد أن يكون وَرَّاقاً يبيع الكتب. وذكر في مقدمة هذا الكتاب أنه صُنِّف في سنة ٣٧٧، وله من التصانيف: فهرست الكتب. كتاب التشبيهات. وكان شيعياً معتزلياً».

ولم يذكر ياقوت شيئاً أكثر من هذا عن ابن النديم، لا حياته، ولا مولده، ولا وفاته. لذلك حاول الدارسون التماس مولده ووفاته من خلال كتابه الفهرست، ووضعوا تواريخ تقريبية لمولده ووفاته، ورأوا أن ميلاده كان في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع الهجري، وأن وفاته كانت بعد سنة ٤٠٠ هـ لأنه يترجم لأعلام توفوا

بعد هذا التاريخ كابن نباتة التميمي شاعر سيف الدولة الذي يقرر ابن النديم أنه مات بعد الأربعمائة. وهذا ينفي قول ابن النجار في كتابه (ذيل تاريخ بغداد) بأن ابن النديم صَنَّفَ كتابه الفهرست سنة ٣٧٧ ومات يوم الأربعاء لعشرٍ بقين من شعبان سنة ٣٨٥.

ولكن المفهوم من قول ابن النديم أن سنة ٣٧٧ لم تكن تاريخ انتهائه من تأليف الكتاب، بل كانت تاريخ الانتهاء من المقالة الأولى فقط من الكتاب الذي اشتمل على عشر مقالات طوال، أو عشرة أبواب كبيرة.

يقول ابن النديم في آخر المقالة الأولى، ص ٥٨[1]: «هذا آخر ما صنفناه من المقالة الأولى من كتاب الفهرست إلى يوم السبت مُسْتَهَلِّ شعبان سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، فنسأل الله البقاء لمن صنفناه له ولنا في عافية وأمن وكفاية...».

ويعلل بعض الدارسين إهمال المترجمين له بسبب اعتزاله وتشيعه، واتهامه بالرافضية، وإن كنا لا نرى ذلك سبباً وجيهاً في تعمد إغفالهم إياه، إذ أنهم ترجموا لزنادقة وملحدين وغيرهم.

وأيا ما كان السبب فابن النديم بكتابه الفهرست له فضل الريادة في هذا اللون من التأليف، إذ كان أول محاولة في فن التراجم المفهرسة في التراث العربي الإسلامي. ومن خلال مادة كتابه نستطيع أن نعرف مدى علمه الغزير، واطلاعه الواسع، ومعرفته الدقيقة بكل ما كُتِبَ من علوم وفنون ومعارف حتى عصره، سواء العربي الأصيل منها أو المنقول والمترجم من تراث الأمم الأخرى في شتى ميادين العلم والمعرفة.

كتاب الفهرست:

بالرغم من أن كتاب الفهرست سابق على ما كُتِبَ في بابه،

---

(١) طبعة المكتبة التجارية، بالمطبعة الرحمانية بالقاهرة، وهي بدون تاريخ.

غير أنه يتميز عنها في أكثر من وجه.

فهو لا يترجم لأشخاص، بل يترجم لمادة علمية، أو موضوع من موضوعات العلوم والفنون. وليس معنى ذلك أنه يهمل تراجم الأشخاص، بل يجعلها تابعة أو تالية لتراجم الموضوعات. كما أن تبعيتها لا تعني سطحيتها، ولكنه في ترجمته لأعلام هذا الفن أو ذاك، يذكر أسماءهم ونسبهم، ومولدهم ووفاتهم، وأعمالهم العلمية، فيعدِّد ما ألفوه من كتب في هذا الموضوع، وما قيل عنهم وعن أعمالهم، لا يغفل في رواياته أسانيدها وتنوعها. وفي ذلك يقول في مقدمة كتابه: «. . . فهذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم، الموجود فيها بلغة العرب وقَلَمِهَا في أصناف العلوم، وأخبار مُصَنفيها، وطبقات مؤلفيها وأنسابهم، وتاريخ مواليدهم، ومبلغ أعمارهم، وأوقات وفاتهم، وأماكن بلدانهم، ومناقبهم ومثالبهم، منذ ابتداء كل علم أُخْتِرِعَ إلى عصرنا هذا، وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة».

كما أن منهج ابن النديم في كتابه منهج متطور، وهو أشبه ما يكون بالمنهج العلمي الحديث، فهو لا يبدأ كل قسم من أقسامه بمقدمة أو خطبة، لا طويلة ولا قصيرة، بل يدخل على الموضوع مباشرة. حتى مقدمة الكتاب لا تتعدى بضعة أسطر قلائل لا تزيد على عشرة أسطر، وهو يعلل ذلك في مقدمته القصيرة تلك بقوله: «. . . النفوس أطال الله بقاءك، تَشْرَئِبُّ إلى النتائج دون المقدمات، وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل في العيادات، فلذلك اقتصرنا على هذه الكلمات في صدر كتابنا هذا إذ كانت دالةً على ما قصدناه في تأليفه إن شاء الله فنقول: . . .».

وبعد هذه المقدمة الموجزة، ينتقل ابن النديم إلى موضوع كتابه مباشرة بادئاً إياه باستعراض محتويات الكتاب وأقسامه، وفروع كل قسم منها بطريقة موجزة مرتبة منظمة، تماماً كما يفعل أي مؤلف الآن حين يبدأ أو يُنْهي كتابه بفهرست يبين موضوعات الكتاب

ومواضعها.

هذا العرض هو بمثابة فهرست الكتاب، أو إن شئت فقل فهرست الفهرست. وقد عَنْوَنَ ابن النديم فهرست كتابه بقوله: «اقتصاص ما يحتوي عليه الكتاب وهو عشر مقالات».

والمقالات العشر، هي بمثابة أبواب الكتاب، كل مقالة منها تنقسم إلى فصول أو كما يسميها هو (فنون). وكل مقالة من المقالات العشر احتوت ثلاثة فنون ما عدا المقالة الرابعة والخامسة والسادسة والتاسعة، فالرابعة والتاسعة كل منهما تحتوي على فنين اثنين فقط أي فصلين. أما الخامسة فقد اشتملت على خمسة فنون، والسادسة تضمنت ثمانية فنون.

ولما كان تبويب ابن النديم لكتابه بحسب الموضوعات والكتب لا بحسب الأشخاص فإنه يبدأ كتابه مُعَرِّفاً بلغات الأمم ووصف كتاباتها وأنواع خطوطها. فهو ينهج نهج التسلسل الزمني المنطقي.

ويبدأ موضوعات الكتب التي سيعرضها بكتب الشرائع المنزلة على مذاهب المسلمين ومذاهب أهلها. ثم بالقرآن الكريم وعلومه وما صنف من كتب في ذلك.

ومما تعلمه مؤلفو كتب التراجم والسِّير من ابن النديم في مناهج تأليفهم، هو مراعاة اجتذاب القارىء ومحاولة عدم إملاله، والحرص على إمتاعه في رحلته مع الكتاب. فانتهج جميعهم تضمين كتبهم شيئاً من الظرف والفكاهة والمُلَح، والنوادر والطرائف، على تفاوت فيما بينهم في الإكثار أو الإقلال من ذلك، وتفاوت في طريقة العرض والسَّرْد.

وابن النديم في مراعاته ذلك الجانب من نفس القارىء، لم يأت بطرائف ولا نوادر ولا مُلَح ولا نكات. بل راعى ذلك بأنه عزف عن المقدمات في بداية أبواب كتابه وفصوله حتى لا يطيل على القارىء فيمل، ثم أعطى القارىء ما يرغب فيه من نتائج ومعلومات

دون تباطؤ أو استطرادات خارج الموضوع وذلك ما يعنيه بقوله: «النفوس أطال الله بقاءك تشرئب إلى النتائج دون المقدمات، وترتاح إلى الغرض المقصود دون التطويل في العبارات، ولذلك اقتصرنا على هذه الكلمات في صدر كتابنا هذا...».

ويعتبر كتاب ابن النديم بالاصطلاح الحديث دائرة معارف متنوعة الثقافات والعلوم. كما أن لهذا الكتاب أهمية خاصة، في كونه يعرفنا بأسماء كتب ضاعت أو سُرِقَتْ أو قُضي عليها، ولولاه ما وصل إلينا علمها، وبالتالي ما كنا عرفنا عظمة فكر المسلمين والعرب، ولا وقفنا على ذلك الكم الهائل من المؤلفات المتنوعة التي ضاع معظمها ولم يصل إلينا إلا أقلها. وتكفي نظرة واحدة في كتاب ابن النديم لنرى كم ضاع من مؤلفات الجاحظ أو ابن قتيبة مثلاً، وغيرهما كثير ممن أعطانا ابن النديم صورة عن مؤلفاتهم الكثيرة المتعددة الموضوعات والمعارف.

ولم يكن الإعجاب بكتاب الفهرست مقصوراً على الدارسين من أبناء العربية وحسب، بل إنه حاز إعجاب المستشرقين، وأثارت نفاسته اهتمامهم، فقد قال عنه المستشرق الإيطالي (نالينو) في (ملخص محاضرات علم الفلك):

«هذا كتاب من أنقى النفائس، لا نظير له فيما يتعلق بمعرفة مُصَنِّفي العرب وتآليفهم في كل فن إلى أواخر القرن الرابع للهجرة، ومعرفة ما تُرجم إلى العربية من كتب الهند والفُرْس واليونان والسريان، فتجدون فيه أخبار مئات من الكتب، وتستفيدون منه أسماء ألوف من التصانيف المفقودة الآن، الغير مذكورة في كتب أخرى، فهو منبع غزير، ومُصَنَّفٌ لا بد منه لكل من يشتغل بتاريخ أدبيات العرب القديمة، بل لا تقتصر أهميته على إيضاح حال الحضارة الإسلامية والعربية القديمة... وقد انتفع به المستشرق (خولسن) في اعتقادات الصابئة، والعلاّمة (فلوجل) عند بحثه في أخبار ماني وأصحاب مذهبه».

وقد بلغ اهتمام المستشرق (فلوجل) بالفهرست أنه قام بنشره لأول مرة في ليبزج بألمانيا سنة ١٨٧٢ م. وأعيد نشر هذه الطبعة في بيروت سنة ١٩٦٤ م. كما أن الكتاب حظي بالترجمة إلى الفارسية والإنجليزية، إذ نقله إلى الفارسية العالم الإيراني م. رضا تجدد، وإلى الإنجليزية المستشرق (بيير ددج) بتكليف من جامعة كولومبيا بأمريكا.

وما كان هذا الكتاب ليستثير همم الدارسين من العرب وغير العرب لولا أنه جدير بكل تلك الاهتمامات من حيث المحتوى النادر المتنوع الشامل لعلوم العرب وغير العرب، وما دُوِّن في تلك العلوم والمعارف من كتب، وما ترجم من تراث غير عربي، مع عدم إغفال ترجمة مؤلفي هذه الكتب ومترجميها، في منهج منظم متطور مُركَّز يخلو من الحشو والتكرار والاستطراد وكثرة المقدمات والتعريفات.

وبإلقاء نظرة على أقسام الكتاب التي أثبتها ابن النديم في أول الفهرست ندرك مدى عظمة العمل وضخامته:

المقالة الأولى: وهي ثلاثة فنون: ـ

الفن الأول: في وصف لغات الأمم من العرب والعجم، ونعوت أقلامها، وأنواع خطوطها وأشكال كتاباتها.

الفن الثاني: في أسماء كتب الشرائع المُنَزَّلة على مذاهب المسلمين ومذاهب أهلها.

الفن الثالث: في نعت الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد، وأسماء الكتب المصنَّفة في علومه، وأخبار القُرَّاء، وأسماء رُواتهم، والشواذ من قراءتهم.

المقالة الثانية: وهي ثلاثة فنون في النحويين واللغويين.

الفن الأول: في ابتداء النحو وأخبار النحويين البصريين وفصحاء الأعراب، وأسماء كتبهم.

الفن الثاني: في أخبار النحويين واللغويين من الكوفيين وأسماء

كتبهم.

الفن الثالث: في ذكر قوم من النحويين خلطوا المذهبين، وأسماء كتبهم.

المقالة الثالثة: وهي ثلاثة فنون في الأخبار، والآداب، والسِّيَر والأنساب.

الفن الأول: في أخبار الإخباريين، والرواة والنسَّابين، وأصحاب السِّيَر والأحداث، وأسماء كتبهم.

الفن الثاني: في أخبار الملوك، والكتَّاب، والمترسِّلين، وعمال الخراج، وأصحاب الدواوين، وأسماء كتبهم.

الفن الثالث: في أخبار الندماء، والجُلَساء، والمغَنِّين، والصَّفادمة، والصفاعنة، والمضحكين، وأسماء كتبهم.

المقالة الرابعة: وهي فَنَّان في الشعر والشعراء.

الفن الأول: في طبقات الشعراء الجاهليين، والإسلاميين ممن لحق الجاهلية، وصُنَّاع دواوينهم، وأسماء رُواتهم.

الفن الثاني: في طبقات شعراء الإسلاميين، وشعراء المحْدَثين إلى عصرنا هذا.

المقالة الخامسة: وهي خمسة فنون في الكلام والمتكلمين.

الفن الأول: في ابتداء أمر الكلام والمتكلمين من المعتزلة والمرجئة، وأسماء كتبهم.

الفن الثاني: في أخبار متكلمي الشيعة، والإمامية، والزيدية، وغيرهم من الغُلاة والإسماعيلية، وأسماء كتبهم.

الفن الثالث: في أخبار متكلمي المُجْبِرة والحشوية، وأسماء كتبهم.

الفن الرابع: في أخبار متكلمي الخوارج وأصنافهم، وأسماء كتبهم.

الفن الخامس: في أخبار السُّيَّاح، والزُّهَّاد، والعباد، والمتصوفة، والمتكلمين على الوساوس والخطرات، وأسماء كتبهم.

المقالة السادسة: وهي ثمانية فنون، في الفقه والفقهاء والمحدِّثين.

الفن الأول: في أخبار مالك وأصحابه، وأسماء كتبهم.

الفن الثاني: في أخبار أبي حنيفة النعمان وأصحابه، وأسماء كتبهم.

الفن الثالث: في أخبار الإمام الشافعي وأصحابه، وأسماء كتبهم.

الفن الرابع: في أخبار داود وأصحابه، وأسماء كتبهم.

الفن الخامس: في أخبار فقهاء الشيعة، وأسماء كتبهم.

الفن السادس: في أخبار فقهاء أصحاب الحديث والمحدِّثين، وأسماء كتبهم.

الفن السابع: في أخبار أبي جعفر الطبري وأصحابه، وأسماء كتبهم.

الفن الثامن: في أخبار فقهاء الشّراة، وأسماء كتبهم.

المقالة السابعة: وهي ثلاثة فنون، في الفلسفة والعلوم القديمة.

الفن الأول: في أخبار الفلاسفة الطبيعيين والمنطقيين، وأسماء كتبهم، ونقولها وشروحها والموجود منها، وما ذكر ولم يوجد، وما وُجد ثم عُدم.

الفن الثاني: في أخبار أصحاب التعاليم والمهندسين، والأرثماطيقيين، والموسيقيين، والحُسَّاب، والمنجمين، وصُنَّاع الآلات، وأصحاب الحيل والحركات.

الفن الثالث: في ابتداء الطب، وأخبار المتطببين من القدماء والمحدثين، وأسماء كتبهم ونُقُولها وتفاسيرها.

المقالة الثامنة: وهي ثلاثة فنون، في الأسماء والخرافات والعزائم والسحر والشعوذة.

الفن الأول: في أخبار المسامرين والمخرفين والمصورين، وأسماء الكتب المصنفة في الأسماء والخرافات.

الفن الثاني: في أسماء المعزمين والمشعبذين والسحرة، وأسماء كتبهم.

الفن الثالث: في الكتب المصنَّفة في معان شتَّى، لا يُعرف مصنفوها ولا مؤلفوها.

المقالة التاسعة: وهي فَنَّان في المذاهب والاعتقادات.

الفن الأول: في وصف مذاهب الحَرَّانيَّة الكلدانيين المعروفين في عصرنا بالصائبة، ومذاهب الثَّنَويَّة من المنَّانِيَّة والديصانية، والحرميَّة، والمرقيونية، والمزدكية، وغيرهم، وأسماء كتبهم.

الفن الثاني: في وصف المذاهب الغريبة الطريفة، كمذاهب الهند والصين، وغيرهم من أجناس الأمم.

المقالة العاشرة: تحتوى على أخبار الكيميائيين، والصَّنعويين من الفلاسفة القدماء والمحدثين، وأسماء كتبهم.

وقد طبع الفهرست بالقاهرة، طبعة تجارية سنة ١٣٤٨ هـ.

كتاب معجم الأدباء لياقوت الحموي

والمؤلف هو أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي. أما الرومي فهي نسبة إلى مسقط رأسه بلاد الروم، ويرجح أن مولده كان سنة ٥٧٥ هـ تقريباً، وأما الحموي فإنها نسبة إلى سيده الذي ابتاعه واسمه عسكر بن أبي نصر إبراهيم الحموي. وكان ياقوت يُلَقَّب أيضاً بشهاب الدين.

وقد أحسن عسكر الحموي تربية ياقوت، فعلمه القراءة والكتابة والحساب ليعينه في تجارته وأسفاره، وقد أفاد ياقوت كثيراً من أسفاره، وعندما مات سيده كان قد أصاب قدراً من الثقافة فانصرف إلى نسخ الكتب والوراقة، وكانت مهنة رائجة، فأفاد من ذلك معارف كثيرة وعلماً غزيراً، وفي سنة ٥٦٣ رحل من بغداد إلى دمشق، ثم خرج من دمشق هارباً من ثورة أهلها عليه للتحامل على الإمام عليّ بن أبي طالب في مناظرة مع أحد البغداديين، وتوجه إلى حلب، ومن حلب إلى الموصل، ومنها إلى إربل، ومن إربل إلى خراسان فقضى فترة في مدينة مَرْو، ومن مَرْو إلى نَسَا، ومنها إلى خوارزم، ثم يخرج من خوارزم سنة ٦١٦ فارًّا من هجوم التتار ليصل إلى الموصل بعد أن تعرض لكثير من المخاطر. وأخيراً يعود إلى حلب حوالى سنة ٦١٧ هـ ويظل بها حتى يموت سنة ٦٢٦ هـ.

وقد أفاد ياقوت الكثير من أسفاره واشتغاله بالوراقة ونسخ الكتب ومخالطة العلماء، فألف عدة كتب هامة، منها كتاب أخبار الشعراء المتقدمين والمتأخرين، وكتاب المبدأ والمآل في التاريخ، وكتاب المشترك وضعاً المختلف صقعاً، وكتاب الدول، وكتاب مجموع كلام أبي عليّ الفارسي، وكتاب المقتضب في النَّسَب، وكتاب أخبار المتنبي، وغيرها من كتب كان أهمها جميعاً وأشهرها،

كتاب معجم البلدان، وكتاب معجم الشعراء، وكتابنا هذا معجم الأدباء.

كتاب معجم الأدباء ومنهجه:

يعبر معجم الأدباء عن عنوانه أصدق تعبير، إذ التزم ياقوت في ترتيب تراجمه حروف الهجاء التزاماً دقيقاً في اسم الشخصية المترجم لها ثم اسم الأب واسم الجد، فإذا اتفقت الأسماء في كل ذلك فإنه يجعل المفاضلة في ترتيبها تقديماً أو تأخيراً بحسب سنة الوفاة، فالسابق منهم في الوفاة، يجعله سابقاً في الترتيب.

كما أن المؤلف لم يلتزم ترتيباً مكانياً أو ترتيباً قيمياً، أو ترتيباً زمنياً، أو أي نوع من أنواع الترتيب الذي التزمته كتب الطبقات، بل الترتيب الوحيد الذي سار عليه بدقة هو ترتيب حروف الهجاء.

يقول في مقدمة الكتاب التي وضح فيها منهجه توضيحاً كافياً: «وجعلت ترتيبه على حروف المعجم، أذكر أولاً مَنْ أولُ اسمه «ألف» ثم مَنْ أول اسمه «باء» ثم «تاء» ثم «ثاء» إلى آخر الحروف...» ثم يقول: «... وألتزم ذلك في الآباء أيضاً، فأعتبره، فإنك إذا أردت الاسم فإنك تجد له موضعاً واحداً، لا يتقدم عليه، ولا يتأخر عنه، اللهم إلا أن يتفق أسماء عدة رجال وأسماء آبائهم، فإن ذلك مما لا حصر فيه إلا بالوفاة، فإني أقدم من تقدمت وفاته علي من تأخَّرَتْ...» ثم يقول في شمول طريقته: «ولم أقصد أدباء قُطر، ولا علماء عصر، ولا إقليم معيّن، ولا بلدٍ مُبيَّن...».

وقد قام ياقوت في تراجمه للشخصيات بمسح شامل لأقطار الدولة الإسلامية قديماً يقول: «... بل جمعتُ للبصريين، والكوفيين والبغداديين، والخراسانيين، والحجازيين، واليمنيين، والمصريين، والشاميين، والمغربيين، وغيرهم، على اختلاف البلدان، وتفاوت الأزمان، حسب ما اقتضاه الترتيب وحَكَمَ بوضعه

التبويب، لا على قدر أقدارهم في القدمة والعلم والتأخر والفهم...».

وقد حوى معجم الأدباء تراجم لألفٍ وخمس وستين شخصية من الأعلام عدا الشعراء. فقد التزم بعنوان كتابه، فلم يترجم إلا للأدباء، بالمفهوم الواسع للأدب آنذاك، ولم يذكر من الشعراء إلا من كان له منهم تأليفٌ أو تصنيف إلى جانب ما اتصف به شاعراً. ومن هؤلاء أبو العلاء المعرِّي، والبحتري، وابن عبد ربه الأندلسي، ذلك لأنه كان قد خصص معجماً لتراجم الشعراء الذين لم يُعرفوا إلا بالشعر فقط. وهو يوضح ذلك في مقدمته قائلاً: «... وكنتُ قد شَرَعْتُ عند شروعي في هذا الكتاب أو قبله، في جمع كتابٍ في أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء، ونسجتها على هذا المنوال، وسَبَكتُها على هذا المثال، في الترتيب، والوضع والتبويب، فرأيت أكثر أهل العلم المتأدبين، والكبراء المتصدرين، لا تخلو قرائحهم من نَظْم شعر، وسَبْك نَثْر، فأودعتُ ذلك الكتابَ كلَّ مَنْ غَلَبَ عليه الشعرُ فدُوِّنَ ديوانُه، وشاع بذلك ذكرُه وشانُه، ولم يشتهر برواية الكتب وتأليفها، والآداب وتصنيفها، وأما مَنْ عُرِفَ بالتصنيف، واشتهر بالتأليف، وصَحَّتْ روايته وشاعتْ درايته وقَلَّ شعره، وكثر نَثْرُه، فهذا الكتابُ عُشُه ووكرُه، وفيه ثناؤه وذكرُه، وأجتزىء به عن التكرار هناك، إلا النفر اليسير الذي دَعَتْ الضرورة إليهم، ودَلَّتْنَا عنايتُهم بالصناعتين عليهم، ففي هذين الكتابين أكثر أخبار الأدباء من العلماء والشعراء، وقصدتُ بترك التكرار، خفةَ مَحْمَلِه في الأسفار، وحيازة ما أهواه من هذا النشوار».

وبهذا التخصيص والتخصص يتميز كتاب ياقوت عن غيره من المعاجم الأدبية، فضلاً عن تميزه بالدقة في الترتيب الأبجدي لشخصيات كتابه.

ومما يتميز به ياقوت أيضاً في منهج الكتاب، أنه يسلك مسلكاً

متطوراً يتسم فيه بالأمانة العلمية إلى جانب الدقة، ذلك أنه يذكر أسماء الذين استفاد من كتبهم، ويذكر أحياناً كتبهم. يقول: «... وأثْبَتُّ مواضعَ نَقْلي ومواطنَ أخذي من كتب العلماء المعَوَّل في هذا الشأن عليهم، والمرجوع في صحة النقل إليهم...».

كما أنه تخفف كثيراً من الإسناد في رواياته، فيقول: «وحَذَفْتُ الإسنادَ إلا ما قَلَّ رجالُه، وقَرُبَ منالُه مع الاستطاعة لإثباتها سَمَاعاً وإجازةً، إلا أنني قصدتُ صِغَر الحجم، وكِبَرَ النفع...».

وياقوت - على ضخامة العدد الذي ترجم له في كتابه - يورد في ترجمته قدراً كافياً من الأخبار والروايات، ويذكر لصاحب الترجمة ما أنتج وألّف وصنّف، ويذكر تواريخ الولادة والوفاة، وما كان لصاحب الترجمة من أثر في مجتمعه، وما مرَّ به من مواقف وأحداث، كما أنه لم يقتصر على ذكر الأدباء وحسب بل تناول فيه أعلاماً من اللغويين والنحاة والمؤرخين والنَسَّابين، والرواة، والإخباريين، والقُراء، والوراقين، والكتّاب وغيرهم من المشهورين في ميادينهم: «... وجمعتُ في هذا الكتاب ما وقَعَ إليَّ من أخبار النحويين واللغويين، والنَّسَّابين، والقُرَّاء المشهورين، والإخباريين، والمؤرخين، والورَّاقين المعروفين، والكُتّاب المشهورين، وأصحاب الرسائل المدوَّنة، وأرباب الخطوط المنسوبة والمعَيَّنة، وكلِّ مَن صَنَّفَ في الأدب تصنيفاً، أو جَمَعَ فنَّه تأليفاً... ولم آلُ جُهْداً في إثبات الوَفَيَات، وتبين المواليد والأوقات، وذكر تصانيفهم، ومُسْتَحْسَنِ أخبارهم، والإخبار بأنسابهم، وشيء من أشعارهم، فأما مَنْ لقيتُه أو لقيتُ مَنْ لَقِيَه، فأوردُ ذلك من أخباره، وحقائق أموره ما لا أترك لك بَعْدَه تَشَوُّفاً إلى شيء من خبره ما أدَّتْ الاستطاعةُ إليه، وَوَقَفَنِي النَّقلُ عليه، في تَرْدادِي إلى البلاد، ومخالطتي العباد...».

وبذلك تكتمل أهمية هذا الكتاب، ليصبح مصدراً غنياً موثَّقاً لنواحي شتى مر العلوم والفنون، يرجع إليه دارس الأدب والتاريخ

والاجتماع وكثير ممن يبتغون توثيق إنتاجهم في تلك المجالات.

وبالرغم من ثراء الكتاب بالعديد من الشخصيات، والكثير من الروايات والمعارف، فإنه قلَّما يوجز في الترجمة أو يختصر في المعلومات، بل قد تستغرق ترجمة بعض الشخصيات صفحات طوالاً كترجمة الصاحب بن عباد مثلاً، وترجمة أبي العلاء المعري، وترجمة أبي سعيد السيرافي، وترجمة أسامة بن منقذ.

ومع هذا الجهد العلمي الضخم، والعمل الرائع الشاق، فإن المؤلف العالِم، لا يفوته أن يعتذر في مقدمة الكتاب عما قد يكون قصَّر فيه، أو جانبه التوفيق، ومن ذلك يتجلى فيه تواضع العلماء، واحتراز من يسعون إلى الكمال. فهو لا يتورع أن يقول: «. . . وأنا قد اعترفتُ بقصوري فيما اعتمدتُ عن الغاية، وتقصيري عن الانتهاء إلى النهاية، فأسألُ الناظرَ فيه ألا يعتمد العَنَتَ، ولا يقصدُ قَصْدَ مَنْ إذا رأى حسناً سَتَرَه، وعيباً أَظْهَرَه، وليتأمله بعين الأنصاف لا الانحراف، فمن طَلَبَ عيباً وَجَدَّ وَجَدَ، ومَنْ افْتَقَد ذَلَلَ أخيه بعين الرضا فقد، فرحم اللَّهُ امرأً قَهَرَ هواه، وأطاع الأنصاف ونواه، وعَذَرَنا في خطأ إنْ كان مِنَّا، وزلل إنْ صَدَرَ عَنَّا، فالكمال مُحال لغير ذي الجلال، فالمرءُ غير معصوم، والنسيان في الإنسان غير معدوم. . .».

ونتيجة لهذه الدقة، وهذا التواضع، فإنا لا ننظر إلى ما وعد به في مقدمة الكتاب من أنه سيجعل في آخر كل حرف فصلاً يذكر فيه من اشتهر بلقبه من الأدباء على ذلك الحرف، من غير أن يورد شيئاً من أخباره فيه، ولكن ليسهل للقارىء مهمة طلب هذا الشخص في موضعه، ولكن المؤلف لم يحقق في الكتاب ماوعد به في المقدمة، نقول إن عدم وفاء المؤلف بما وعد به، لا نظن أنه نسيان أو إهمال، بل يمكن أن نستشف منه أنه مات قبل التمكن من سد هذا الفراغ وغيره، خاصة وأن المؤلف لم يعش طويلاً إذ مات في سن الخمسين أو ما يقاربها. ومع ذلك فإنه ترك لنا أهم مرجع وأضخم

معجم في المكتبة العربية للأدباء على تعدد مجالاتهم، وتباين مشاربهم، فكان أول مصدر في بابه، وأوفى مرجع لطلابه.

ويرى بعض الباحثين أن الاسم الأصلي لكتاب ياقوت هو (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) أو (إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء)، ولكن الكتاب اشتهر بمعجم الأدباء مطابقة لمضمونه، واختصاراً لطول الاسم.

وقد طبع الكتاب لأول مرة في سبعة مجلدات في أوروبا ما بين سنة ١٩٠٧ م وسنة ١٩٢٦ م والذي اعتنى بطبعه هو المستشرق الإنجليزي (مرجليوث).

وطبع في مصر في الفترة ما بين سنة ١٩٣٦ م وسنة ١٩٣٨ م بدار المأمور، تحت إشراف الدكتور أحمد فريد الرفاعي.

* * *

وبعد فقد كانت تلك المحاولة إطلالة عاجلة على تراثنا العربي، وطريقة جمعه وتدوينه، وتصنيفه، وما أفرزته قرائح علمائنا الأوائل من فكر وفن، وما حبونا به من كنوز علمية ضاع أكثرها، وضل طريقه إلينا معظمها، وما تبقى لنا ما يزال منه الكثير قابعاً في خزائن مكتباتنا ومكتبات العالم الشرقي والغربي، مخطوطاً ينتظر من يبعث فيه الحياة، ويخرج جواهره إلى النور، يمسح من فوقها غبار السنين، ويزيح عنها غشاوة الدهور، وكما رأينا أن كثيراً من هذه الكنوز كان أول من استجلاها وكشف عنها غطاءها، جماعة من غير أهلها، فما أحرانا أن نمد أيدينا إلى ما تركه لنا الأجداد، وما خلفه لنا السلف من عصارة أذهانهم، وخلاصة تجاريبهم، وذخائر أعمارهم وعصورهم.

وما تناولنا بالحديث إلا أقل القليل من ذلك التراث، عرضنا لنماذج من ألوانه على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، فما سبيل

الحصر ميسورة لفرد أو أفراد، فإن تراثنا على قلة ما وصل إلينا منه، وفير وفير، تعمر رفوف المكتبات بمنشوره، وتمتلىء خزائنها بمخطوطه، وتذخر أدراج فهارسها بألوانه، فعسى تشرئب إليه أعناق شبابنا، وتتوجه بعض عزائمهم إلى التعرف عليه أو على جانب منه، لتصل ماضيها بحاضرها، وتجعل منه سنداً وأساساً لمستقبل لا مكان فيه إلا لذوي النُّهَى.

فهرس